شخصيات حية من الأغانى

دريه

د. محمد المنسى قنديل

شخصيات حية

من



د. محمد المنسى قنديل



الإخراج الفني : محمد المحجوب

شخصيات حية

من

الأغاني

أبو الفرج الأصفهانى

لو وجد أبو الفرج الأصفهانى فى أيامنا . . هل كان يستطيع أن يؤلف «الاغانى» ؟ . ناهيك عن ضيق الوقت . وكثرة المشاغل . واللهاث خلف لقمة العيش . وعدم ملاءمة هذا النوع من المؤلفات الموسوعية لعصرنا .

وهل كان يستطيع أن يجد بيننا مادته الحية ؟

ذلك الكم الكبير من فرسان الصحراء ، والخلفاء ، والندامى ، والشعراء ، والجوارى ، وربات الخدور ، والقيان المغنيات ، وسلاطين الحيرة والصعاليك والشواذ ، والظرفاء ، والمتأدبين ، وعلماء الكلام ، ومثيرى الفتن ، والشعوبيين والعذريين ، والهازلين ، وقاطعى الطرق .

هل كان يستطيع أن يعيد أنس الليالى الخوالى . ويبعث الضوء فى سماواتنا الخابية النجوم ؟

أم أنه سوف يجدنا متعبين . نادمين على اليوم الذى نعيشه خائفين من اليوم الآتى . سوف يجدنا فى ذيل القائمة بعد أن كنا فى أولها . لن يجد أبو الفرج فى لياليتا مادة الاسمار الحية . ولن يجد فى اشعارنا ذلك الوضوح والرغبة الصريحة ولن يجد أيضاً فى قصص حبنا ذلك الهوى المستعر . حتى أغانينا سوف تؤذى اذنيه وهى تتكرر وتعيد نفس المعانى الركيكة كأنها اسطوانة مشروخة .

ليبق ابو الفرج بعيداً . وليبق الأغانى كتاباً فوق الرف . فالايام لم تعد هى الايام . ونحن لم نعد نحن . وهذا الكتاب الغريب يحمل من الاسى بقدر ما يحمل من المتعة . كأن نوادره وأخباره وتراجم شعرائه مرثية طويلة لشمسنا الغاربة .

ذات ليلة أرق هارون الرشيد ، ظل يتقلب فوق فراشه . لم تكن به رغبة فى أى شىء ولم تكن المسكنات قد تقدمت لهذه الدرجة . نهض وأمر حجابه أن يحضروا كل ما فى بغداد من مغنيين وندماء ، ولم يمر وقت حتى جاء جمعهم . بعضهم يعانى من أثر النوم والبعض من أثر السهر كان الخليفة متجهما وأمرهم أن يختاروا أحسن مائة صوت ترنم بها المغنــون . وتنفس الجميع الصعداء ، وأخذوا يرتبون له الأصوات حسب جودة الحانها وكلماتها . . ارتاح الخليفة قليلاً وأمرهم بالانصراف . حاول أن ينام لكن النـوم ظل جـافياً . عـاود النهوض والأمر بإحضار الجميع مرة أخرى . جاءوا يرجفون وهم يظنون أنهم اخطأوا فى الاختيـار . لكنه أمـرهم أن يختاروا من المـائة صـوت أحسن عشرة أصـوات . اختاروا وانصرفوا وللمرة الثالثة ظل النوم جافياً فإستدعاهم وكانوا عند باب القصر لم يغادروه فأمرهم أن يختاروا أحسن ثلاثة اصوات . فأختاروا الصوت الأول من شعر أبى قطيفة وهو ليس من الشعراء الفحول . وثانيهما عمر بن أبى ربيعه . وثالثهما الشاعر الاسود نصيب . . وهدأت نفس الخليفة وامتد حبل المجلس وهم يغنون الصوت الأول .

القصر فالنخل فالجماء بينهما
أشهى إلى القلب من أبواب جيرون . .

وظلوا يرددون هذه الأغنية حتى غارت النجوم وجاء الصباح .

هذا هو المنهج البدائى الذى وضعه أبو الفرج أمامه قبل أن يقضى خمسين عاماً يخط فيها موسوعته الضخمة «الاغانى» ، يرتب الاصوات المائة . الثلاثة فالعشرة فبقية المائة . يترجم للشعراء وللمغنيين ويعقبهم بفصول فى غناء أولاد الخلفاء . ويتعرض من خلال ذلك لكافة جوانب العصر السياسية والاجتماعية . خمسون عاماً كاملة وهو يفند الأخبار ويفاضل بين الروايات ويجتهد فى جمع الطريف والمفيد ، حتى استطاع أن يتم نسخة واحدة ذهب بها إلى سيف الدولة الحمدانى فأعطاه ألف دينار .

الاقدمون قالوا عن أبى الفرج أنه عبقرى فذ . صنع ما لم يصنعه أحد . وقالوا بل هو أكذب الناس . كان يذهب لسوق الوراقين فيحمل إلى بيته ما يمكن حمله . ويعكف فى البيت على سرقة ما يجد من أخبار وينسبها لنفسه . وحكى الصـاحب بن عباد أنـه كان يصطحب معه إلى موسم الحج حمولة ثلاثين جمـلاً من الكتب . فلما ظهر كتـاب الأغانى إستغنى به عن كل الكتب والجمال . لكن ياقوت الحموى يتساءل شامتاً . أين هى هذه المائة صوت ؟ إنها تسعة وتسعون فقط . ويضيف طه حسين بذوقه الادبى الراقى . أن أهم كتابين فى التراث هما : تاريخ الطبرى وهو المرجع فى تاريخ الاسلام السياسى . وكتاب الاغـانى وهو المـرجع أيضـاً فى وصف الحياة الاجتمـاعيـة والادبيـة والمـزاج الحضـارى الاسلامى .

ان رجال السياسة يتراجعون قليلا ليتقدم الشعراء . يخفض الفرسان سيوفهم حتى يعلو صـوت الغناء . يتـوقف صليل السيـوف ويتواصـل إيقاع اللحن والسمـر . لقـاء

محبوبين . سهرة فى الصحارى البعيده حول عين ماء . . يجلس اعرابى حوله مجموعة من الفتيات لا يعرفهن ولا يعرفنه يسامرهن ويروى لهن الأشعار . . ثم يذبح ناقته إذا أقبل الفجر فيأكل ويأكلن ويمضى دونما وداع . عشاق معذبون . . عندما يسمعون حداء القوافل يلفظون أنفاسهم الأخيرة . ما بين حرارة اللقيا ومرارة البين . يؤرخ ابو الفرج لهؤلاء الصفوة من الناس الذين رفعهم جهدهم العقلى عن طبقتهم العادية وزرع داخلهم بذرة الطموح القلق . هكذا ظلوا يتأرجحون بين الاحلام التى يقبضون عليها فى الشعر والقصائد ، وبين قوانين الانساب الارستقراطية القائمة والتى لا ترحم . .

ولد على بن الحسن بن محمد القرشى الكاتب المعروف بالاصفهانى فى أواخر القرن الثالث الهجرى وقضى شبابه وكهولته فى بداية القرن الرابع الهجرى . ولد عام ٢٨٣ هـ نفس العام الذى مات فيه البحترى الشاعر . وهو شاهد على عصر مضطرب . مثل كل العصور التى تحمل مخاضاً كاذباً يوهم بالتغير ولا شىء يتغير . كانت الدولة الاسلامية التى فتحها الراشدون والامويون وسلموها للعباسيين قد ذهبت شيعاً . فى بغداد استولى الفارسيون على الحكم . وفى دمشق قامت دولة سيف الدولة الحمدانى وفى مصر كان الفاطميون . وفى المغرب والاندلس كان بنو أمية . وكل فريق يدعى الشرعية واحقيته بحكم المسلمين إما بحق النسب الشريف أو بقوة السيف .

فى بغداد كانت الخلافة العباسية قد هزلت وتحولت إلى صورة هشة كلما نفختها جماعة من العسكر سقطت . ولعل أسماء الخلفاء فى هذا العصر تعكس ما وصلوا إليه من هوان . مثلاً . . الخليفة المطيع لله . الخليفة المتوكل على الله ؛ وكلها صفات حافلة بالخنوع والطاعة لله اسماً . يكفى أن ينام الخليفة فوق سرير الخلافة ويأتى عليه الصباح فإما يجد نفسه نائماً فى السجن أو نائماً فى القبر .

فى عام ٣٣٤ هـ أى فى صدر شباب أبى الفرج اقتحمت عائلة فارسية من الديلم بغداد وتمكنت من الاستيلاء عليها ووصل قائدهم الحسن أحمد بن بويه واجتمع بالخليفة المستكفى بالله وبايعه فرضى الخليفة عنه وهل كان يملك إلا أن يرضى . وخلع عليه لقب نصر الدولة . واستقر آل بويه احتلوا ما أعجبهم من دور وقصور وسط بغداد . غيروا ما غيروا ونهبوا ما نهبوا والخليفة راض تمام الرضى خاصة عندما رتب له نصر الدولة كل يوم خمسة آلاف درهم يتسلمها كاتبه لنفقات الخلافة .

كان ابو الفرج إبن عصره بحق . عرف أن هناك أكثر من مائدة وأن عليه أن يجلس عليها مخلصاً لكل صنوف الطعام . منذ اللحظة التى اقتحم فيها آل بويه بغداد وهو يسير فى ركابهم فينادمهم ويؤلف الرسائل استجلاباً لرضاهم حتى حسبه معظم مؤرخى سيرته متشيعاً . وظل فترة طويلة من جلساء الوزير المهلبى وزير آل بويه . ولم يكتف بتدعيم مركزه

فى بغداد لكن طموحه تعدى الحدود ، فأقام الصلات الوثيقة مع سيف الدولة وراسل بنى أميه فى بلاد المغرب ، وأرسل لهم أكثر من كتاب لم يبق منها شىء غير فصول متفرقة من كتاب «أدب الغرباء» .

كان سؤال العصر الحائر . . أين يمكن أن يكون الولاء لأى دولة ؟ ولأى حكام ؟ أمة مفتتنة ترقص رقصة الموت . تبنى القصور الباذخة . وتغرق فى الملذات ، يزداد الاقطاعيون وحشية ويزداد حرافيش مدنها فقراً ، تهب ريح الخطر من كل جانب . على الحدود الشرقية لدولة العباسيين تتخلق أقوام جديدة . تتجمع جحافل من البشر الحفاة الجوعى كان مقدراً لها أن تجتاح العالم المتحضر ــ وبغداد فى المقدمة ــ اجتياح الجراد ولا تترك خلفها إلا الخراب . هؤلاء هم التتار يتكونون وسط شرنقة السهوب الباردة .

دولة سيف الدولة تقيم نوعاً من التوازن الخطر بين الروم فى الشمال والصليبيين فى الجنوب . وتدخل كل فترة من الزمن فى غزوة قصيرة لا ينتصر فيها أحد ولا ينهزم فيها أحد . معارك هدفها الوحيد فقط هو حفظ التوازن .

بنو امية أيضاً فى المغرب والاندلس تترصدهم قبائل القوط وتتأهب لطردهم عبر البحر ليذهب الاندلس إلى الأبد ويخرج العرب من فردوسهم المفقود .

عن تلك البقية من الأمة اعتكف ابو الفرج خمسين عاماً فى بيت على ضفة دجلة يسمع غناء الفلاحين والموالى وهم يرددون المواويل عما حل بالبرامكة من نكبات . عن عز الرشيد وذل شرلمان . ويشهد راية العباسيين السوداء تخالطها نقوش الديلم السلاجقة . ظل وحيداً كالسيف المفرد يبحث ليالى الاسمار على الورق ويحيى ريح الصحراء الدافئة . تتحرك حوله القطط الكثيرة التى يهوى اقتناءها وتربيتها حتى أن رائحة البيت لم تكن تطاق ولا يقبل أحد على زيارته وغير ذلك كما وصفه معاصروه . كان وسخاً إلى حد مقزز لم يعرف الاستحمام قط رغم معرفة العرب بالصابون . كان يفصل الثوب ويلبسه فلا يخلعه من فوق جسده إلا وقد بلى وتقطع . يخرج من بيته يتبعه سرب من القطط حتى إذا وصل إلى مجلس الوزير المهلبى أمسك الجالسون أنوفهم ونثر الغلمان العطر فى أرجاء المكان والوزير المهلبى يتحمل منه هذه الفظاظة لأدبه وغزارة معلوماته . وكان أكولاً نهماً . يظل يغمس أصابعه فى الأطباق التى أمامه حتى يأتى عليها ، فى الوقت الذى كان فيه الوزير المهلبى رجلاً شديد الاناقة . يقف غلام عن يمينه يحمل صينية عليها حوالى مائة ملعقة نظيفة . فيتناول الوزير الواحدة ويأخذ بها الصنف الذى أمامه ثم يعطى الملعقة لغلام آخر عن يساره ويتناول واحدة أخرى ويظل يبدل الملاعق بعدد المرات التى تدخل فيها فمه . وأبو الفرج يأكل ويتجشأ ثم ينهى طعامه بأن يزدرد مقدار خمس دراهم من الفلفل الاسود ليساعده على الهضم دون أن يبدو على وجهه أى تعبير .

خمسون عاماً وهو يسود الصفحات دون كلل . يساعده على ذلك وحدته الممضة وغروره الشخصي ، وفقره الذى لا يوازى طموحه . ويساعده أيضاً تقدم صناعة الورق حيث استطاع علماء بغداد ان يطوروا البادرة التى أخذوها من الصين ، وانتجوا أنواعاً جيدة لا تتشرب الحبر وعندما إنتهى أخيراً حمل الكتاب إلى سيف الدولة الحمدانى فأعطاه الف دينار وهو يعتذر لأن نفقات الحرب ــ كالعادة ــ لم تبق للمثقفين شيئاً . وظل فرحاً بالمبلغ حتى قابله أحد الأمراء ممن سمعوا بخبر الكتاب وقال له متأثراً . إنه لو أعطاه الكتاب بدلاً

من سيف الدولة لنقده الفين من الدنانير فى الحال . وصدم ابو الفرج ، إذ لم يكن فى مقدوره أن يخط الكتاب مرة أخرى . وأيامه الأخيرة تمضى حثيثاً . لقد أصاب عقله الوهن . وأمتلأ البيت بالفئران بعد أن هجرته القطط ، وأخذت تقرض خشب السقف طوال الليل فيحسبها خيول المهدى المنتظر جاءت ترفع رايات الخلاص . وأصابه الفالج ولم يعد يقوى على السير أو الحركة فأخذ يداوم على الجلوس فى نافذة بيته المطلة على نهر دجلة ، ويسب الجميع ويبشر بدمار مثل دمار سدوم وعاموره . وذات يوم أكتشف الجيران أن سبابه قد انقطع ، وأن رائحة العفونة التى تشع من البيت قد ازدادت فأقتحموا البيت . كانت جثته ملقاه جنب السرير والفئران تلعب فوقها وحولها . شيعوه فى جنازة بسيطة لم يحضرها إلا نفر قليل أقل من عدد مجلدات الاغانى ودفن فى مقابر الصدقة على اطراف بغداد .

كان أبو الفرج يحب الامويين . لأن أخبارهم كانت تحمل له ــ مثلما تحمل لنا الآن ــ بعضا من الكبرياء . كانت ريح الصبا إذ تهب . تهب من دمشق وسنابك الخيل إذ تنطلق وتفتح الامصار تنطلق من دمشق . صحيح أن دولتهم كانت حافلة بالفتن وقتل احفاد الانبياء والصحابة الاجلاء . وانتزاع عروش واغتصاب بيعات . وكان فيهم ذلك الصنف من الاعمام الذى يأكل حتى أولاد أخيه قبل أن تبرد جثته . . فيهم كل جنون التراجيديات التى نعرفها . لكن أبا الفرج نفذ إلى روح هذه الدولة الغريبة . شيء من رومانسية الانتصار والزهو . وبكارة اكتشاف العالم . كان القواد ينتصرون والشعراء يمدحون ويعشقون . وتتسع مساحة العالم الاموى ويزداد تلاصقه .

أما حديثه عن العصر الجاهلى فيغلفه طابع الخرافة . وهو يحاول الايهام بتحرى صدق الأخبار ويورد سلاسل من الاسانيد الطويلة حتى انه لا يتحرج فى أن يسلسل نسب شخصية حتى يصل بها إلى سيدنا آدم . . ويظل الطابع الاسطورى لا يفارق روح الخبر . وفى كتابته عن الدولة العباسية تقترب درجة السرد من التاريخ اليومى . إن الأخبار تصبح عادية والأقوال باهتة خالية من الحكمة . حتى أن نوازعه الشخصية تغلبت عليه فلم يذكر تراجم لشعراء مهمين مثل أبى الحسن بن هانيء الشهير بأبى نواس ولا ابن الرومى وفى الوقت الذى افرد فيه الصفحات الطوال لاولاد الخلفاء وأغانيهم وأشعارهم الركيكة .

إن الأمر لا يخلو احياناً من فكاهة . حتى ولو كان الحدث سياسياً هاماً .

« دخل أهل المدينة المسجد وأتو المنبر وأعلنوا خلعهم يزيد بن معاوية فقال عبد الله بن عمرو خلعت يزيداً كما خلعت عمامتى ونزعها عن رأسه ، وقال آخر خلعته كما خلعت نعلى . وقال آخر خلعته كما خلعت ثوبى . وقال آخر خلعته كما خلعت خفى . حتى كثرت العمائم والنعال والخفاف . . » .

ولا يخلو من بعض الرومانسية . مثل حديثه عن عذاب المحبين العذريين ويقابل ابو الفرج ذلك بنوع خفى من السخرية . كان حسياً بدرجة ما . لذا لم يسلم عاشق دنف معذب مثل مجنون ليلى قيس بن الملوح من لمزاته . . يقول :

« سألت بنى عامر بطناً بطناً عن مجنون بنى عامر فما وجدت أحداً يعرفه . . » .

ويتحدث باحترام عن الاذكياء . يروى عن ابن عباس الصحابى ذى الذاكرة الحديدية أنه كان يسد أذنيه عن صوت النائحات حتى لا يحفظه . وأقبل عليه عمر بن ابى ربيعه فقال انشد . فأنشده :

تشط غدا دار جيراننا . .

وسكت . فقال له ابن عباس :

وللدار بعد غد أبعد

فقال : له عمر كذلك قلت اصلحك الله ــ افسمعته .

فقال لا : ولكن كذلك ينبغى . .

خلف كل هذه الأخبار يموج عالم الحركة والفعل . عالم حى له القدرة على الكسب والخسارة . لكن السؤال يطرح نفسه . هل اضاف جديداً أكثر من كونه ألف كتاباً ممتعاً . لا شك أنه فند الكثير من الروايات الأخبار . ولا شك أنه كان أكثر صدقاً ومنطقية من الكثير من الكتب لكنه اشترك فى نفس العيب الذى يغلب على معظم كتب التراث العربى . وهو ما يمكن تسميته بالكتابة «اليقينية» أو بتعبير «أدونيس» ان يتحدث الكاتب عما يعرف وأن يبتعد عما لا يعرف . من ذلك نشأ ذلك الاهتمام البالغ برواية الأخبار ، ورصد تلك السلسلة الطويلة من الاسانيد السخيفة عن فلان . عن فلان . عن فلان وهكذا حتى يصل إلى أنه قال . ثم يروى خبراً اسطورياً لا يمت للواقع بصلة . هذا الاهتمام هو محاولة للايهام أن ما قيل حقيقة . لذا لا تكسب الكتابة طابعاً وجدانياً بقدر ما تغلب عليها الصفة الموسوعية وعدم التخصص . وتتبدل الرغبة فى الكتابة الحقيقية إلى محاولة محاصرة العالم بدلاً من الغوص خلف ظواهره المرئية واكتشافه .

ولكن تبقى شخصيات الأغاني واقعية كانت أو خيالية خليطاً من الحب والجنون والرعبة تصلو للتحليق الصوفي وتهبط للبطولة الدون كيشوتية ولعل هذا أحد اسرار إمتاع هذا الكتاب الفريد .



إمـرؤ القيـس
احزان الملك الضليل

. . . قرر أبو الفرج الاصفهانى أن يبحث عن أمرىء القيس . . .

كانت بلاد الروم غيمة رمادية ممطرة . وأمرؤ القيس يموت . . منذ أن أرسل له قيصر الروم هديته . ثوب مسموم . وجلده يتساقط قطعاً صغيرة ، لا تترك خلفها إلا قروحاً مليئة بالصديد . وكان الصدأ يأكل شمس العرب المعطلة . وبحث أبو الفرج فى دأب . قالوا له . . لقد رحل للشمال . ثلج وضباب ونسيان وامرؤ القيس يهذى عن جده أكل المرار الذى قسم القبائل بين أبنائه وجعلهم ملوكاً عليها . وعن أبيه الذى ملك كندة وبنى أسد وتغلبا وبكرا . وعن نسوة «دارة جلجل» وكيف نحر لهن ناقته . عشق وصيد ورمل ملتهب وشمس لا تغيب . هـذيان وسط الثلج . وملاك الموت ضئيـل الحجم متدثـر فى عباءة سـوداء . رابض كطفـل على حـافة نـافذة القصـر . . أمسك امـرؤ القيس قطع جلده المتساقط . . وفكر . . هذه هى النياشين التى أنعم على بها قيصر . وعندما وصل ابو الفرج إلى بلاط الروم أكد له الحرس أن امرأ القيس موضع تكريم القيصر . حتى أنه سوف يزوجه من أبنته . . تساءل ابو الفرج فى سخرية . .

– منذ متى هذا الوفاق بين الروم والعرب ؟ .

واعترف أمرؤ القيس للندامى . . قبل أن يجف النبع . . وقبل أن يتحلل دم الثائر . .

– لما قسم جدى قبائل العرب بين أبنائه . قسم بيننا ميراث الكراهية . وهذا ميراثى . أب مقتول . وعرش لا أريده . . وثأر ثقيل الوطأة . .

عنكبوت ينسج خيوطه بين الدرع والسيف . وجواد يتقيأ العشب الرخو . وطـائر الصدى تائه عبر الفيافى المغطاة بالثلج . واجتاز أبو الفرج الاروقة ، وجده منزوياً فى حجرة حقيرة ، وملاك الموت متربص على النافذة . وأمسك أمرؤ القيس بيده وتوسل .

خلنى إلى الصحراء . . عد بى للشمس . لكن «أبو الفرج» نفض يده فى حنق وهو يهتف . .

– لماذا لم تأخذ ثأر أبيك ؟ . .

غامت الذكريات فى عينيه . ومضة خاطفة كأحلام الموتى . يجتاز الصحراء وحيدا . مغضوباً عليه من أبيه ومن قومه ومن حبيبة قلبه فاطمة . هدده أبوه :

– « أنت تقول الشعر وهذه صفة يأنف منها الملوك» . وقال قومه فى امتعاض : «كيف نرضى بمن يصاحب الخلعاء والسكارى» . وعظته فاطمة : «أنت لا صلاح لك . تهوى صيد الجيف وبغايا النساء» كلهم لفظوه . نزعوا منه صفة الامارة . وتركهم دون أسف . كان الأب عملاقاً قاسياً . يرفع سوطه فلا يفرق بين حليف أو عبد . يمتهن شيوخ القبائل عندما يتأخرون فى دفع الاعشار . ويغدر بالندامى . ويدخل بالنساء قبل أزواجهن وكانت فاطمة . . زهرة شقائق النعمان الوحيدة . تنتظر فى صمت وحزن وهو عاجز عن أن يكون مخلصاً لها . وكان قومه كالماشية . . ينهضون من تحت العصى . . ويخرون تحت السوط . وامرىء القيس يهرب من الجميع . . يحاول أن يوهم نفسه أنه ليس نبتاً شيطانياً ، لا ظل له ولا جذور .

ثم قتل الأب . قتل الحارث بن عمر بن آكل المرار . . أخيراً حدث الشيء الطبيعى والمنطقى . . فعلها بنو أسد عبِّيد العصى الذين نهضوا من ذل الاسر وفداحة الاتاوات المفروضة كانوا قد حاولوا العصيان وعدم دفع الجزية للملك . لكن حجراً لم يمهلهم . وضع رقاب الرجال تحت السيف . وساق النساء سبايا . لم يستطيع بنو أسد وقتئذ إلا أن يحنوا رؤوسهم للعاصفة ويظهروا الخنوع . . رفع حجر كأس انتصاره وهو يمنى نفسه بيوم يملك فيه كل العرب كما ملكها آكل المرار . لكن خيول بنى أسد حاصرت خيمته هاجموه بكل مرارة العبودية . . ذل شهر وملك دهر . هكذا صرخوا والسيوف تهوى كالنسور الجائعة . .

تركه بنو أسد يحتضر وحيدا مثخنا بالجراح حتى تزداد درجة عذابه . . لم يبق بجانبه إلا تابع قديم فأوصى له وصيته الأخيرة :

– « إحمل سلاحى وخيلى وقدورى ووصيتى واذهب إلى أولادى . إذهب إلى ابنى الأكبر وأخبره بموتى . إن بكى وجزع فاتركه إلى غيره . لا تعط اشيائى إلا لمن لم يجزع على . »

وأسبل الرجل عينى الملك . وأقام بنو أسد الأفراح عشر ليال . . وبعث لهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة وفدا يهنئهم . . وسار الرجل إلى «نافع» أكبر الأبناء وأحقهم بثأر أبيه . . قال له . . مات الملك . . صرخ . أهال التراب على رأسه وانخرط فى البكاء . تركه الرجل ممتعضاً إلى الإبن الثانى . ولطم الثانى خديه بالنعال . وشق الثالث ثوبه وناح

كالنساء . . ووقع الرابع مغشياً عليه . . ولم يبق منهم إلا امرأ القيس اصغرهم وأبعدهم عن الثأر . وأحس الرجل بالأسف وهو يؤكد لنفسه أن كل ما سيفعله امرؤ القيس هو ارتجاله لمرثية طويلة مليئة بالمواجع لكنه حمل السلاح والقدور والوصية . وسار إليه .

كان جالساً يلعب النرد مع أحد رفاقه . حولها كؤوس الخمر وبقايا قصف الليلة الماضية . . ألقى امرؤ القيس النرد . . قال الرجل . . مات الملك . . أمسك الرفيق عن اللعب متردداً . . قال امرؤ القيس دون أن يلتفت . .

– الق نردك . . .

ألقى الرفيق النرد . . تمتم امرؤ القيس . . ما كنت لأفسد عليك دورك . . ألقى الرجل ما يحمل من أشياء بين يديه . . والح . . مات الملك . قال ساخراً

– ضيعني صغيراً . . وحملني دمه كبيراً . . لا صحو اليوم ولا خمر غداً . اليوم خمر . . وغداً أمر .

ولكنه لم يكن يعني ذلك . . هتف أبو الفرج في حنق . .

– لم تكن تعني ذلك . . لم تكن تعرف قدسية الثأر . لم تكن تعرف ماذا يعني إهدار دم ملك . .

تمتم أمرؤ القيس :

– ملك فاسد مغرور . . كنت أنا أيضاً اتمنى أن أقتله . لقد حقق بنو أسد ما كنت أتمناه . . إذا قاتلتهم فقد قاتلت بعضاً مني . ألا تفهم !

كانت الصحراء مازالت بعيداً . وبلاد الروم أكثر ظلمة . والناقة تحمل جسد أمرىء القيس النازف . وأبو الفرج فوق الناقة الأخرى . يشم رائحة القروح وقد أصابها التعفن . حتى أنه فكر أن كل شموس الصحراء لن تطهر هذه الرائحة . . هتف متضايقاً . .

– كان يجب أن تقاتلهم . هكذا حملتك وصية الملك الأخيرة . .

عندما أفاق أمرؤ القيس من سكرته قرر ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمرا . ولا يتطيب بطيب ، ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأره . . اللعنة على أيام الصيد وصبابات العشق ونزوات الشعر . . ما جلواها وطيور الثأر عطشى وقبائل تغلب وبكر ما تزال على وفائها الأبله للموتى . وبنو أسد يشدون الصف للصف ويستصرخون العصبيات ضد بني كندة . والمنذر بن ماء السماء دخل في لعبة الصراع . . استعان بجيش من الفرس ليصفي حسابات قديمة بينه وبين الملك المقتول . . أعلن أن كل من يعادي أسداً فهو عدو له . . يا أمرأ القيس . . هذا ثأرك . وهذا عارك . صرخ . .

– يا لثارات الملك . .

نهضت كندة وبكر وتغلب وساروا خلفه . لم يكونوا يحبونه وكان يكرههم . . لكنها

نواميس الصحراء والعقل الجماعى عندما يصيبه العجز فلا يرى الخلاص إلا فى الحرب . كلهم اتفقوا على طلب الثأر واتفقوا أيضاً على كراهية الملك المقتول . . كان غائباً عن وعيه الحقيقى وهو يستحث الخيل ويطلق صيحات القتال الوحشية يحاول دفع مشاعر التخاذل التى يحس بها فى أعماقه . فكر . سوف تكون مفاجأة عندما يكتشف أن بنى أسد يحملون ملامحه . . هل يقتل الانسان ظله ؟ . . قال له أحد الاتباع . . يا مولاى . . نرسل من يرصد خيامهم ؟ . . صرخ فيه . . ما جدوى أن نرصد العدو وهو أمامنا . وهو فى داخلنا . هذه هضابهم وهذا نخيلهم . . وكانت الطيور الجارحة تتبع الفرسان وتنتظر الرمم . .

وصلوا للتلال وجدوا القبيلة هاجعة كأنها ليست مطالبة بدم . أقل عدداً . ولا يشبهون ملامحه . صرخ . يا لثارات الملك وانقض عليهم فى فرح شرس . تفجرت نافورات الدم وتقوضت الخيام . وفرت النساء مذعورات وهو يقتل ويقتل . . يطهر نفسه فى بحر الدم . الندم عن كل بيت شعر قاله . وعن كل امرأة عشقها . والدم البشرى يرسم على درعه حروفاً غامضة كلما غيره بدرع آخر ارتسمت نفس الحروف . . لكن عجوزاً وقفت فى مواجهته . شهر سيفه وحمحم الجواد . . ولم تهتز العجوز صرخت فيه :

- « أبيت اللعن . لسنا لك بثأر . نحن من كنانة » . .

شهق . أخفض الفرسان سيوفهم . واصلت المرأة القول :

- « بنو أسد كانوا خلف هذا التل ثم رحلوا ، نحن من كنانة ودماؤنا حرام عليكم . . » .

سقط السيف من يده وسكنت الجياد عن الحمحمة وانقضت الطيور . كان القتلى كثيرين . ورائحة الدم ثقيلة . وأمرؤ القيس قد أخطأ . وتحول الثأر إلى جريمة .

سار الفرسان خلفه منكسى الرؤوس . وتركوا أرامل بنى كنانة يندبن . وكانت الطيور هى المنتصر الوحيد . تزايد حنقه على بنى أسد . فقرر أن يقاتلهم ولو فى أقصى الأرض . وساروا وقد زادت خيبة الأمل من ضراوتهم . ما أهمية الخطأ إذا كان القتلى هم الآخرون ؟ .

وفى اليوم الثالث عثروا على بنى أسد . كانوا يستسقون وقد حطوا الرحال وفكوا أعنه الخيول . صرخ البلهاء . . يا لثارات الملك واندفعوا خلفه .

لم يكن بنو أسد فريسة سهلة . وقفوا . قاتلوا . واختلطت مياه النبع بدماء الجميع . . والطيور الجارحة وقفت متخمة ترقب نتيجة المعركة فى تكاسل . ويحث عن قتلة أبيه . عن الأسماء التى ذكرها فى وصيته والملامح التى تشبه ملامحه . . ولم تهدأ السيوف . ولم تقل ضراوة المقاومة حتى حل الليل . واضطر فرسان كندة وبكر وتغلب إلى التراجع بعد أن اقنعوا أنفسهم أنهم قد انتظروا وظفروا بثأر الملك الهمام . وتراجع بنو أسد . وبقيت

الجثث ملتحمة . والطيور شبعى . والنبع ينبثق بالدم . .

وفى الصباح أبوا أن يتبعوا بنى أسد كانت رائحة القتلى تعبق المكان وآلاف الطيور تكون غيمة كثيفة . صرخ يستحثهم . قالوا . .

ـ « قد أصبت ثارك » . .

ـ « كلا . لم أفعل . لم أقتل احدا ممن قتله لا من بنى كاهل ولا غيرهم » . .

قالوا فجأة . . وقد نسيوا أنه ملكهم المقبل . .

ـ بلى . . ولكنك رجل مشئوم . .

وتركوه وحيدا مع الجثث والطيور . .

قال ابو الفرج فى تهكم . .

ـ آه يا سيدى . . أتريد أن تلقى اللوم عليهم وتصور نفسك بطلا أو حدا .

قال امرؤ القيس . . انى أموت . . اسمع وقع دبيب ملاك الموت . .

وكان ملاك الموت يتبعهم متخفيا خلف الهضبات والكثبان الرملية . . لم يعد أمامه الآن إلا الموت . وقديما لم يكن أمامه سوى الحرب . . هو وفرسه الشقراء . . ودروعه الخمسة . ووصية أبيه وقائمة القتلى . توقف عند أحد الاصنام التى كان العرب يقدسونها . تمهل ليضرب اقداحه ويعرف ما قسم له .

كانت للصنم اقداح ثلاثة ـ الآمر والناهى والمتربص ـ ضرب قدحه فخرج الناهى . ضربه ثانية فكان الناهى . وثالثة كان الناهى قذف بالقدح فى وجه الصنم وهو يدمدم .

ولكنه كان يعرف أن الصنم قد قسم له ما فى داخله . . ومضى . .

بدأت رحلة التردى . وتحول الامير الشاعر الى الملك الضليل . ما أضيق الصحراء فى وجه المطارد . كل قبيلة تسلمه الى أول قافلة عابرة وكل جبل الى مغارة . وكل الى فخ جديد . ما أسهل التنصل من الوعود . والخوف وقت الاستجارة . خاصة اذا كان العدو قويا .. مثل المنذر بن ماء السماء والجيوش موجهة من أباء وبهراء وتنوخ . . بل وأمدهم أنو شروان بجيش من الاساورة خير مقاتلى الفرس . . كلها تطلب امرأ القيس حيا أو ميتا .

وكان هو وسط زمرة من بنى آكل المرار وكندة يبحثون عن نصير . وساقتهم الدرب الوعرة إلى بنى يربوع وقبل زعيمهم الحارث بن شهاب أن يجيرهم فى شهامة مطلقة . وأعطى لهم الأمان ألا يغدر بهم تحت أى ظرف لكن المنذر أرسل إليه مائة جندى فقط . طافوا حول المضارب . فأسرع الحارث بنفس الهمة وسلمهم كل بنى المرار . ولم ينج سوى امرىء القيس وزوجته وابنته هند .

ثم بدأ يفقد دروعه . كانت خمسة دروع . يتوارثها ملوك كندة ملكاً بعد ملك . لكنه فقد درعاً فى بنى يربوع . وثان فى أرض طيىء . وثالثاً عند بنى جديلة .

وكان يجلس فى خيمته تاركا خيوله ورواحله مقيدة ومجهزة حتى يهرع إليها عندما يباغته الهجوم . وذات مرة سرقت الرواحل والخيول . وعندما حل بأرض بنى نبهان لم يجد أمامه سوى رعاية الابل حتى سرقت الابل أيضاً واعطوه بدلاً منها قطيعاً من الماعز . ونزل بأرض عامر عند أحد الخلعاء ويدعى عمر بن جوين فطمع فى ابنته هند وقال فيها أشعاراً بذيئة . . واضطر الفارس المهان للرحيل عاجزاً حتى عن الثأر لكرامته . . وفى منتصف المسافة بين قبيلة وأخرى . بين هرب وهرب . شعر بالاشمئزاز من نفسه . . شعر بحدة المهانة . كل الناس تموت مرة واحدة وهو يموت قطعة قطعة . يغوص فى بئر عميق . يفقد ما يحمل . يبتعد عن كل النجوم التى ترشد طريقه فى الليل وكل الطيور التى تحمل بشارة النجاة .

ثم نزل فى بنى فزارة عند جابر بن مازن وكان حكيما فأبلغه حقيقة هامة . . أنه لا قدرة له على مقاومة الذين يطلبون دمه . وأنهم حالما يصلون فهو حل من كل وعوده . . قال . .

– أنى أراك فى خلل من قومك وأنا اضن بك أن تحتال هكذا . وقد كدت بالامس تؤكل فى أرض طيىء وأهل البادية أهل بر لا أهل حصون تمنعهم . هل أدلك على حصن لم أر مثله عند قيصر أو كسرى . . ؟

قال امرؤ القيس مستسلماً . . . من هو . . وابن منزله . . ؟ . .

– حصن السموءل ببلدة تيماء . هو الذى يمنع ضعفك حتى تصلح شأنك وهو حصن حصين وحسب كبير . . .

قال . . كيف لى به . . ؟ قال الرجل . . أوصلك إلى من يوصلك إليه ؟ . .

وهكذا . سار أمرؤ القيس وأمرأته وأبنته إلى تيماء حيث حصن السموءل . والدليل يلح عليه . قل قصيدة تمدح فيها السموءل . قل حتى يرضى عليك . لكن معين الشعر نضب . والالحاح يزيد من شرود القوافى . وأخذ الدليل يرتجل ابياتاً وهو يحاول اكمالها . والجرح يزداد غوراً واتساعاً . وعندما لاح له الحصن الشاهق أدرك أن عالمه قد أصبح ضيقاً خانقاً وأن أحلامه القديمة قد ماتت وضاع دم الأب هدراً . وكان يجب أن يضيع . واصغى السموءل راضياً للقصيدة الرديئة وسمح له بالاقامة . .

توقف ركب أبى الفرج وأمرىء القيس . سألا . . أين نحن ؟ قالوا لهما . . أنتما فى احدى بلاد الروم تدعى «أنقرة» . هتف امرؤ القيس يائساً . . لازلنا فى الشمال وسط الثلج والبرد . . وفكر ملاك الموت . أنه يحاول أن يسابقنى . مازال يحلم بالشمس . أشار أمرؤ القيس إلى شاهد قبر . . دعنا نسترح قليلاً بجانب هذا القبر . . قال أبو الفرج . . وسوف تكون فرصة لكى تقول لى لماذا تركت حصن السموءل . . ؟ .

كان الحصن عالماً متكاملاً مكتوم الانفاس . جدرانه صماء وآباره لا تروى العطشى . واشجاره تثمر حنظلاً . . وهو ساكن تماماً . يختنق الشعر ويتطاول الليل وتشد النجوم بالحبال . ثم جاء قادم جديد هو علقمه الفحل . أحد الشعراء المغمورين . جلسا يتناشدان الأشعار . . واختلفا . . من منهما أصدق تعبيراً وأدق وصفاً للخيل . وكان أمرؤ القيس غبياً كعهده فى المدة الأخيرة فقال . .

- سوف تكون زوجتى حكماً بيننا .

ورضى علقمه الفحل على الفور . ولا ريب أن له نصيباً من اسمه . فمن ذا الذى يذكره الآن كأحد الشعراء . ومع ذلك كان حكم زوجة امرىء القيس لصالحه . . حكمت أنه أشعر من زوجها وأصدق منه تعبيراً . ولم يكن هذا الحكم خالصاً لوجه الشعر . وفطن أمرؤ القيس لذلك فطلقها فى اليوم الثانى وتزوجها علقمة فى اليوم الثالث . .

وكان يجب أن يفارق الحصن . خاصة وقد تحول احترام السموءل إلى سخرية . . ولكن إلى أين يذهب ؟ . . لم يكن أمامه فى الشمال إلا الغساسنة ومن خلفهم الروم .

عالم آخر تحكمه قوانين جديدة . . هناك سوف تجمد البرودة دم الثأر الحاد ويتراكم الثلج على شبح أبيه . .

وبدأ الرحيل إلى أرض الغساسنة . وجدهم يتحدثون عنه احاديث خرافية . يتبادلون أشعاره . كان مازال يتنفس خلال الأبيات المروية لقد فقد عرش آكل المرار لكنه أكتسب وهج الكلمة وسحرها الذى لا يفنى . . قال . . خذونى إلى قيصر . . قال الملك الغسانى . أن قيصراً قد أعد جيشاً من أبناء الملوك وسوف يضمك إلى صفوفه . هذا هو مكانك الطبيعى . لكنه كان مغروراً . ومكانه الطبيعى حيث لا يقدر إن يكون . وسافر إلى بلاد الروم . ولم يفهم قيصر شيئاً من أشعاره وان هز رأسه وهو يتظاهر بالرضى . . ولم يستطع المترجم أن ينقل إليه أية صورة شعرية . .

وتثاقلت ليالى الشمال الحزينة . وأمتدت ثلوج الشتاء . محت الدروب وغطت وجه الشمس . وبدأ يسعل . قالوا . . هذا مرض مألوف فى الشمال ، وبدأت ذاكرته فى الكلل . قالوا . هذه أعراض عادية فى الشمال . . وبدأ يدمن على الخمر ويقضى الليل فى المواخير . قالوا . هذا سلوك شائع فى الشمال . وبدأ يموت . .

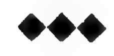
قالوا أبو الفرج . أنا أقول لك ما حدث بعد ذلك . . كانا مازالا مستندين إلى شاهد قبر المرأة الوحيدة وجاء ملاك الموت واستند إلى الجانب الآخر من الشاهد وأخذ يشحذ منجله فى بطء . وسمع امرؤ القيس صرير الشحذ الحاد وقال ابو الفرج . إنه «الطماح» من بنى أسد . قتلت أنت أباه وتبعك هو إلى بلاد الروم . هو الذى قال لقيصر إنك غوى عاهر . وإنك تراسل ابنته . بل أخرج له رسائل مكتوبة بخطك . تذكر امرؤ القيس ابنة قيصر وهى تطل عليه فى الحديقة . وهى تعرض صدرها العارى أمامه . وهى تخرج لسانها

أحمر كالجمر . . قال أبو الفرج . . من أجل هذا أرسل لك ثوبه المسموم . . ومن أجل هذا يتساقط جلدك تأوه أمرؤ القيس . . حق فى الموت . فلو أنها نفس تموت سوية . ولكنها نفس تساقط أنفسا . أغمض عينيه . كم مرة أموت ؟ كم نفس بداخلى ؟ . التفت إلى أبى الفرج . إذا مت هل ستدفننى بجانب المرأة الوحيدة . قال . إذا أردت . قال لقد أحببت النساء . وكرهت الملوك . أدمنت الخمر وتعبت من الثأر ، وعشقت كل الكائنات وأبغضت أبى . . والتفت فرأى ظهر ملاك الموت وهو يشحذ منجله . . رآه ينهض . ويستدير ويقف أمامه ويبتسم فى لطف . . وقال امرؤ القيس آخر بيت شعر للمرأة الوحيدة الراقدة فى قبرها .

أجارتنا إنا غريبان ها هنا . .

وكل غريب للغريب نسيب . .

وهز أبو الفرج وملاك الموت رأسيهما طرباً من بلاغة الكلمات . وتقدم الملك ببطء كأنه خجل . . . ومس جبين أمرىء القيس بطرف منجله . . .



شهود حرب البسوس

الشاهد الأول :

جليلة بنت مرة

بدأت الحكاية بالدم . وإستمرت الحرب أربعين عاماً فلم تنبت بحور الدم زهرة واحدة . . إمتلأت القبور بالجثث . والخيام بالأرامل . فلم يبعث كليب ولم تهدأ وائل . . أنا جليلة بنت مرة . زوجى كليب . وصهرى المهلهل . وأخى جساس . وابنى الهجرس . القتلة والمقتولون ، طالبو الثأر والمغدورون وأنا فى وسطهم . الحق فى جانبى . والباطل فى جانبى . . كل ثأر يطيب جزءاً من قلبى ويفتح جرحاً آخر . .

يقولون جليلة السبب . . هؤلاء الرجال الأقوياء عندما يعلقون أسبابهم بنا يضعون الطموحات القاتلة فى موازاة النزوات الصغيرة . يقولون أننى وخالتى البسوس . وابنتى اليمامة . أشعلنا الضرام . ودفعنا بآلاف الرجال الحمقى إلى حرب أتت عليهم جميعاً . بكر . . وتغلب . ونحن فى خيامنا . نغزل الاكفان . . ونردد المراثى

منذ أن ولدت وكليب بن ربيعة بن وائل هو قدرى . من لحظة الطفولة حتى الموت قال أبوه لأبى . ابنى ضبع جائع . ولن يسلس قياده إلا امرأة عاقلة كجليلة . ووافق أبى دون أن يبالى بسؤالى . وهبوه مستقبل أيامى . هل أحببته حقاً . أم أن الخوف إختلط بالأنبهار وجدتنى مشدودة إليه . هو وحده دون أخوتى العشرة الأقوياء . . كان الزمان رخيماً . والمواسم مواتية . . والصحراء كالحلم . .

كبرت . وعشقت الشعر . شاع أمر جمالى . أحببت شقائق النعمان لكنهم لم ينثروا على دربى إلا زهور الصبار . . جاء كليب لزيارتى وعلى ثوبه دم الايائل والظباء . . كنت فى حاجة لقدر من التآلف معه . . بدلاً من هذه الغربة الحارقة . لكن كليب لم يجد الشعر اجادته للصيد . .

ثم جاء فرسان «تبع» . . انطفأت نجوم الحب قبل أن تضاء . .

جاءوا تحت الريح العاصف وفوق الرمل المتوفز . ووقف أبى . وأعمامى

يرتعدون . ورسول الملك يعدد مطالبه . . الجزية . . وهدايا الطاعة . . ثم قال بشكل عابر كأنه لا يعبر هذا الطلب أى أهمية :

- وبالمناسبة . . تفضل مولانا «تبع» واختار جليلة بنت مرة زوجاً له .

صاحوا فى دهشة :

- ماذا . . ؟ . .

واصل الرسول قوله دون مبالاة برد فعلهم :

- عليكم بتجهيزها للسفر إلى بلاد اليمن خلال عشرة أيام .

وأداروا أعنة جيادهم . كانت أمى تعد طعاماً فـإحترق . وكنت أغـزل فتداخلت الخيوط مثل متاهة . وعاد أبى مرخى الشارب . وأخوتى العشرة يثغون كالاغنام . . ولم يأت كليب ، واصل صيده . مد تبع أظافره من بلاد اليمن البعيدة ليغرسها فى قلبى . كان كل ليلة يتزوج فتاة جميلة وسرعان ما يختفى أمرها . لا أحد يعلم ولا أحد يجرؤ على السؤال ، قصره الواسع الملىء بالأقبية والتوابيت كان مفتوحاً وها هو دورى قد حان . وعلى أن أعد المضجع والتابوت . . وكان أبى ضعيفاً . . واخوتى بلهاء . . قالوا عدة كلمات حماسية عن العرض المصان والشرف الرفيع . . ثم صمتوا جميعاً . جساس . . وهمـام . . وسلطان حلم طفولتى وعز المضـارب . . ظلوا جالسين حتى جاء كليب . . وعلم بـالأمر فخلع قوسه . . وألقى رمحه وقال :

- لن يحدث هذا . .

ونهضوا . . أصابتهم العصبية من قدرته على الاستهانة . . وصرخ أبى :

- وكيف نتحدى تبع . . ؟

قال كليب وهو يدير ظهره :

- هذا ما يجب أن تفكر فيه بدلاً من الجلوس ورعى العشب .

عاد فى صباح اليوم التالى . كانت غريزة الصياد متوثبة فى أعماقه فأخذ يعد الشراك المناسبة . . أمر أن يعدوا صناديق العرس . أحد عشر صندوقاً كاملاً . كل صندوق مكون من طابقين طابق أصغر علوى توضع فيه ثياب العروس وهداياها . وفى الطابق السفلى يرقد أحد الأخوة ومعه سيفه . ثم تحملهم الجمال ويمضى موكب العرس إلى بلاد تبع . . قرر كليب أن يذهب للقنيصه فى عرينها . وحين رأى دهشة أبى وبلاهة أخوتى . هتف . .

- مقامرة . . هكذا الصيد دائماً .

كنت أنا مذهولة . لا أصدق أن هذه الفكرة السخيفة يمكن أن تنجح . وأن تحدد مصيرى . تكفى مصادفة واحدة فى طول الطريق . يكفى إكتشاف صندوق واحد فقط لينتهى أمر الجميع دون رحمة من تبع . . وأنا . سوف أغتصب . . ثم أقتل . دون أمل فى ثأر . . ولكننا أطعنا الأوامر كالنيام . حين تحدثت معه قليلاً اكتشفت أنه يعرف جيداً مدى

سخافة الفكرة وحماقتها . . لم أعتقد لحظة أن هذه المجازفات لأنه كان حريصا على . . كل ما فى الأمر أن غريزة الصيد اللعينة استيقظت فى داخله . . ليته كان شاعراً حالماً رقيقاً عاجزاً . . ربما أحببته قليلاً . .

لبست ثوب العرس . وارتفع الجمل بهودجى . وأغلقت الصناديق على أخوتى . وسار صندوق كليب فى المقدمة . وسار أبى . وقومى . خلفنا . وامتدت الصحراء حتى أحسست رملها فى عروقى .

وجاء تبع . وأنا فى هودجى واجفة القلب . أشار إلى أحد الحراس . اقترب من أحد الصناديق الموجودة فى الوسط ثم غرس فيها طرف رمحه . . أوشكت على الصراخ . أين كانت الطعنة فى الطابق السفلى ؟ أم فى الطابق العلوى ؟ لم أصرخ . . وكذا الصندوق . لم ينبعث منه صوت . ولا حركة . ولا أى احساس بالألم . همهم تبع فى ارتياح ورضى . تقدم أبى مرتجفاً . يشير إلى هودجى وينحنى . يشير إلى الصناديق وينحنى أكثر . ويشير إلى نفسه وينحنى أكثر وأكثر . . أيها الملك القاسى المعظم . . كم ليلة بقيت لى . . كم ساعة . . ؟

كان تبع قصيراً . لحيته مدببة . وعيناه مستديرتان كالعقاب . . وتاجه ضخم . لابد أنه مجوف من الداخل حتى تستطيع رأسه الصغيرة أن تحمله . اتجه ببصره إلى هودجى يريد اختراقه . أنزلنى الخدم . أدخلونى إلى قصره المرصع البارد .

أوصلنى إلى حجرتى . ورصوا الصناديق العشرة أمامى .

وضعوا على وجهى قناعاً كثيفاً من المساحيق . ورسموا على وجهى ابتسامة كاذبة . أصبح الملك على وشك الوصول . انصرفت الجوارى وأصبحت وحدى أخيراً . . أسرعت إلى الصندوق الذى طعنه الحراس . . كان خيط من الدم ينساب منه إلى الأرض . كنت اعرفه جيداً . صندوق زياد أخى الأصغر صرخت صرختى الحبيسة المؤجلة ، وفتح الباب ودخل تبع . تراجعت إلى الجانب الآخر مع الغرفة . حاولت ألا أنظر إلى خيط الدم . . كان يتأملنى فى نهم . لم يسألنى عن سبب صرختى . لعله تعود أن يصرخ الجميع فى وجهه . . كانت رغباته تستيقظ من خلال فزع الآخرين .

إقترب . مد يده يجذب ثيابى . صرخت فى صوت عال أن ثيابى تتمزق . وكان تبع مدرباً على كل فنون الهجوم . . صبوراً . . هل تخلوا عنى . . ؟ صرخت فى لحظة اليأس . وصرخ كليب . . لبيك يا جليلة . تكسرت الصناديق دارت الغرفة . اقتحم الحراس الباب . . والسيوف . . السيوف . . خيط رفيع ينسال من الصندوق الوحيد الذى ظل صامتاً . . وسط بقع الدم والاعضاء المبتورة . . صرخ كليب فى وحشية وطعن تبع . . جز رأسه الصغيرة ورفعها على طرف سيفه حتى يراها الحراس واليمنيون وبنو وائل وكل الغرب . . وزعق :

– مات تبع . .

جريت إلى الصندوق . كان زياد راقداً فى الطابق السفلى وأظافره تحفر فى الخشب أربعة خطوط من الدم . . وصاحت وفود القبائل . كل الذين اصطلوا بظلم «تبع» وبكيت زياد وحدى انشغلوا بالغنائم . . بالجوارى . واللهب ثم رفعوا سيوفهم يعلنون الولاء لكليب . وكان زياد صغيراً فحفروا لـه حفرة صغيـرة . وفى ليلة عرسى الكئيبـه قلت لكليب . . ألم تفطن ولو للحظة واحدة أن زياداً قد مات . . فقال وهو يخلع سيفه وعباءته . وعمامته :

– المهم أن تبع قد مات .

أصبح كليب ملكاً . وأصبحت أنا ملكة العرب ورحل جساس . وهمام . . وبقية الأخوة . . انتقلت من بكر إلى تغلب . إلى قصر كليب وكل لحظة يتضاعف شعورى أننى سبية ولست زوجة . لم يدخل المهلهل أخو كليب لزيارتى مرة واحدة . . لم يحمل لى هدية . . لم يلق على تحية . . كان دائم الرحيل . ينصب خيمته على حافة الأفق . وجاء أبى «مرة» لزيارتى . . قال لى فى كآبة . .

– فتحنا الرمل . ورأينا الطالع . هذا المهلهل أخو كليب سوف يكون سبباً فى هلاك قومنا . .

طالع مضحك ولكنه زاد من كراهيتى للمهلهل . . بل اكتشفت أنى لم أحب كليباً . كان قد أصبح ملكاً . مغروراً . قاسياً . تغلغل زهو التملك فى داخله واختلط مع عطشه للدم . وقومى . وكل بنى وائل كالغنم . يحمى مواقع السحب فلا يرعى حماه . إذا جلس لا يمر أحد من بين يديه اجلالاً له . ولا تورد أبل مع ابله . ولا توقد نار مع ناره . ولا يجرؤ رجل من بكر أو تغلب أن يجير رجلاً أو بعيراً أو يحمى حمى إلا بأمره .

كليب زوجى . . وأبو بناتى يزهو كالطاووس وفوجئت به يسألنى ذات يوم :

– هل تعلمين على الأرض من هو أمنع منى ذمة . .

سؤ ال أحمق لم أشأ الاجابة عليه حسب أننى عاجزة فازداد زهواً . . وكرر السؤ ال للمرة الثالثة وهو يتشدد فى طلب الاجابة . . فقلت له .

– نعم . اخواى . . جساس . . وهمام .

وحدق فى دهشة غاضبة . لم يتوقع جوابى . ألقى على نظرة حادة لعلى أتراجع فلم أتراجع . لم أعتذر . تشاغلت بأشياء أخرى ولم أدر أى خطأ قاتل ارتكبت . . وعاد سؤ الى فى الأيام التالية . . وكل مرة كانت اجابتى صدمة جديدة له .

كانت التحديات قد بذرت بذورها . ولم أكن بالتى تتراجع . . مهما غضب . . ومن هذه الشرارة بدأ الكابوس الذى استمر أربعين عاماً .

«شهادة اعتراضية من أقوال ابن جساس بن مره»

جاءت خالتي البسوس من تميم ونزلت في جواري . كان معها ناقة غريبة . هجين من نوق الملك النعمان . . ونوق اليمن . . جلدها مشرب بحمرة . وقوائمها طويلة صلبة وصوت اجترارها عال . ناقة نادرة كما يبدو من شكلها . وكذا صغيرها . خرجا يرعيان مع ابلي . ولم أكن موجوداً بالمضارب . ومر كليب على الابل . ورأى الفصيل الصغير بلونه المميز . سأل الراعي :

- ما هذا ؟

انحنى الراعي قائلاً . .

- هذه لخالة سيدي جساس .

وفوجيء العبد . . كما فوجئت أنا فيما بعد . بكليب وهو يدمدم في ضيق : أو بلغ من أمر ابن السعدية أن يجير على بغير اذني .

وأخرج قوسه وسهمه ورمى الناقة الصغيرة رمية قاتلة . . جاء العبد يصرخ . . وخالتي البسوس تولول . . وأمرت الجميع بالصمت . . كل ما حدث أن فصيلاً صغيراً قد مات . لست أفهم السبب المباشر لكنها دعوة وتحذير لا أدرى ما دوافعه لذلك اخترت الصمت . . والتجاهل ومرت أيام قليلة ولم يدع لي كليب فرصة

مرت الابل وفيها ناقة البسوس بعيداً عن أرضه ومرعاه . . لكنه جاء مسرعاً وأعاد السؤال على العبد ولم يتنازل هذه المرة أن يقتلها . قال كلمات أكثر اهانة ثم أمر غلامه ·

- ارم ضرعها يا غلام . .

ورمى الضرع فاختلط الدم باللبن وجرت الناقة تحتضر وتصدر عجيجاً هائلاً وخالتي البسوس تلطم وتصرخ . .

- واذ لاه . .

وحثت مهرولاً على صوت النعيب وصحت فيها :

- اسكتي فلك بناقتك ألف ناقه .

لم ترض . ظلت تصرخ وأنا أزيد في عدد النوق عوضاً لها

لكنها أخذت تهيل التراب على رأسها وتواصل هجائي أنا وقومي

لكني أصبحت في دار معشر متى .

يعد الذئب فيها يأت على شاتي .

انقطعت أنفاسي بصعوبة وأنا أنتفض من الغضب . والخجل . والاهانة وأصيح من بين أسناني .

- اسكتي . . لا تراعي . سوف أقتل من هو أعظم من هذه الناقة .

وسرت . . أرى في كل عين نظرات الازدراء . وأسمع في كل كلمة اهانة خفية . .

لقد إستعزنى كليب بما فيه الكفاية . . ولكن لماذا لست أدرى . .

ثم ارتحلت بكر بإبلها ورعيانها . . مروا على غدير «شبيب» . لكن كليب أصدر أوامره القاطعة . .

- لا يذوقوا منه قطرة واحدة . .

وارتحلت بكر . . ذهبوا إلى «الاحص» . . ونفاهم كليب عنه أيضاً . . ارتحلوا إلى «الجريب» . . إلى «الزنائب» ، على رأس كليب ويضع غلمان وجرو صغير يلاحقهم . . ويطردهم . يقف شامخاً مثل إله صخرى قاس . . وبنو بكر يتضاءلون أمامه . وكنت أنا وابن عمى عمرو بن الحارث . . فلم نجد بدا من الذهاب إليه . . قلت له محاولاً أن أتمالك نفسى :

- طردت أهلنا عن الماء حتى كدت تقتلهم عطشاً . .

رد على بصلف مبالغ فيه :

- ما منعناهم من ماء . . إلا ونحن له شاغلون . .

- هذا كفعلك بناقة خالتى .

ضحك فى سخرية قائلاً . .

- أوقد ذكرتها . أما أنى لو وجدتها فى غير ابلك لأستحللت الابل كلها . . أحمد آلهتك ان بقيت لك الابل . .

كان هو كليب الذى لن يتغير مريضاً بداء الملوك . متوقعاً ان يتضاءل الجميع أمام كلماته . . ووجدتنى ــ كأن هناك من يرفع يدى ويوجه رمحى ــ إستدار ليرمقنى بنظرة احتقار أخرى فطعنته تحت إبطه . لم يصرخ من الألم . صرخ من الدهشة . هوى من فوق جواده . والرمح فى يدى . وتحشرجت أنفاسه وهو يهتف بى . .

- يا جساس . . اسقنى شربة ماء . .

قلت . .

- ما عقلت استسقاءك للماء منذ ولدتك أمك حتى لحظتك هذه . .

التفت إلى عمرو بن الحارث وهتف به . .

- ياعمرو . . أغثنى بشربة ماء . .

وهبط عمرو من فوق جواده . . واقترب منه ثم طعنه طعنة أخيرة قصمت ظهره . .

(إنتهت أقوال جساس بن مرة وعودة إلى أقوال جليلة)

ارتديت السواد قبل أن أصدق أن كليباً قد مات . وأن قاتله هو جساس أخى . . أنا . . زوجة المقتول وأخت القاتل . دخلت دائرة الثأر . . وأحاطتنى نسوة تغلب . اخوات زوجى وبنات الثلاث . غربان سوداء تلقى على نظرة معادية . . وسألت نفسى . . .

- هل أرحل وحدى . . أم أنتظر حتى أطرد .

وبكيت لا كليباً . . ولا جساس . . إنما بكيت نفسى . أصبحت جسداً غير صالح لسكنى الروح . شقية معذبة . . خدعت نفسى طويلاً بأننى فى بيتى . . ووسط أسرتى وبناتى . لم تقل لى واحدة من النسوة كلمة من كلمات العزاء جلست فى خيمتى وقد لفظنى الجميع . وسمعتهن يلحفن على «ضباع» أخت كليب :

- رحيل جليلة عن مأتمك . . ان قيامها بيننا فيه شماتة . . وعار علينا وسط العرب . .

ولم تتحرك واحدة من بناتى . ليدافعن عنى بكلمة . . ووقفت ضباع على باب خبائى وهى تهتف بى . .

- يا هذه . . اخرجى عن مأتمنا

التفت إلى بناتى . . واجهتنى نظراتهن الصلبة الباردة . . كن موافقات على طردى واهدار حقى فى الحزن . . جمعت ثيابى فى صرة صغيرة . حملتها على ظهرى وسرت وسط صرخاتهن !

وجدت أبى فى انتظارى . منكسر الرأس . . شاعراً بفداحة المصاب . . هتف بى :

- ما وراءك يا جليلة . .

قلت :

- ثكل العدد . وحزن الابد . . وفقد حليل . وقتل أخ عن قليل وبين هذين غرس الاحقاد وتفتت الاكباد . .

نكس رأسه صامتاً . ثم قال . .

- أو يكفى ذلك . . كرم الصفح وإغلاء الديات

قلت . .

- امنية مخدوع ورب الكعبة هل تدع لك تغلب دم ملكها لقاء دية حقيرة مهما علت .

اجتمعوا حولى ، شهود الجريمة ووقود الحرب . جساس أخى الراشد . وأنا . . أيعرف أننى رفعت رمحه وشحذت نفسه . . أنه يحمل ثارى على كتفيه وينوء به . . أيعرف أننى أحمل فى أحشائى من سوف يذيقه الموت سماً زعافاً . . يا جساس عذراً يا كليب عفواً . . إذا حم القضاء فما جدوى الاعتذار . لبئس ما فعلنا معاً . فرقنا جمعا . وأطلقنا حربنا . والله لا تجتمع وائل بعدها أبداً ولا تقوم لها قيامة . يا جساس قتلك كليب قبل أن تقتله . . وضع بذرته فى بطنى حتى يدور الزمن ويتحقق الوعد

(إنتهت أقوال جليلة بنت مرة) .

الشاهد الثانى

المهلهل بن ربيعة

كنا جالسين . همام بن مرة وأنا . وبيننا شراب وندامى ودم ومصير مجهول . . كنت ثملاً . والسماء ملبدة بالسحب الوحشية . والأرض خادعة . وهمام نديمى . . وصنو روحى . تعاهدنا الأ يكتم أحدنا سراً عن الآخر . ومر جساس على خيمتنا مفزوعاً فوق جواد مفزوع . مكشوف الركبتين . لم يلتفت ناحيتنا وانحدر مع التل إلى دهار بكر . . قال همام وهو يتابعه :

– إن له لأمراً . والله ما رأيته كاشفاً فخذيه قط فى ركض .
قلت ضاحكاً :
– لعله فشل كعادته فى صيد الظباء . .

ضحك همام . حاول أن يشاركنى الشراب . لكن منظر ركبتى أخيه العاريتين لم يفارقاه . شربت كثيراً . والقيان تغنى من أشعارى . . وخيول النشوة تركض فى عروقى . . هذا هو عالمى الآمن مادام فيه كليب . . من خلال باب الخيمة لمحت جارية تقود جواداً . صاعدة من ناحية بكر . . ورأيت «هماماً» وهو يتسلل خارجا من الخيمة .

يتحدث مع الجارية . لم يكن حديث حب . هذا ما لاحظته . . كان كلامهما مرتعباً . شديد العصبية . . أشار إلى . . وأشارت إلى بعيد . ثم انصرفت هابطة على المنحدر . وربط همام الجواد بجانب الخيمة وعاد . . جلس أمامى صامتاً ينتزع أنفاسه الثقيلة بصعوبة . . لقد تلقى رسالة قاسية بلا شك . . وبعثت حالته فى نفسى نوعاً من الترقب الخبيث . . كان حائراً مثل غريق . . قلت له دون مواربة :

– ما شأن الجارية والفرس . . وما بالك . . ؟ .
تردد برهة . ثم مد يده مرتعدة إلى كأسه وهو يقول . .

- اشرب ودع عنك الباطل . .
قلت : وما ذلك . .
- زعمت هذه الجارية أن جساساً قتل كليباً . .
ولم أتمالك نفسي . . ضحكت في صوت عال وأنا أقول . .
- هيهات . . همة أخيك أضعف من ذلك . .

ملأت كأساً وأشرت للقيان أن يواصلن الغناء . شربت في نهم وأنا أرقب وجه همام . . إذا كان كليباً قد قتل حقاً . . فلماذا لم تتقوض الصحراء . ولم تنطفىء الشمس ولم تتناثر النجوم . رفعت كأسي وشربت نخب الأشياء المستحيلة . أخذت أشرب والعالم يدور بي . . غرقت في قبوي المظلم الذي أغيب فيه كل مساء . . وجاء كليب . صاح بي . مضى زمن الندامى . وجاء زمن الموت . أفقت فلم أجد أحداً . لا همام . . ولا الجواري سرت وحيداً . . فرأيت جواداً شاحباً يرعى عند حافة الافق . يحمل جثة أبي مذبوحاً . . هكذا أراه . منذ عشرين عاماً . . منذ أن ذبحه التبع اليماني بعد أن رفض أن يدفع الجزية . . استسلم ربيعة . واستسلمت بكر . . ولم يبق لي إلا كليباً . . الجبل الذي يأويني ويعدني بالثأر . . أصبح هو أبي . . وحدود عالمي . . وحلمي المتكرر . . أنطلق منه وإليه . . لكن الجواد الشاحب يقترب . . يمسح رقبته في صدري . لا يحمل جثة أبي . ولا جثة كليب . . بل يحمل جثتي . هناك ضباب أصفر . . وأنا أسير داخل حلم غريب . . أدخل تغلب غريباً . . ضائعاً . . ميتاً . . الفرسان يعقرون خيولهم . . ويكسرون سيوفهم ونسور سود . . كأنها غربان تضاعفت عشرات المرات . البنات الثلاث يصرخن في وجهي :

- عماه . . مات أبونا يا عماه . . مات كليب .

يلححن علي بالصراخ . . . يردنني أن أصدق . . يقدنني إلى تل «الذئاب» ويشرن إلى جثة غريبة . . الرمل تحتها أحمر . والطيور فوقها سوداء . . يلملمن أعضاء مرخاه . . ويلففن جسداً ساكناً . . ويصحن في . . ابك أخاك . . ابك قتيل ربيعة وتغلب . آخر ملوك العرب .

لكنني لا أبكي . أعرفُ جيداً أن هذا ليس أخي . . كليب المفعم بالحياة والرغبة والقوة والمرح الصاخب . . لا يقتل جزاء ناقة . ولا من أجل كنوز الأرض . لا يقتله راعي ضأن مثل جساس بن مرة . . هناك نوع من سوء التفاهم المر . . ان كان ثمة أحد قد مات فهو أنا . . أما هذا الجسد الدامي الأشعث الأزرق الفاغر الفم الزجاجي النظرة الراقد وسط الروث والبعر ، المخلوع النعل ، المقصوم الظهر . فهو ليس كليباً . . هذه خدعة . . سوف يرد حياً . . على بكر أن تنشره حياً . . اليوم . . أو غداً . . أو آخر الزمان . .

صرخت في الجميع . .

– ويحكم . ماذا دهاكم . أتعقرون خيولكم حين احتجتم إليها . وتكسرون سيوفكم حين افتقرتم إليها .

والتفت إلى النساء الباكيات صائحاً . .

– إستبقين للبكاء عيوناً تبكى حتى آخر الدهر . .

وفى الصباح دفنا الجثة الغريبة التى وجدناها على التل . . وصرخت فى البيد الواسعة . . أدعو كليباً . . فلم يجبنى . . . وكيف يجيبنى البلد القفار . . سقاك الغيث انك كنت غيثاً . . ويسراً حين يلتمس اليسار . . ولست بخالع درعى وسيفى إلى أن يخلع الليل النهار . .

لم يبق من أيامى . . إلا أيام الحرب . . أو يعود كليب . . أجز شعرى . . وأقصر ثوبى . لا أشم طيبا . لا أشرب خمراً . ولا أدهن بدهن . ولا أقرب النساء . حتى أقتل بكل عضو من كليب رجلاً من بكر . رجلا للذراعه . . ورجلا لكل أصبع من يده . . ورجلا لكل شعره من رأسه . .

جاء إلى شيوخ بنى تغلب . . قالوا . .

– بنى مرة أولاد عمنا . . وأننا نرى ألا نعجلهم بالحرب حتى نعذر إلى اخواننا من بنى مرة . فبالله ما تجدع بحرب الأهل إلا أنفك . . ولا تقطع إلا كفك . .

صحت فيهم . .

– جدعه الله أنفا . وقطعها كفاً . . والله لا تحدثت نساء تغلب أننى أكلت لكليب ثمناً . . ولا أخلت له دية . .

لكنهم أصروا . . كنت أكره ترددهم . . ولكنى أكره أن ينفضوا من حولى . . ووافقت مرغماً . .

شهادة اعتراضية :

من أقوال وفد تغلب إلى بنى بكر . .

سرنا إلى بكر . . إلى بنى مرة . . كنا نحاول أن ندفع شبح الحرب . . قلنا لهم .

– انكم أتيتم أمراً عطيماً بقتلكم كليباً بناب من الابل . وقطعتم الرحم نحن نكره العجلة عليكم دون الاعذار . . وأننا نعرض عليكم احدى ثلاث خصال لكم فيها مخرج ولنا مرضاة . . أما أن تدفعوا إلينا جساساً فنقتله بصاحبنا فلم يظلم من قاتله . . وإما أن تدفعوا إلينا هماماً فإنه ند لكليب . . وإما أن تفيدنا من نفسك يا مرة . . فإن فيك رضا القوم .

وسمع «مرة» هذه الكلمات نظر إلى قومه من بنى بكر . . كأنه يطلب تأييدهم غير المشروط . قالوا له . . تكلم غير مخذول .

قال الشيخ المراوغ . .

– وأما جساس فغلام حديث السن ركب رأسه فهرب حين خاف . فوالله ما أدرى أى البلاد انطوت عليه . وأما همام فأبو عشرة . . وأخو عشرة . . ولو دفعته إليكم لصاح بنوه فى وجهى وقالوا . . دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره . وأما أنا فلا أتعجل الموت وهل تزيد الخيل على أن تجول جولة فأكون أول قتيل . . ؟ . . ولكن هل لكم فى غير ذلك . . ؟ . . ان شئتم لكم ألف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل . .

وهتفنا فى غضب . . ونحن نسحب أذيالنا . .

– والله ما كان كليب بجزور نأكل له ثمناً . .

(تمت أقوال وفد تغلب . ونعود إلى أقوال المهمل)

الحرب قدرى . منذ أن ولدت . وجالست النساء . وقلت الشعر . وأحببت كليباً تأهبت تغلب . . وبكر . لم يعتزل منهم إلا الحارث بن عباد . تدق الطبول فى الصباح وتنعب الناعيات فى المساء . ويمتد حبل الدم . يصل عيون الماء بالقبور وينبت زهر غريب . . أشم فيه رائحة جسد كليب . . عند الآبار والينابيع أماكن السقيا والعشق تحولت إلى مواقع للقتال . . تشرق الشمس فأشهر سيفى وأقتل كل من أصادفه . . ردوا كليباً . . انشروه من ذرات الرمل . . من رماد الحرائق . . لا أعرف عدد القتلى . . ومن أى جانب . . كم يوماً مر . . كم هجمة مباغتة . . وحركة غادرة . . ؟ . .

ثم جاء همام . رأيته أمامى ملطخاً بالدم والرماد . . كان فى الجانب الآخر . . وبيننا دهر من العداوات . تحاذرنا طويلاً أن نلتقى . . كان يتقدم نحوى كاسراً سيفه . . وحاسراً رأسه . . يقول .

– أقدم نفسى فداء لهذه الحرب الضروس . اقتلنى ولأكن آخر القتلى . .

ابتسمت وبكيت واحتضنته وأبعدته . . ياندیمی وصنو روحی . . مالفائدة . . أنا أريد كليباً . . حتى قتل جساس لا يشفينى . . أنا بحاجة إلى معجزة . . همام يبكى . ويستصرخنى . . يتوسل إلى أن أقتله . تكاثرت الأرامل واليتامى . وتلوثت الآبار بالدم . وامتدت الحرب مثل جسد خرافى بعرض الأيام والشهور والسنين . . يا همام . . ياندیمی وصنو روحی . . لا يزيد اليتم إلا اليتم . . ولا يوقف الدم إلا الدم . . فاحفظ روحك ومت بيد غيرى . . كان جساس يحلم بأن يكون ملكاً . . هو الذى دفع بناقه البسوس إلى بستان كليب . . وجعل العبيد يتطاولون عليه . . وأغراه على المبارزة بالعصى ثم طعنه غدراً بالرمح . استفزه ليقتله فأحياه فى قلبى كالظمأ . . انصرف يا همام . . فالحرب القدر يجب أن تتواصل . .

وذهب همام . أشرقت الشمس على يوم جديد . . كنا بالقضيبيات . والحرب فى أشد ضرواتها . وحان الوقت حتى يقتل همام . . قتله الغلام «ناشرة» . . كان لقيطاً . أخذه همام ورباه فى بيته . وعندما كبر عرف أنه من بنى تغلب . . وهكذا تحين الفرصة عند «القضيبيات» . . كان همام يقاتل فإذا عطش رجع إلى قربته فشرب منها ووضع سلاحه . .

ووجد ناشره من همام غفلة فشد عليه حتى قتله ولحق بقومنا . . وفى المساء . . كنت أمر بموكب القتلى فوجدت همام مقتولاً منطرحاً وسط الدم والرغام . جثة عادية وسط عشرات الجثث لا تفرق الطيور الجارحة بينها . . وكانت دموعى العسيرة تهمى .

- والله ما قتل بعد كليب أعز على فقدا منك . .

ولم تهدأ الحرب . للدم رائحة تغلب كل ما عداها . أشمها فى الطعام والشراب وفى مجلس القوم . حين أستند لبرهة واغفو . وحين أحلم . . توقظ داخلى الشهوات تفتح داخلى اغواراً عميقة . . فأرى كواكب مطفأة ونجوماً مندثرة وزهوراً ذابلة وعروق ملح ويأتى كليب غاضباً . . يصرخ من حرقة العطش . . وتأتى اليمامة . . وعنيزة . . وبديله . . يبكين . . يرددن المراثى فتتحول أظافرى إلى مخالب . وأسنانى إلى أنياب قاطعة . . الحرب جوعى الذى لا يشبع . . أضرب سيفى فلا أعرف قتلاى . . من بكر أم من تغلب أبحث عن جساس فلا أراه . . وهذا يعنى يوماً آخر وحرباً أخرى . .

ثم تخلى الحارث بن عباد عن عزلته . أرسل ابنه بجيراً يرجونى أن أقتلم فداء هذه الحرب . وفداء لكليب . غلام صغير لم يتعد الثامنة عشرة . بعثه إلى شيخ احمق يحسب أنه كفء لكليب . . كأنى خضت هذه السنين الطويلة من الحرب حتى أظفر بهذا الغلام . . صرخت غاضباً . . شاعراً بالاهانة . . رفعت سيفى لأهوى عليه . . وصرخ فى امرؤ القيس بن ابان أشجع رفاق حربى . .

- لا تفعل فوالله لئن قتلته ليقتلن به عزيزاً علينا . . وقد اعتزلنا أبوه وعمه وأهل بيته . .

ولكنى كنت غاضباً مروراً . . جائعاً للقتل . . والغلام أصغر من أن يقنعنى منطقة . . أهويت عليه بسيفى الأعمى وأنا أصرخ . .

- بؤ بشسع نعل كليب

شهادة اعتراضية :
من أقوال الحارث بن عباد .

علم الله . . لم أكن من جناة الحرب . . ولكنى صليت نارها اليوم . . اعتزلت بكراً حتى تفيق فأبت على تغلب اعتزالى . قربا مربط النعامة منى . ان قتل الكريم بالشسع غال . ولدى . قرة عينى . يموت لقاء أحد سيور نعل كليب أنا الحارث بن عباد . أشد أهل زمنى حلماً وصبراً . الوحيد الذى لم تلوث الحرب يديه . جاء قومى من بكر يطلبون وساطتى . أحسست حيالهم بنوع من الذنب الغامض . . لعلنى كنت الوحيد الذى لم يتحمل نصيبه من الألم . أرسلت إلى المهلهل . . ابنى فداء لهذه الحرب الضروس . . لم أنسى النظرة التى رأيتها فى عينى بجير وهو يستعد للسفر . . لعله كان يسألنى فى صمت . . عن مبرر لهذا التصرف الاحمق ؟ .

ثم جاء إلى من يقول . . أن المهلهل قد قتل بجيراً . . قلت في هدوء وأنا أحاول التماسك :

- نعم القتيل أصلح بين وائل

صرخوا في وجهي . .

- وإنما قتله بشسع نعل كليب . .

في أول الأمر لم أشأ أن أصدق . اعتزلت الحرب طويلاً فلم أعد أعرف سعارها . . أرسلت إلى المهلهل أسأله . . إن كنت قد قتلت بجيراً بكليب وانقطعت الحرب فقد طابت نفسي . . ولكنه رد على في قسوة . . إنما قتلته بشسع نعل كليب . .

عفوا يا بجير . أهدرت دمك دون جدوى . . لم يعد أمامي إلا حرب أنا الخاسر فيها مقدماً . . أحضرت فرسي «النعامة» . . جززت ناصيتها . ونتفت ذيلها . وخرج قومي خلفي . كل الذين اعتزلوا وعضوا عن الاشتراك في حرب عبثية . . رأيت ديار بكر . قتلى . . وحرائق . . شممت رائحة الدم . وسمعت أصوات البكاء . . ولم يمنعني الحزن من أن أعرف إن الحرب مكيدة . . جمعت حولي من معي . . وأنا أقول لهم . .

- كل امرأة تمسك قربة من الماء في يد . . وهراوة في اليد الأخرى . . وليقف جمعهن خلف الرجال . علموا أنفسكم بعلامات يعرفنها . فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته . وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة .

وهكذا . حلقوا رؤوسهم جميعاً استبسالاً للموت . وجعلوا ذلك علامتهم . واشتد القتال ضارياً . والنعامة تزفر تحتي . ورأيت فارساً منهم يقاتل بوحشية . . وأمرت فرساني أن يتكاتفوا حوله وأن يضيقوا عليه الخناق . . وظل يقاوم حتى كلت سواعده . . وانهزمت تغلب . . ووقع الفارس أسيراً . . اقتربت وأنا أصيح فيه . . دلني على المهلهل . . حدق في باستغراب ثم قال في تردد : ولي دمي . . ؟ . . قلت بغباء واندفاع : ولك دمك . . قال : ولي ذمتك وذمة أبيك ؟ . . قلت : ذاك لك . . ابتسم وهو يقول : أنا المهلهل . . خدعتك عن نفسي والحرب خدعة . .

خدعني قاتل ابني . . انتزع من بين أسنان الوعد بالامان . . أخفضت سيفي . . وأصبحت فارساً مسكيناً أسير وعده الأحمق . . قلت : كافئني بما صنعت بك بعد جرمك . . ودلني على كفء لبجير . . دار بعينيه يفكر ثم أشار إلى أحسن قواده . . امرىء القيس بن أبان . . لم يكن ليتورع عن شيء لينجو بنفسه . . وهكذا جززت ناصية شعره كما هي العادة إذا أنعم السيد الشريف وأطلق أسيره . . وفتكت بابن أبان . . ولكن ثار بجير لم تهدأ . . وكذا الحرب . .

(تمت أقوال بن عباد ونعود إلى أقوال المهلهل)

عدت مهزوماً . كسيراً . مجزوز الناصية . دخلت فى مصيدة الوجوه . يسألوننى عن الأب والأبن والزوج . كيف انكشفت الحرب وتناثرت جثث الأهل . . كنت عاجزاً . . كأنى هزمت طوال هذه السنين الماضية . وناصيتى المجزوزة تشهد على ذلك . قتلت كثيراً فلم يبحث كليباً . أمر على قبره كل مساء فلا أظفر بعلامة رضى . . أو غضب . لا الآلهة تجيب . ولا الأبار ترجع الصدى . أصبحت قاتلاً مطالباً بثأر المئات . وثأرى لم أبلغه . لعبة الحرب المميتة تركت بصماتها على قلبى . . تحولت إلى وغد جبان . . قتلت صبياً اسمه بجير وصديقاً اسمه امرؤ القيس بن ابان . . وقبل ذلك . قتلت نديمى وصنو روحى هماماً ابن مرة . . وعدت مجزوز الناصية . . يسألنى الجميع عن قتلاهم . . صرخت فيهم . .

– مثلى لا يسأل عن القتلى وهو مقتول . . سنوات الحرب طويلة وقاسية . . لو مرت هذه السنين فى رفاهية عيش لكـانت تمل من طـولها . فكيف وقـد فنى الحيان . وثكلت الأمهات . وبتم الأولاد . ورب نائحة لازالت تصرخ . ودمـوع لا ترقـأ . وأجساد لا تدفن . وسيوف مشهورة . ورماح مشروعة . . وان القوم سيرجعون إليكم بمودتهم . . وتتعاطف الارحام من جديد . . أمـا أنا . . فـما تطيب نفس أن أقيم . . ومـازال ثأرى معلقاً . . وأنا من اللحظة سائر عنكم إلى بلاد اليمن .

لم يعارضنى أحد . . لم يطلب أحد بقائى . . لم يتمسك أحد بيوم آخر من القتال . . همهموا جميعاً فى ارتياح . . وسرت مبتعداً عن ديارى وقبيلتى . . رأيت غراباً أسود ينقر قبر كليب فواصلت سيرى . . يحاول الغراب أن يصل إلى عظام كليب . . فكيف أستعيد من كان طعاماً للغربان .

ذهبت إلى بلاد اليمن البعيدة . . غربت شمسى وتبعنى الجواد الشاحب . . بدأت الحرب بالأطفال . . وانتهت بالشيوخ . . كل شىء أصابه الهرم إلا ذلك الجواد الهرم على حافة الافق . . وبدأ الصدأ يزحف على سيفى . وعلى روحى . جاءت أخبـار بكر . . وتغلب . . الصلح . . والسلام الذى استتب . . لم أكن رافضاً . . ولا مؤيداً . . كنت هارباً . . استدار الزمن . . ولم أدرك ثأرى . . وجاءت ابنتى سلمى . . الحت على أن نعود إلى أرضنا . . كانت مشوقة وكنت أكثر منها شوقاً . ولكن العودة من المنفى حزن جديد .

كبرت سلمى . . وحان وقت زواجها . . لعلها تـركت نصف قلبها هنـاك وتبعتنى بالنصف الآخر . ولكنى تـركت قلبى كله هناك . . والملل كـالقتاد . . أرقـد فوقـه كل مساء . . وافقت على العودة . عدنا من نفس الطرق القديمة . . المسارب الخادعة . . وأحراش الصبار . وأول شىء بدا من تغلب هو قبر كليب . . لعله ترك موضعه القديم وتحرك ليسد طريقى . . يذكرنى بكل ما حسبت أننى نسيت . . خنقتنى العبرات . . كأنها لحظة اعلان الموت . . عفواً يا كليب . . لم أغتسل . . لم أشرب . . لم أقرب امرأة . . ولم أدرك ثأرك . . وصرخ فى وجهى طائر مجهول . . لعله طائر الصدى الذى خرج من رأسه

يوم قتل . . يلعنني طالبا ومطلوبا . . وروحه القلقة تنعى على شيخوختي وعجزي . .

انحدرت إلى تغلب . استقبلتني وجوه مستغربة . لم يتصور أحد أنني مازلت على قيد الحياة وصرخت فيهم . . هيا إلى القتال . . مازلت بكر ترعى . وجساس يحكم . . هل كان صوتي واهناً . . أم هم اللذين أصموا آذانهم . . ؟ . . تركوني وسط البنات الثلاث . . اليمامة . . وعنيزة . . وبديلة . . هتفوا . . سوف نحارب معك يا عماه . . وسخر منا الجميع . أربعون عاماً من حرب مضت أحاول بعثها من جديد . . لم يتجمع حولي أحد . .

كونت جيشاً . . من حثالة العبيد والمرتزقة والمتعطلين واللصوص . . أي جيش لأخذ أي ثأر . . أهو جنون الشيخوخة . . أم حرقة الثأر القديم . . سرت إلى تغلب . . صرخت أطلب دم جساس فضحكوا مني . . هددتهم بالقتل فأشاحوا . . هجمت . . . . وما هي إلا جولة حتى تفرق لصوص جيشي واستخزى عبيدي . . ووجدت نفسي أسيراً عند عمرو بن مالك أحد أسافل بني ثعلبة . .

شيخ عجوز أسير هو المهلهل . . يضحك منه الصبية . . ويسخر منه الجميع . . حتى رثائي في كليب يثير الضحك . . وبدأت أهجو آسري . . فصرخ في وجهي . . هددني ولكني بالغت في هجائه . . أقسم ألا أذوق الماء سبعة أيام كاملة . .

كانت هذه النهاية . . أعرف ذلك . . ووهج الصحراء يتمدد في عروقي . . والآبار الجافة تتشقق في أخاديد قلبي . . والسراب الخادع . . يحمل لي كليباً شاب جيلاً قوياً . . كما رأيته دائماً . . كنت أنعي نهايتي . . كنت أصنع من الرمل والدم والطين مفردات وأحولها إلى أطفال لم أنجبهم . . ونجوماً لم أرها . . وأردد في النزع الأخير . .

يا خليلي نادياً لي كليباً .
ثم قولا له . . نعمت صباحاً . .
يا خليلي . . ناديا لي كليباً .
قبل أن تبصر العيون الصباحا . .
يا . . خلـ . . ـلي . . ـنا . . . . . .
تمت أقوال المهلهل بن ربيعة .



الشاهد الثالث :

هجرس بن كليب

مثل جرادة صغيرة مقصوصة الأجنحة جاءوا بى إلى ديار بكر ، لم أتعلم شيئاً سوى الذى أرادوا أن يعلمونى إياه . أن أكون طيعاً مثل عود الخيزران . ومرت على أربعون عاماً طويلة . عشرة قضيتها جاهلاً . وعشرة سألت خلالها كل الأسئلة دون جدوى . وعشرة لم أتلق إلا الاجابات الخادعة . وعشرة تجمعت فيها كل عذاباتى وأصبح الفضاء سجنى الخانق . . ثم رأيت الشيخ العجوز أسيراً . . وكان هناك مطر فى غير موسمه . . وكآبة غامضة تلف الصحراء . ودق المنادى الطبلة وهو ينادى . .

– يا بنى بكر . أسر المهلهل بن ربيعة رأس الفتنة وانتهت الحرب . .

تعالت صيحات الفرح . عالية . خالية من الحياة . تدافع الأطفال اليتامى والنسوة الثكالى وعجزة الحرب . . والشيوخ الذين قدر لهم أن يشاهدوا بداية التكوين وفساد النهاية . . وكان خالى جساس بعيداً . وأمى تعانى من كوابيس غامضة . وأنا وحيد فى ديار الموتى . يمر الموكب من أمامى . يمر من خلالى . وأشباح الآدميين تضطرم حولى . . أرواح قلقة معذبة . . وأصوات الدفوف والمزامير ونباح الكلام . . تتكاثف حولى مثل رائحة ثقيلة . أو لحن ملىء بالشجن . مجرد انباتات باهتة خارج نفسى صرت منفصلاً عن الأشياء . عالم تدب فيه حياة صاخبة ولكنه خامل كالرماد . . والشيخ الأسير مقيد . منزوع العمامة . . فوق بغل هزيل . . ووجه العجوز فى مواجهة الذيل . .

أحدهم يلكزنى . . يدفعنى :

– تراجع يا راعى الغنم . لا شأن لك بما يحدث . .

أبعدنى عن طريق الموكب . فسرت خلف ظهورهم . وهم يلوحون ويهللون . . كانوا يملكون حق الفرح والغضب وحدهم . . وفى يدى عصا الرعى الغليظة . . أربعون عاماً

رأيتهم يتحاربون . ويعودون بالجرحى والغنائم ورأيت الأغنام تتناسل والعشب ينفذ ويذبل ويرتعد تحت الريح الباردة . . لم أجرؤ فى لحظة واحدة على أن ألقى عصا الرعى الغليظة وأمسك سيفاً . .

لست أدرى ما الذى حدث بالضبط لكن الموكب استدار ناحيتى . والشيخ العجوز كان يمضى بحمارته نحوى . . يقف بجانبى فأرى تجاعيد وجهه كالأرض العطشى . ارتعدت عيناه وهو يتأملنى . انتفضت ملامحه وأشرقت عن ابتسامة طفولية وهتف فى حنان بالغ .

- أهو أنت يا كليب ؟ .

تراجعت من أمامه . . طوال عمرى لم أشترك فى الحرب . كنت معلباً بالفوضى التى تسود دروب القبيلة ، والخوف المنبعث من أعماقى . . وواصل الشيخ التساؤ ل . .

- كم تبدو صغيراً يا كليب . . كم تبدو رائعاً . . ؟ .

لوحت فى وجهه بعصى الرعى فاختلج وجهه . لم يخف . بدت عليه خيبة أمل غريبة . لم يرفع عينيه عن وجهى . . تمتم كأنه يحلم :

- لعلنى جننت . . أنت هو . . ولست هو . .

تواصل سير الموكب . والسماء الملبدة بالغيوم لا تحمل وعدا ولا تبعث على السلوى . عادوا يدفعوننى بعيداً . استيقظت أفكارى أخيراً . تحول كل ما أراه وأسمعه إلى نبضات متواصلة من الألم . إلى رغبات مقهورة وعاجزة . كانت خلايا جسدى تمتص هذه النبضات وتحاول أن تعيد اتصالى بالعالم . كليب هو القتيل . وهو ليس أبى . وجساس القاتل . . وهو خالى . . وجليلة أمى . . وأنا ابنها من تاجر ضائع . مر بالقبيلة ووضع بذرتى ومضى . . لم يترك نسباً . ولا ثروة . . ولا ذكرى وعندما بدأت ألعب ألعاب القتال مع الفتيان . . صرخت أمى . . حبستنى فى خيمة سوداء . لم يعطونى إلاعصى الرعى . . ترهل جلدى . . وتضاءلت روحى . . وتشابكت صورتى مع الأغنام . .

اختفى الشيخ الأسير . وعدت إلى بيتنا . . إلى جليلة أمى . وسعدى زوجتى وابنة خالى . أصر جساس أن يزوجنى منها وحسبت أن هذا سوف يرفعنى إلى مرتبة الفرسان . ولكنى اكتشفت أنها الوحيدة التى تشبهنى . كانت بلهاء . طيعة . يكفيها من الأرض الجزء الذى تقف عليه . . ومن الجبل الصورة التى تراها . . ومن الليل الطويل مجرد حلم عابر . . لم يكن لنا معاً إلا الخداع وكنا نتشبث به فى قوة . .

قالت أمى وهى ترمقنى فى ريبة : ماذا بك . . ؟ . .

قلت بلا مبالاة : ذلك الشيخ الذى أسروه اليوم . . وقف فى مواجهتى وأخذ يدعونى كليب بن وائل .

هوى وعاء اللبن من بين يدى أمى . . تناثرت قطع الفخار وسال اللبن على الأرض . ألتفتت سعدى ثم عادت إلى شرودها . جلست أمى على ركبتيها تجمع قطع الفخار واللبن والطين . . رفعت وجهها وقالت فى ذلة . .

- هل أسروا المهلهل بن ربيعة . . هل قال لك شيئاً آخر . .

يا أمى . . يا جليلة بنت مرة . أربعون عاماً وأنا جائع بالأسئلة . عطشان إلى قطرة من المعرفة . أموت فى الشتاء . وأتجدد فى الربيع . وأسكن فى الخريف . وانتظر البداية . . من الخير يا جليلة أن يبدأ كل شىء من البداية . . صرخت فى . .

- أنت ابن التاجر شريدان . . لست ابن أحد غيره . . أتفهم ؟ .

أحنيت رأسى طائعاً . فكرت أنه لا يجب أن أكثر من الأسئلة الحمقاء . أن خيبة الأمل الكامنة فى المجهول لا يمكن تجنبها . . وفى المساء سرت إلى دار مالك بن عمرو من بنى ثعلبة . تسترت بالظلام لأراقب الأسير . . كان جالساً وسط جمع من بكر . يتحدث عن أيام الحرب . ويبكى كليباً . كليب كان زوج أمى . لكنه لم يكن أبى . ليست هناك من مناسبة لأمت بصلة القرابة لملك ميت . . كان الشيخ يقول الشعر بصوت متهدج باك . . إن فى الصدر من كليب شجوناً هاجسات .

فكأن منى الجراحا . .

ونهض عمرو بن مالك صارخاً فيه .

- أتبكى كليباً وتأكل طعامى وتشرب شرابى . . إن لله على نذراً إن شربت عندى قطرة ماء أو خمراً حتى يورد «الخضير» .

وضحك الشيخ العجوز فى سخرية . لم يكن يعرف ماذا يعنى «الخضير» . . ذلك الجمل الصبور الذى يخرج إلى عرض الصحراء ولا يقرب الماء إلا فى اليوم السابع . ضحك الشيخ وانصرف إلى داخل سجنه . وبقيت وحدى . لا تربطنى به أى صلة قرابة . . قد يكون عم أخواتى . . ولكنه ليس عمى . . من المؤكد أن أبى هو ذلك التاجر الذى مر على بكر والحرب فى أوج ضراوتها ومع ذلك وجد الفرصة ليتزوج . . وينجب . . ثم يمضى . .

كنت أعرف أن جسد العجوز لن يتحمل أيام العطش . . قلت فى نفسى . . وماذا يهمنى ؟ . القضية أننى أقف وسط قبيلة لا تربطنى بها سوى صلة الدم وقرابة غامضة . . وأنا أحاول جاهداً أن أنتزع طفولتى من بين التراب . .

صعدت الجبل فلم أر القمر . . ونزلت فرأيت أمى عائدة من خباء خالى جساس . . كنت أسبح فى زمن غير زمنى . . هجرس المسكين وقد تغير تماماً . . يضرب رمحه فى الأرض . . ويثقف سيفه ويغشى الحانات ، ويمتطى الخيل والوحشة . ويتحدث عن النساء

بكلمات مكشوفة وبليثة . كل هذا يستلزم أن أولد من جديد . ألاّتنجبنى جليلة من تاجر عابر . . وألا يعلمنى جساس الطاعة ثم يزوجنى من سمدى .

جاء صباح أول أيام العطش . قلت لنفسى سوف أنسحب بعيداً . لم أشهد جريمة من قبل . . ولن أشهدها اليوم . . واجهتنى الاغنام بعشرات الأسئلة وأنا صامت كانت الشمس فى مواجهتى فأغمضت عينى . لبرهة خاطفة حلمت بالشيخ ووجهه مغطى بقناع من الملح . . فتحت عينى فرأيت خالى جساس يحدق فى غاضبا . .

- ماذا قال لك الشيخ الأسير؟ .

قلت فى هدوء . قال إنى كليب بن وائل . .

اقترب منى حتى شممت رائحة أنفاسه . . وهتف فى تأكيد . .

- ولكنك لست كذلك . .

قلت فى هدوء . . ولكننى لست كذلك

حاول جاهداً . . للمرة الأولى كما أعتقد ــ أن يستكشفنى . لم يقل شيئاً . ولم أرد عليه . لم يكن بيننا أى اتصال . كان يبحث فى عن الضعف المعهود الذى سوف يهبه اليقين الكاذب . استندت إلى شجرة كانت بجوارى . كنت أسمع فوران العصارة فى داخلها . . لو أننى أمد يدى فيجرى فى عروقى دمها الذى لا لون له . فأنمو دون خجل . وأزدهر بلا ألم . ثم أذبل دون حسرة . . تراجع خالى عنى . لعله اكتشف بالفعل بعد هذه الاربعين أننى بالفعل أشبه كليباً بن وائل . . هتف بى من بين أسنانه . .

- يا راعى الغنم . . يا راعى الغنم . .

كنت حقاً راعى غنم . ولكن لابد أن جثث الحرب قد أنبتت هذا العشب . . ومنه تأكل الأغنام التى أرعاها . لابد أن لى صلة ما بهذه الحرب . . صرخ جساس فى وجهى . .

ــ أمنعك من الذهاب إلى هذا الشيخ . . أتفهم . .

كان الشيخ يموت فى هذه اللحظة . . يمد يده ويستصرخنى . وجساس يستدير لينصرف . . لم يقتنع بعلامات البلاهة فوق وجهى . . وهبطت . . كانت جليلة ساهرة فى انتظارى . . شاهدت النظرة التى استقبلتنى بها . أدركت أنها عرفت أننى اكتشفت كل شىء . .

وفى اليوم الثالث . دقت الطبول تعلن موت الشيخ العجوز . . كان بعض الفرسان وقد هالهم قسم مالك بن عمرو قد خرجوا فى الصحراء لكى يأتوا بالخضير . ولم يأت الخضير . . لم يكن فى تغلب من يأبه بالسعى من أجل ثأر جديد . أخرجوا جثته . وضعوها فوق البغل الذى جاء به . تدلت قدماه من جانب ويداه من الجانب الآخر . ولكزوا

مؤخرته فسار إلى ديار تغلب . . رسالة صامته . . متواطئة . . هذه هي النهاية . . وهذا هو ثمن الصلح . .

مات عمي . إن كان ما أحسه حقاً . وهذه حقيقة أخرى غريبة . . حاولت . . وحاولت أمي . . وخالي . أن نقنع أنفسنا أنها غير موجودة . لم أحس بالحزن بقدر ما أحسست بالخجل . استسلمت بسرعة لهذا الاقناع الساذج . . سارت البغلة فتتبعتها . تذكرت كل نظرات السخرية وضحكات الاستهزاء . لقد اخترت الطريق السهل وهربت من الحقائق كأنها أفاع سامة . . هربت داخل نفسي .

سرت وراء البغلة . يربطني بالجسد الميت خيط عنكبوت جارح . . أخرج من الدروب إلى فجاج التلال . ومن الفجاج إلى الصحراء الواسعة . والجسد الميت يكتسب حركته من حركة البغلة . كان الأمر يتطلب شخصاً غيري لكي يدرك منذ مدة طويلة . . وأنا أصعد . . أهبط . . وديار تغلب بعيدة مثل سراب . كان هذه الرحلة لن تنتهي أبدا . . ثم فوجئت بالصيحة . كأنما تفجرت من داخل الصخور ومن ذرات الرمل . .

- قتلوك يا عماه . .

تلفت حولي في رعب . . من خلف الأفق برزت امرأة . . طويلة نحيفة ترتدي السواد . . وتقبل سريعة نحو البغلة التي تسير في ثبات بالغ . كان الصدى يحمل الصوت ويفتته ثم يعيده . . وقفت أمام البغلة . جثت في موازاة الرأس المتدلى . . وأخذت تهيل الرمل على رأسها . . وأنا أقترب كأني منوم . تسوقني ريح مجهولة وقفت أمامها . . كانت الشمس في ظهري وسقط ظلي على وجهها . رفعت رأسها إلى . . وكالبرق الخاطف مر في عينيها ظل من الكراهية . أمسكت خطام البغلة . . وساعدتها في انزال الجثة . . تأملت وجهي قليلاً . . ثم هتفت . .

- يا له من جنون . . كليب راعى غنم . .

كانت طويلة . نحيفة . شاحبة . كانت امرأة غير حقيقية بصورة من الصور . لم يعد يجديني الهرب . . كانت هي اليمامة . أختي . أشد هرماً مني . انغرست عيناها كالحدأة في قلبي . تسألني من أنا . . عن حقيقتي التي أجهلها . استخليت أمامها وأخذت أسرد اعترافاتي . ختموا على قلبي بالرصاص . زرعوني في بكر دون جذور . سرقوا شمسي اليومية . وعمدني الكهنة بماء الآبار المسمومة . عشت دون ندم . وتقبلت سوءاتي بلا خجل . وتزوجت دون أي رغبة في مواصلة الحياة . . وهأنا أيتها اليمامة اليتيمة . . أدركت ذات لحظة أن الأرض مكان غير صالح للسكن وظللت عاجزاً عن الانتقال إلى مكان آخر . .

هتفت اليمامة في وجهي باحتقار بالغ . .

- وأنت أخي اذن . . منذ متى عرفت ذلك ؟ .

سوف أكون كاذباً لو قلت أن ذلك منذ أيام قليلة . . صرخت . .

- وتركته يموت . . لقد شاركتهم فى قتله . .

من العبث أن أنكر . . ومن البلاهة أن أبكى . . وأربعون عاماً مدة طويلة لأصدق كذبة واحدة . . قلت . .

- سوف أعود إليهم . .

قالت فى حدة . .

- لترعى الغنم !

لم يكن بيننا أى مشاعر مرئية . . لا حنين ولا حنق . أخذنا نحفر سوياً فى الرمل . . جهزنا قبراً واسعاً وضعنا فيه الجسد المتهالك الجاف . كنت أريد أن أضع له شاهداً لكنها رفضت . ساوته بالأرض كأن لم يكن . . قلت لها أننى سأعود فلم تبالى بى . . استدارت إلى ديارها . وسرت مبتعداً والبغلة واقفة بجانب القبر . سرت طويلاً . وبدت نيران بكر مثل عيون الليل ترقبنى . وصلت إلى خبائى وسمعت تأوه جليلة . . كابوس آخر . . وكانت سعدى تنتظر بروز القمر من خلف الجبل . . بدونه تحس أنها طفلة . يتيمة . . ضائعة . .

كنت بحاجة للمسة من الحب . وكان جسد سعدى صامتاً . مجهداً بين ذراعى ، كنت أفكر فى حنق . هل يكون ثمناً عادلاً أن أقتلها الآن . . وهى عارية . . كانت هى صورتى . انعكاس وجهى الابله الصامت . تفتح شفتيها وتغلقهما فى حركات متتابعة . تردد تعويلة قديمة لم أسمعها . . لعلنا عجزنا عن أن ننجب طفلاً بسبب هذه التعويلة . . من الذى يحدق فى جسدينا العاريين . جليلة المتواطئة . أم كليب المقتول . . أم جساس القاتل . . أصابعى على عنق سعدى . أضغط وأدمدم . . وعيونها تبحلق فى باستغراب يخالطه الرضى . . وجليلة تصرخ . .

- ابتعد أيها القاتل . . سوف تقتل زوجتك . .

أزاحتنى بعيداً . كنت ألهث . ونهضت سعدى . ارتدت ملابسها فى صمت . . وانصرفت هادئة . اتجهت إلى منزل أبيها . . واجهتنى جليلة . رفعت عصاها لتهوى بها فوق رأسى . ولكنى بادرتها قائلاً . .

- لقد قابلت اليمامة . .

تراجعت من أمامى وهى ترتجف . وخرج القمر من وراء جبل «المثنى» ولكن سعدى لم تكن هناك . .

لم أتصور أن يجيء الصباح . أن ترتفع الشمس وتعرينى . قضيت الليل بلا نوم وبلا رغبة فى فعل أى شىء . . كان يجب على أن أسعى فى الظلام لقتل جساس كل ما فعلته أننى غرست أصابعى فى عنق سعدى .

وجاء جساس يسعى إلى خيمتى . . حدق فى قليلاً ثم جلس مقهوراً وهو يقـول :
ــ أنت ولدى وزوج ابنتى . . وبالمكان الذى عرفت . . وهذه الحرب طالت حتى كدنا أن نفنى . . والآن وقد اصطلحنا وتحاجزنا فلا تدع نهر الدم يجرى من جديد .

أمسكت عصا الرعى . كانت سعدى وجليلة واقفتين وكنت قد خسـرت كل شىء تقريباً :

- ما جدوى الصلح حين أبديه ومثلى يمسك عصا الرعى ويلبس البرد الخشن .

بدا على وجه خالى بعض من الأمل . . حسب أننى فقط أريد المساومة .
- وماذا تريد ؟ .
هتف بالامنية التى عذبتنى طويلاً .
- أريد أن أكون فارساً .

أعطنى جواداً . . ورمحاً . . وسيفاً . . اعطنى اسماً . . ونسباً . ألبسنى درعاً وأزرع جذورى . . ثم أسالنى ودعنى أختار . . كان جسـاس مدهوشاً . . وأمى حائرة . .
- مثلى لا يصالح فى ثوب الرعيان . .
إن كان كليب أبى حقاً فقد مات فارساً . وإن كان دمه قد برد وثأره قد تبلد فلابد أن أفعل ماأفعل فى نبل الفرسان . . لا فى ذل الرعيان . . وهتف جساس بى . .

- لا عليك يا ابن أختى . . سوف تصير فارساً .
كان خوفه القاتل من الموت قد استحال حباً . أسرع يقدم لى فرسه . وتخلت سعدى عن عزلتها وهى تلبسنى الدرع واعطونى سيفاً ثالماً . . ورمحاً قصيراً . . ولكنى أصبحت فارساً فى الأربعين من عمره . . أول معاركه هى المصالحة فى دم أبيه . وعطش عمه ويتم أخوته .

سار جساس بى . . وسط جموع وفود بكر وتغلب من أجل الصلح . . كنت أقتلع . وأسمع دمدمات الآبار تدعونى للغرق . . لعلى أتطهر . . أولـد من جديـد . . جموعهم تتلاصق وقد ملكهـا نوع من الجنـون . يدورون بى كـدوامات الماء . كريـح الصحراء العاصفة . . الصلح . . مات كليب من زمن . وكان المهلهل أحمق . أربعون عاماً من الدم فيها الكفاية والكفارة . . ووقف جساس خطيباً . .

- هذا الفتى أبوه كليب . . وخاله جساس وعمه المهلهل . وقد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه . . ويعقد ما عقدتم عليه . .
كان هناك إناء فخاري . ملء بقطرات الدم . . خليط من دم البكريين والتغلبيين . .

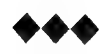
يريدون أن يكتبوا به عقدا . . ويوقعوه . ولكزنى جساس حتى أتقدم وهمس .
- هيا . . اجرح يدك . واقطر دمك . .

أنا راعي الغنم القديم . يأمرنى قاتل أبي بالصلح . . وحولى الوجوه الخائفة المترقبة . يعانون جميعاً من المظالم الصغيرة . والثارات المبتورة . ومن تتابع الأيام والليالى دون جدوى . . من أعمار الشيخوخة . ومن ذل الصلح . . ومهانة الحرب . من كل التعاملات التى تشكل تفاصيل الحياة .

- هيا . ضع رمحك . . وصالح .
أمسكت رمحى . . وصرخت . أخيراً صرخت . . حتى أننى لم أكن أصدق أننى الذى يصرخ . .
- وفرسى وأذنيه . . ورمحى ونصليه . . وسيفى وغراريه لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه . .
وأنفذت رمحى فى صدره . .

كانوا يصرخون حولى . يحرضون لحظات الزمن الميت . يحاصروننى فى ثورة وغضب . . كفى عن الصياح أيتها الأغنام البائسة . . انى أرتعد فوق جوادى وأحاول الانطلاق إلى رحب الفضاء . . حولى السهام وفى جسدى الرماح وساعة القدر قد أزفت . . إن الأحياء لا يعرفون شيئاً فعلمينى يا روح كليب . يا أرواح وائل . وتغلب . الوداع يا بكر . . والسلام على نفسى التى انتظرت طويلاً وتعذبت بما فيه الكفاية .

تمت أقوال هجرس بن كليب .
وانتهت الحرب . . وحفظت القضية .



الحارث بن ظالم المرى

طائر الصدى يدرك ثأره

فى صدر الحارث طائر غريب . . هو طائر الصدى . . منذ أن خرج من رؤوس قتلى قبيلته وهو يتلظى من العطش ومن الاحساس بالخزى . . يطوف الفيافى والمقابر لعله يدرك ثأره . . لم يفارق صدر الحارث أبداً . . حتى عندما تخلوا عنه وتركوه نهباً لريح السموم وخدعه الملك النعمان وباعوا سيفه وعباءته فى سوق عكاظ واستحلوا دمه وعرضه والطائر يلطم صدره بجناحه يحرقه بالعطش وجوع الرماد .

قبل أن يولد كانت كل المصائر قد أعدت والتصق خالد بن جعفر به كوجهه الآخر بعد أن هجم على قبيلته وقتل كل من فيها من الرجال وبينهم والد الحارث . لم يترك خلفه سوى قبيلة من النساء الثكالى ، اللاتى لا يجدن غير لبس السواد وترديد المراثى . . فتح الحارث عينيه ليجد أمه . . وأخوته . . وخالاته . وعماته . . كأنهن وجه واحد . صرخن فيه قبل أن يبدأ هو صرخاته . . رددن على مسامعه اسم خالد حتى حفظه قبل أن يعرف اسم أبيه . . أو أمه . . كان خالد هو قدره . .

نما وسطهن مثل نبات برى . . تطلبه أمه ليشد عصاب الناقة لتستطيع حلبها . . وتنتظره خالاته حتى يحضر لهن الحطب . . وتبقى عماته عطاشا إلى أن يخرج لهن الماء من البئر . . ولا تكف أصوات البكاء عن ملاحقته . . وكلهن يصحن فى وجهه مطالبات بالثأر . . كأنه هو الرجل الوحيد فى العالم . . وخالد . خالد بن جعفر بن كلاب بن عامر . . يطارد كل لحظة من طفولته . . وفى الليل تخبو النيران ويفرش القمر ضوءه على المقابر . . ولا تتركه أمه يغرق فى النوم قبل أن تقص عليه كيف مزق خالد جسد أبيه وتركه مشاعاً للضوارى . . وعندما ينام تدمدم الريح باسم خالد . قتل عمه . . وخاله . .

وزهير بن جذيمة سيد غطفان . . وورقاء العبسي . . وغيرهم من سادات العرب . . لا يتوقف سيفه ولا تتراجع خيله . . فكيف قدر للحارث وحده أن يتحمل ثأر هؤلاء . . ؟ . .

وعندما كان ما يزال صغيراً . . هبط أحد الصعاليك على القبيلة . . أخذ يجوس في الخيام الخالية من الرجال . . يكسر الأواني . . ويشد شعور النساء ويمزق ثيابهن . . وحين حاول الحارث الوقوف في وجهه اطاح به في ضربة واحدة . . وجرت النسوة فزعات يلملمن لحمهن العاري . . وانصرف الصعلوك وهو يتوعدهن بالعودة وقضاء الليل بأكمله وسطهن .

وعندما هبط أول سوق . . اشارت القبائل إليه وهم يقولون . . هذا هو الحارث بن ظالم المري . . من قبيلة النساء .

لم يعد اسم قبيلته «هوزان» . . لم يعد له قوم يعتد بهم . . تداخلت اسماء النسوة في نسبه . . وركبه خزي النواح . . وامتلأ قلبه بكل أحزان الأرامل . . فأخذ سيف أبيه وخرج إلى الصحراء . . أقام من كل أشكال الصخور صوراً لابن جعفر وأخذ يضرب . . ويرمي السهام لعل هذا يخفف من احساسه بالمهانة لكن عيون العابرين جائعة كلما سمعوا عن قبيلة بلا رجال تحركت شهيتهم . . وود الحارث لو يخرج من جلده . . من وشم أصابعهن على جسده . . تحول إلى حيوان بري . مفرد . معزول . . لا يضنيه غير أمرين . . ان يكون ثأره معلقاً بكف خالد بن جعفر . . وان تكون قبيلته من النساء .

ماذا افعل حين أقابل خالداً . . ؟ . . هل أبادره بالقتل . . أم أميته ببطء بعدد كل لحظات عذابي ومهانة طفولتي . . ؟ . .

ثم تقابلا .

رحل الحارث إلى الشمال . . إلى مدينة الحيرة عاصمة الملك النعمان . . حيث تذهب كل وفود العرب لتقديم فروض الطاعة والهدايا السنوية للملك . . وقدر للحارث أن يرحل أخيراً . كان قد أصبح شاباً قوياً . . واكسبته العزلة نوعاً من الصلابة وجعلت تصرفاته أشبه بالشراسة الحيوانية . . أخذ بضعا من الخيول التي بقيت في قبيلته بعد أن سلبها الغزاة كل شيء . . فشبت ضعيفة مثل نساء القبيلة . . رحل بلا سيف . . فلا أحد يدخل الحيرة بسيفه . . وهناك رأى خالد بن جعفر للمرة الأولى .

« أهذا أنت . . ؟ . . » . . تساءل الحارث في حرقة وخالد واقف بجانب العرش منتصب القامة كأنه تمثال صخري قاس . . والساحة واسعة . . والعرش عال . . وأعلن الحراس اسمه . . واسم قبيلته . . والحارث يتقدم ممسكاً بأعنة الخيول الهزيلة . . وخالد

يتنفس فى صوت عال كأنه يتوعده . . « أهذا أنت ؟ » . . لم يكن أى منها متقلدا سيفه . . كانا فى حماية الملك الابرص الأحمر الشعر . . ووفود القبائل من مضر واليمن وربيعة . . تحصى أنفاسه اللاهثة . . وهو وسطهم ضئيل . . حانق . . ممرور . . وهذه البسمة الساخرة على وجه ابن جعفر تجعل كل قطرة من دمه تتوفز . . وضع أعنة الخيل عند قاعدة العرش وهتف بالكلمات التى لقنوها له .

- ابيت اللعن . . نعم صباحك . . وأهلى فداؤك . . هذه أفراس من خيل بنى مرة . . لن تأتى بفرس يشق لها غبار .

وقاطعت الضحكات كلماته . . انفجر خالد فى ضحكة مدوية ، نزل من جانب العرش أخذ يدور حول الحارث . أشار للخيول فى سخرية وهو يقول .

- أتقدر هذه على شق غبار . . ؟ . .

وانفجرت الوفود فى ضحكات متصلة . . نظر الحارث للملك يستنجد به . . لكن وجهه كان خالياً من أى تعبير . . وصعد خالد وأخذ يهمس فى أذنيه . . وتحولت هذه الهمسات إلى تقلصات غاضبة على وجه الملك حتى نهض وهو يصرخ فى الحارث .

- يا حارث . . أرى خيلك أشباها . . اين اللواتى كأن إذ نابها شقاق اعلام . وكان مناخيرها وجار الضباع . . وكأن عيونها بغايا النساء .

وصاح خالد .

- زعم الحارث أن تلك خيله وخيل آبائه .

وزفر الملك . . واحس الجميع أن الحارث سوف يرد خالياً . . مغضوباً عليه لكن وزير الملك تشفع له . . وأشار الملك للجميع بالانصراف . . وابتلع الحارث أول الاهانات .

فى المساء ذهب الحارث إلى حانة فى الحيرة . . كان الشراب مراً . . وازدادت مرارته عندما دخل ابن جعفر وحوله قومه من بنى عامر . . وجلجلت الدفوف بالتحية وخرجت «بنت غفرز» المغنية من مؤخرة الحانة . . وقفت أمامهم تغنى . . وظل الحارث مسلطاً انظاره على خالد . . فوجىء به يلتفت ويتأمله . . ثم يشير إلى بنت غفرز يلقى لها كيسا من الذهب وهو يهمس فى إذنها . . ودقت الدفوف والصاجات . . وانتصبت المغنية . . وغنت . .

دار لهند والرباب وفرتنى .
ولميس قبل حوادث الأيام . .

بدأت طقوس المهانة . . استدارت الوجوه لتتطلع إليه . . وبنت غفرز تغنى . . عن أمه وخالاته وعماته . . تعرض بهن . وانكسر الكأس الفخارى بين أصابعه . . والتفتت بنت غفرز إليه . . فوجئت بوجهه الصلد . . وبنيانه البرى الغريب . . وهو يحدق فيها . . يتأهب لقتلها . . كانت قد أخذت به . ارتعدت تحت وطأة نظراته الغاضبة . . اقتربت منه . لكنه نهض غاضباً مجنوناً . . دفعها بعنف ووقف أمام خالد . وتأهب حراس الملك . وتأهب بنو عامر . . تأهبت الحيرة كلها . . والحارث وحيد أعزل . . ولم يكن أمامه إلا أن ينسحب ويبتلع الاهانة الثانية . . وظلت ملامحه الصلدة أمام عين بنت غفرز . . وآثار أصابعه على كتفها . . ولم تعد قادرة على الغناء .

وفى الصباح توجهوا إلى مائدة الملك النعمان . . جلس الملك فى المقدمة . . وجلست بقية الوفود على الجانبين . . واختار خالد أن يكون فى مواجهة الحارث . . احضر الخدم أوانى التمر الذى تشتهر الحيرة به . . ووضعوها أمامهم . . وظل خالد يأكل ويلقى النوى بين يدى الحارث . . وهو يأكل فى صمت كظيم وكومة النوى تكبر بين يديه وبنو عامر لا يكفون عن الضحك . . وعندما فرغ خالد توجه بالحديث إلى الملك .

– ابيت اللعن . . أنظر إلى ما بين يدى الحارث من النوى . . ما ترك لنا تمراً إلا وأكله .

ولم يبتلع الحارث الاهانة الثالثة فرد عليه .

– أما أنا فأكلت التمر والقيت النوى . . وأما أنت فأكلته بنواه . .

ووجم الجميع . . كان خالد لا ينازع ولا ترد له كلمة سواء بين قومه أو فى أى مكان . . صاح غاضباً .

ـ أتنازعنى يا حارث وقد قتلت حاضرتك وتركتك يتيماً فى حجور النساء ؟ .

ـ ذاك يوم لم أشهده . . وأنا مغن اليوم بمكانى . وضحك خالد ضحكة جافة وقال مهدداً

ـ فهلا تشكر لى إذ قتلت زهير بن جذيمة وجعلتك سيد غطفان .

واستدار الحارث خارجاً دون أن يأبه حتى باستئذان الملك

وفى الحانة عندما بدأت بنت عمرز فى الغناء رأت الوجه الصلد يتطلع اليها . . أحست بآثار أصابعه التى أنشبها فى كتفها . . ألقى اليها كيساً من الذهب وطلب منها أن تغنى .

تعلم ـ أبيت اللعن ـ انى فاتك من اليوم أو من بعده بابن جعفر . . أدركت معنى ما حدث بالأمس . . لم تأخذ النقود . . لكنها غنت من أجله . . لعله يلين قليلاً . . جلست أمامه وهى تهتف به .

ــ ألك حاجة . . ؟ . .

قال بصوت بارد . . أريد سيفاً . .

وظلت بنت عفزر تحدق فيه . . فكرت أن تتركه . . لكنها لم تفعل . . وذهبت الأخبار إلى خالد فاستقبلها باستهزاء . . لم يبق إلا هذا الغلام الذى يهدده . . وهتف بـه أخوه الاحوص أن يخفف مبيته الليلة لأن الحارث رجل موتور قد غلبه الشراب . . وضحك خالد . . لكن الأحوص ظل يلح عليه حتى قبل أن ينام معه « عتبه » ابن خاله .

سارت بنت عفزر والحارث خلفها إلى أقصى مدينة الحيرة . . واستيقظ اليهودى تاجر السيوف مفزوعاً . . اعتذر عن طلب الحارث لأن أوامر الملك كانت مشددة . . وتدخلت بنت عفزر . . وكانت لها معرفة سابقة بالتاجر . . ووضع الحارث أمامه كل ما معه من قطع ذهبية . . واقتنع اليهودى أخيراً . . نزل إلى قبو المنزل وعاد بالسيف .

لم يشهد الحارث ما هو أروع من هذا النصل اللامع المصقول . . انعكست

ذبالات المصابيح على صفحته فى وميض خاطف كالبرق . . واقسم اليهودى أن هذا السيف جاء خاماً من الهند وظل يجلوه شهراً كاملاً ثم نقعه فى سم الافاعى ثلاثة ليـال قمرية . . وتحسس الحارث بأصابعه نقوش الثعابين المحفورة على حافته وتمتم .

– سوف يعرف الجميع هذا السيف . . «ذى الحيات» .

وانصرفا واليهودى يلح عليهما فى كتمان السر . . نظرت إليه بنت عفزر . . لقد بقى عليه أن يفى بوعده لها . . قالت . .

– كما اتفقنا . . هذه الليلة لى ولتؤجل ثأرك للغد .

ومرة أخرى تأملها . . كأنه لم يكن يشعر بوجودها . . هى تهمس . . وتجذبه وطائر الصدى يرف فى صدره . . واشواك المهانة حول رأسه . . وللمرة الثانية دفعها دفعة قوية ألقت بها على الأرض وانطلق إلى حيث ينزل بنو عامر .

فى المنتصف خيمته . من الجلد الأحمر المدبوغ . والنيران خامدة . وبرد الحيرة تجمع فى دماء الحارث . . تحرك فى خفة القط . . ورفع الستر فرأى عتبة نـائماً . . تخطاه فرأى خالداً . . تنفتح أوداجه مع صوت التنفس . رفع سيفه . . لو أنه يملك أن يوجه له نصف الاهانات التى لاقاها بسببه . هوى بالسيف على الودج . شخر خالد كالذبيحة . انتفض جسده فى رجة عنيفة . . ولم يفتح عينيه . . عتبة هو الذى فتح عينيه مذعوراً . وقفـز الحارث نحوه امسك عنقه وهو يرفع السيف الذى يقطر دماً . . هتف به .

- أخبر الناس أنني قتلت خالداً . .

وضرب رأسه بمقبض السيف . . ثم فر خارجاً من الخيمة . . ومن الحيرة . . ومن كل بلاد المناذرة

الصحراء يا قلبى الطليق . . يا أمى . . يا خالاتى . . يا عماتى يا كل نساء الصحراء لقد أدركت ثأرى . قتلت خالداً . . ذلك الجزء القلق المعذب من نفسى . تزينت عباءتى بقطرات دمه وبللت ظمأ طائرى . . يا غطفان . يا عبس . . يا كل ذرات الرمل . . لقد قتلت وجهى الآخر . . فهل أنعم بلحظة من الحياة دون احساس بالعار . . ؟ . .

ومع أول خيوط الضوء سأل نفسه فى حيرة . . أين أذهب ؟ . سوف يطلبه بنو عامر لاقصى الأرض . ولن تهبه نساء قبيلته إلا أغاريد الفرح والاسرة الوثيرة . . إنه فى حاجة إلى رجال حقيقين . . يقفون معه . . وقرر أن يتوجه إلى غطفان . . ابناء عمومته . . لقد ظفر لهم أيضاً بثأرهم وسوف يصبح بهم سيد الصحراء .

لم يصدق الملك النعمان أن الحارث جرؤ على فعلها . . وحين رأى رأس خالد المقطوعة أدرك مدى الاهانة التى وجهت إليه . . لقد اعتدى على حرمته وحرمة مدينته . . وصرخ فى وفود العرب .

- الحارث طريدى . . وثأر خالد ثأرى . . ومن أجاره من العرب عدوى .

وجهزت بنو عامر خيولها . . واعطى الملك أوامره المشددة «للملحاء» أقوى كتائب جيشه وطار الخبر مع القوافل المسافرة . . ومع الرواة والصعاليك . . دم الحارث مباح . ودم مجيريه مهدد .

ووقف الحارث أمام غطفان . . كانت خيامهم ترتعد إذ تمسها ريح الصحراء . . ووقف أمام شيخ القبيلة عمه سنان بن أبى حارثة المرى . . لم يسمحوا له بالنزول . . ولا بالتزود بأى ماء أو طعام . . هتف مذهولاً

- لقد نلت ثأرى . . وثأركم

لكنهم كانوا يعرفون فداحة الخطأ الذى ارتكبه . . قال عمه . .

- لقد جررت علينا عداوة الملك . . ولا طاقة لنا به .

واختبأوا فى خيامهم المرتعدة . . وتخلوا عنه . وعاد جواده ينهب الأرض . . ما أقسى طرق الصحراء حين تتشابه والصدفة العمياء حين تقودنا للنجاة . . أو الموت .

وصل إلى تميم لم يدرك رئيسهم حاجب بن زرارة خطورته . . فاستضافه فقدم له اللبن والتمر وجلس يستمع إلى قصته . . ولم يلبث أن علت وجهه علامات القلق . .

وانسحب بقية وجوه القبيلة . . وأخذ حاجب يبحث في داخله عن مخرج من هذه الورطة .

وصل بنو عامر . . اسروا امرأة من بني تميم كانت تجمع الحطب . . وظلوا يصمطون عليها ويهددونها حتى أخبرتهم بمكان الحارث من بني تميم . وتوفزت سيوفهم للثأر كان الاحوص على رأسهم . . يعاني من ارتخاء جفنيه . . فإذا استعد للحرب عصبوا رأسه ليرفعها . . فإذا رأى لا يرحم . . . واستطاعت المرأة الهرب إلى قومها . وان تخبر حاجباً بأوصاف بني عامر الذين يقبلون بوجوه الظباء ويدبرون باعجاز النساء . واستدعى حاجب الحارث وسأله .

- هؤلاء بنو عامر قد أتوك فما أنت صانع . . ؟ .

أدرك الحارث إلى ماذا يرمى السؤال . لو أنه عازم على نصرته لما سأله .

أجاب في حذر . .

- ذاك إليك . . إن شئت اقمت فقاتلت القوم . . وإن شئت تنحيت .

وكما توقع قال حاجب في ارتياح .

- تنح عني غير ملوم .

وغضب الحارث فانطلق يهجوه شعراً . . وورد حاجب الهجاء . . وأوشكا على التشاجر وخيول بني عامر تقترب . . ولم يكن أمام الحارث إلا أن يهرب ولم يكن أمام حاجب إلا أن يخرج لهم ويرشدهم للطريق الذي هرب منه الحارث

وهجم الملك النعمان على غطفان لكن رئيسهم سنان حدد موقف قبيلته قائلا

- ابيت اللعن . . والله ماذمة الحارث لنا بذمة . . ولا جاره لنا بجار ولو أمنته ما أمناه .

وظل الحارث يمرق . . ينام ليلة ويسير أياماً متواصلة . وانتشرت الملحاء كالرعب الاسود بعرض الصحراء . . تهجم لمجرد الشك . . وتقتل عند أي شبهة . وانتشر على طريق مطاردته خط الموت والمقابر . . كل النجوم غادرة . . وكل علامات الطريق مضللة . . وطائر الصدى يغرس منقاره في الرمل . . لعل هناك مكاناً وحيداً آمناً ليلة واحدة بعيداً عن كوابيس المطاردة . . ذهب إلى كندة . فقالوا له . لا نجاة لك إلا في حضر موت . . ذهب إليها قالوا عليك بأرض بكر بن وائل . . سار جوعاً . . وسار عطشاً . . ووقف أمام رئيسهم زبان يحكي مرارة ثأره وعسر مطاردته ويمدح كرمه ووفاءه في قصيدة طويلة . . وأجاره الرجل . . لكن قومه اجتمعوا إليه . صاحوا على مسمع من الحارث :

- اخرج هذا المشئوم من بين أظهرنا حتى لا يعرضنا بشر . . لا طاقة لنا بالملحاء .

ورفض زبان أن يتخلى عنه . . خاصة بعد هذه القصيدة الجيدة . . واشتعلت نار الخلافات بين بطون القبيلة ذاتها . . وجنود الملك يقتربون . . وعاد يهرب من جديد . . تواصل الليل بالنهار . . لا راحة . . ولا سكينة . . واستطاعوا محاصرته فى أحد الجبال . . لكن سهامه ظلت تنهال عليهم . . فكلما هجموا على مكان اكتشفوا أن السهام تقتنصهم من مكان آخر . . وفى النهاية استطاع أن يفلت منهم وتركهم يرصون قتلاهم . .

مع كل هرب جديد . . كان غضب الملك يزداد . . كل انتصار يحققه الحارث يهز عرشه . . والأنباء تنتشر وسط قبائل العرب . . الحكايات والأشعار . . والملحاء تحولت إلى حفنة من الجنود البلهاء يطاردون الريح . . بدلاً من أن يترصدوا للحارث . . أصبح هو الذى يترصد لهم . . من طيىء إلى بكر . . ومن بكر إلى تميم . . ومن حضر موت إلى عروض اليمامة . . وبدأ شعراء الغساسنة يتندرون على عجز الملك النعمان . . وأرسل كسرى ملك الفرس يتساءل . . والحارث يسجل بالشعر كل لحظة يمر بها . . حتى أن الرواة نقلوا إلى الملك آخر ما قاله من أبيات الشعر .

بدأت بهذى ثم اثنى بمثلها . .
وبثالثة تبيض فيها المقادم . .
وصرخ الملك فى غضب . .
– ما يعنى بالثالثة غيرى . .

لقد أصبح الحارث هو الذى يهدد . . وزأر الملك فى غيظ . . لكن وزيره انحنى وهو يقول . .

– ابيت اللعن . . لا أراك تنال منه شيئاً أغيظ له من أخذ جاراته وسلب أموالهن .

وهدأ غضب الملك . . أمر جزءاً آخر من فرسان جيشه بالهجوم على هوزان ــ قبيلة النساء ــ أن يهدموا الخيام على رؤ وسهن . . إن يقتلوا العجائز ويأسروا الصبايا . . وفوجىء الحارث بأحد الصعاليك وهو يبرز أمامه ويهتف به .

– ماتت أمك . . قتلها جنود الملك النعمان . .

وبوغت الحارث . لم يتصور أن يلجأ الملك لهذه الدرجة من الانتقام . . إن الثأر هو علاقة دموية بين الرجال . . فلماذا تدفع النساء الثمن . . ؟ . .

لم يحزن . . يكفى كل أحزانه الماضية . . عليه الآن أن يرد الضربة . . سيذهب إلى الحيرة ليواجه الملك فى عقر داره . . ولن يساعده على ذلك إلا بنت عفرز .

عاد إليها . . ظلت ترقبه فى شك . . أدركت أنه يسعى خلف مقتلة أخرى . . لكنها صمتت . . وأخفته فى حجرتها . . وودت لو تخفيه فى قلبها .

هبط متنكراً إلى الأسواق . . كانت نظرات الحرس المتشككة تفحص الغرباء وتحيط سياج القصر . لم يستطيع الاقتراب . . وخرج الملك النعمان من القصر . . سار فى موكبه الاسبوعى عبر المدينة إلى قصره على النهر . . بلحيته الحمراء ووجهه الابرص . . ظل الحارث واقفاً يحدق فيه . . كان الأمر محتاجاً لنوبة مجنونة من الشجاعة ليقفز عليه ويأخذ ثار نسائه . . لكنه توقف عندما شاهد «شرحبيل» ابن النعمان . . ولده الصغير الذى يعده ليكون أقوى ملوك العرب . . كان يسير خلف أبيه . . يتطلع إلى الجميع بوجهه الغافل وهو يمص أصابعه . . وادرك الحارث إلى أين سيوجه ضربته .

وظل يترصد القصر . يرقب الداخلين والخارجين . . حتى شاهد الصبى وهو خارج بصحبة أحد العبيد . . ذهب إلى حافة النهر . . وظل الحارث رابضاً حتى ابتعد العبد قليلاً . . وهجم الحارث .

رقبة الولد فى يده . . لم يكن يشبه أباه . . كانت انفاسه تتحشرج . . وعيناه تبرزان . . دهشة ورعباً . . وظل يطعنه طعنة لابيه . . وطعنة لأمه . . وطعنة لأيام الطراد . . وصرخ العبد . . أخذ يهيل التراب على رأسه ويستنجد بالناس . . القى بجثة الصبى وقفز عليه . . وهتف فيه بشراسة .

- أخبر الملك . . أن الحارث قد أدرك ثأره . .

وانطلق هارباً للصحراء .

يا ملك الحيرة . . قتلت أمى فقتلت ابنك . . لا يلد الدم سوى الدم . . قتلت أيامى الماضية وقضيت أنا على أيامك القادمة . . دون أسف أو ندم . . وبيننا الصحراء . . فرصة النجاة . . أو مقبرة الرمل . . زهور الصبار جافة مثل قلب وحيد . . والطائر المعطشان مل طعم الدم وتاق للحظة من السلام . . لم تعد هناك جدوى فيما بقى بيننا من لحظات سوف نقضيها فى الهرب حتى يوقع أحدنا بالآخر .

يمرق الحارث بن ظالم عبر الصحراء . . الملوك لا يرحمون والسادة خائفون والقبائل متشابهة . . تتمسك بأهداب التقاليد وتتفاخر بالاكاذيب حتى يأتى وقت الخطر . . فتدفن رأسها فى الرمل . . والحارث شجرة بلا جذور . يلاحقه هلاك بنى عامر . . وثأر الملك المضاعف . . «وذو الحيات» هو صديقه الوحيد . . قضى على قبيلته . . وتبرأت منه غطفان . . وتنصلت تميم . . وأغلقت فى وجهه عروض اليمامة . . وتطاول عليه انصاف الرجال .

عمرو بن الاطانبه الخزرجى ملك الحجاز . . حين عرف أن خالداً قد قتل هتف فيمن حوله .

– والله لو لقى الحارث خالداً وهو يقظان لما نظر إليه . . ولكنه قتله نائماً . . ولو أتاني لعرف قدر نفسه .

ألقى هـذا التحدى فى وجـه الصحراء ولبس تـاجه ودعـا بقيـانـة يغنينـه الأشعـار الحماسية . . وبلغ الحارث هذا التحدى ولم يكن أمامه ما يخسره فسار إليه . . وصل إلى بنى الخزرج ووقف على باب خيمته وهتف بـه . . أيها الملك أغثنى فـإننى جار مغلوب عـلى أمرى . . وأجاب عمرو بصوت حماسى وخرج من خيمته شاهراً سيفه . . وهجم عليـه الحارث وهو يهتف به . . أنا الحارث بن ظالم جئتك وأنت يقظان . . وفوجىء الرجل . . واعتركا ملياً من الليل حتى خشى عمرو أن يقتل فهتف بالحارث . . يا حارث . . إنى شيخ كبير وانى تعتريني سنة من النوم . . فهـل لك فى تـأخير هـذا الأمر إلى الغـد ؟ . . قال الحارث . هيهات ومن لى بك فى الغد . . وتجاولا ساعة أخرى . . ثم ألقى عمرو الرمح من يده وهتف . . يا حارث . . ألم أخبرك أن النعاس يغلبنى قد سقط رمحى فاكفف . . وكف الحارث . . قال عمرو . . انظرنى إلى الغد . . قال . . لا أحفل . . قال . . فدعنى آخذ رمحى . . قال . . خذه . . قال عمرو . . أخشى أن تعجلنى أو تفتك بى إذا أردت أخذه . . قال الحارث . . وذمة آل ظالم لا أعاجلك ولا أفتك بك . . قال عمرو على الفور وذمة الاطانبة لا أخذه ولا أقاتلك .

وتوقف الحارث . . لم يجد بداً من الانصـراف تاركـاً الشيخ الاحمق يبتلع تحـدياتـه الجوفاء .

يمرق الحارث عبر الصحراء . كم مرة عبر ذات المكان وإستغاث بنفس القبائل . . كم مرة أثار رعب الأطفال والنساء وحنق المطاردين . . كان النعمان غاضباً لمقتل ابنه فظل يدفع الجيوش إلى الصحراء حتى امتلأت بهم كل الطرق والربوع . . ذهب الحارث إلى بنى دارم . . كان قد قابل رئيسهم «معبد» فى أحد الأسواق وتوثقت بينهما أواصر الصداقة . . وأجاره معبد رغم أنف قومه . . كانوا متشائمين من مقدم الحارث ومن جرهم إلى حرب لا نفع فيها . . وصمم معبد على رأيه . . وجاء بنو عامر والاحوص على رأسهم . . ولم يخرج مع معبد إلا القليل من قومه . . وكان الأمر الطبيعى هو أن يهزم ويؤخذ أسيراً . . وأرسله بنو عامر إلى رجل فى الطائف متخصص فى تعليب الأسرى ظل يقطعه أرباً حتى مات . . وعاود الحارث الهرب .

وصل إلى بلاد ربيعـة . . اصبح قـريباً من اليمن حيث يمكن أن يضيـع فى جبالها المتشابكة . أو ان يعبر البحر إلى الجانب الآخر من العالم . . لعله يجد هناك سلاماً أكثر وقبور أقل .

كان متعباً . . مليئاً بالجروح الصغيرة والأحلام الخائبة . . يسير فى أرض ليس بها أثر الحياة . . رمل . . وصخور . . وأشجار شوكية قصيرة ربط جواده ونام . حلم بوجه أمه . . وود لو يستطيع استحضار وجه أبيه فى الحلم . أحس بآلام شديدة تحز ذراعيه . ومد الملك النعمان يده ليقبض على عنقه . . ضاق صدره حتى عجز عن التنفس إستيقظ مفزعاً فوجد نفسه مقيداً . محاصراً بالوجوه الغريبة . . لقد وقع فى الفخ . . لم تمر لحظة ضعفه الوحيدة بسلام . صرخوا فيه .

– من أنت . . ؟ . .

أدهشه السؤال . . أنهم لا يعرفونه . . ليسوا من بنى عامر اذن . . ؟ . أو من اتباع الملك . . صمت . . ذكروا أنهم من بنى قيس . . رأوه نائماً فأخذوه أسيراً . لو تعرفوا عليه لطاروا به إلى الحيرة وأخذوا مكافأة النعمان الضخمة . . وهتف رئيسهم فى حنق

– ألا تريد أن تتكلم أيها الصعلوك . . ؟ . .

وأهوى عليه بلطمة هائلة . . زمجر الحارث . . جاءت اللحظة التى يلطم فيها ولا يجرؤ على الرد . . لقد رد لطمه خالد . . ولطمه الملك . . ولكنه يعجز أمام هذا الصعلوك من بنى قيس . . واجتمع عليه القوم . . يضربونه ويغزونه بأطراف الالسنة . . وكلما أصر على صمته . . ادركوا أهمية ما يخفيه .

هبط الليل فأوقدوا نارهم . . وجلسوا يتسامرون ويقطعون الوقت بتعذيبه . . ومحاولة حمله على الاعتراف باسمه ونسبه . . وزاد من غيظهم أنه لم يكن يحمل مالاً . ولا شيء يؤكل . وظل صامتاً . . وشجوا رأسه فإنسال الدم حتى أوشك أن يغلق عينيه . وأصابهم الملل منه أخيراً . . وتظاهر بأنه قد فقد وعيه فتركوه حتى انطفأت نارهم وعلا صوت تنفسهم . . وأخذ يتحرك فى حذر بالغ . يحرك ذراعيه وعضلاته المشدودة حتى استطاع التخلص من القيد . . كانت كل قطعة من جسده تؤلمه . . لكنه أخذ سيفه وجواده وود لو يستطيع أن يرد عليهم ما تلقاه من اهانات لكنه كان متعباً ووحيداً . .

جرى مبتعداً . . ودقت سنابك الخيل لتعلن خلاصة . . ولتوقظ أعدائه . نهضوا وأسرعوا إلى جيادهم . وانضموا إلى قائمة المطاردين . . واشرق الصبح وهو يعدو وانحدر الوادى، إلى مدينة هائلة . . يحوطها حصن كبير . . شهق فرحاً إنها اليمامة أخيراً . . لو يستطيع الوصول إلى خلف هذا السور

كان هناك عدد من الأطفال يلعبون . . هبط من فوق جواده وامسك الغلام الأول نظر إليه فى رعب وسأله عن اسمه . وقال الغلام . .

- أنا بجير بن ابجر العجلى . .

أمسكه الحارث وهتف به . .

- أنا لك جار . .

شعر الغلام بالزهو فإقتاده إلى داخل الحصن وخلفهما بقية الصبيان . . وذهبوا إلى الأب ابجر العجلى . . وقال الغلام .

- يا أبى . . لقد أجرت هذا الفارس . .

ووافق الأب على طلب ابنه الوحيد . . أعلن أن الفارس الذى لا يعرف اسمه ولا نسبه فى حماه . . وهتف الحارث .

- انهم يطاردوننى .

وأمر الرجل فاغلقوا باب الحصن . . ولم تمض دقائق إلا وأقبل القيسيون وأخذوا يزمجرون خارج السور وينادون على العجلى أن يرد لهم أسيرهم . . لكنه هتف .

- لو أخذ تموه قبل دخوله الحصن لاسلمته لكم . . فأما وقد إستجار بى فلا سبيل إليه .

صاحوا فى غضب .

- أسيرنا وما هو لك بجار ولا تعرفه . . إنما أتاك هارباً من أيدينا ونحن قومك وجيرتك .

وصمت العجلى . . كان موزعاً بين الوعد الذى قطعه للغريب . . وحقوق جيرانه عليه . . قال . .

- اما ان أسلمه إليكم فلا يكون ذلك . . ان شئتم اعطيته سلاحاً كاملاً وحملته على فرس وتركته حتى يقطع الوادى بينى وبينكم ثم دونكموه .

ووافق القوم . . ووافق الحارث أيضاً . . كان قد ألف الطراد والهرب . . وعرف أنه لا أمان فى حماية الآخرين . . حمد الله لأنهم حتى الآن لم يعرفوا اسمه وإلا استماتوا على جثته . . لبس سلاحه . وفتح باب الحصن . . وتطلع القيسيون إليه فى حنق . . شاعرين بالاهانة . هذا الفارس الوحيد قد وضعهم جميعاً فى موضع الاختيار . . وانطلق يعدوا . . من العبث ان تطارده القبائل والملوك ثم يقع فى قبضة حفنة من لصوص الخيل . . وحث جواده . . واقترب خط الوادى . . ثم سمع أصوات جيادهم وهى تعدو خلفه ورأى السهام تتطاير فاستدار بحركة مباغتة ورشقهم بدفعة من سهامه وترنح اثنان منهم وسقطا على الأرض . . واستدار يعدو . . ووقفوا هم وقد باغتتهم المفاجأة . . ونظروا إلى قتلاهم . . وبدا أن المطاردة هى نوع من أنواع الحماقة . .

مرة أخرى يترك نفسه للصدفة العمياء . . يعدو فتبرز أحدى القبائل فلا يعرف ماذا تحمل له . . السيف أم سعف النخل . . ها هي بيوت أخرى . . ونخيل وناس . . أين أنا من أرض الله . . ؟ . . جرى أحد الرعاة وهتف به .

- هل أنت مطارد . . ؟ . .

أومأ الحارث وسأله عن مكانه . . ورد الراعي وهو يتأمل وجه .

- أنت في بلاد بني قشير .

ثم هتف وهو يقفز من الفرح .

- إنه أنت . . نفس الأوصاف التي ذكرها الرواة . . أنت الحارث ابن ظالم المرى .

وانكر الحارث ذلك بشدة ولكن الأرض انشقت عن عشرات الرجال والأطفال . . يعدون إليه بسعف النخل . . والراعي يواصل الحديث اللاهث .

- كنا نعرف أنك هارب في عروض اليمامة . . وقد توقعنا ان تمرّ ببلادنا . .

استمع إلى كلماتهم . . ورأى سعف النخل ومظاهر الترحيب . . وتساءل . . أهو فخ جديد . . ؟ . . هتف به شيخ القبيلة أنهم أهله . . سوف يدفعون اعداءه . . فكر . . هل زاد الملك من المكافأة المرصودة . . انزلوه في خيمة كبيرة . . وذبحوا الذبائح تحت قدميه . . ورقصوا بالسيوف تحية له . . وهو جالس يفكر في مرارة . . حين يأتي جنود الملك سوف تتبدد هذه الفرحة كالفقاعات . . هتفوا به . .

- إحك لنا . . إرو اشعارك . .

حكى . . وروى الشعر . . أكل وشرب ونام . . واختلس لحظات المتعة المتاحة . . مادام لا مفر من الموت فليأخذ نصيبه من الراحة . . كان هربه قد قاد العرب إلى حربين كبيرتين . . ثم قاد هذا إلى يوم وقعت فيه كل القبائل في بعضها . . أصبح ثأره الفردي عاماً وشاملاً . . فوق كل البطون والعشائر . . كان متعباً فأكل وشرب ونام . . وتأمل وجوههم . . وفكر . . متى سوف يهمون بالتخلص منه . . واسترد جسده صحته وبرأ من كل جروحه الخارجية وبقيت الجروح التي لا ابراء منها .

ثم ان بني عامر جاءوا . . وحاصروا القبيلة . . اجتمع بنو قشير إليه وصاحوا . .

- سوف نحارب معك .

ودهش الحارث . . لقد كانوا صادقين ولم يتراجعوا . . انهم يريدون الحرب التي تخاذلت عنها تميم وغطفان رغم أنهم أقل قوة . . حرب بني عامر بالنسبة إليهم نوع من الانتحار . . لكنه خرج فخرجوا خلفه . . جهز سيفه ذا الحيات . . فأخرجوا سيوفهم . .

ودمدم بنو عامر فى غضب حين واجهوا الحارث أخيرا . . شاهد الاحوص وهو يرفع جفنيه ويتأمله . . ما أشبهه بخالد . . ماأشبه الجميع بخالد . صاح به .

– يا أحوص . . هذا ثأر بينى وبينك . . فلنتقاتل على أن يتراجع القومان إذا مات أحدنا ولا يقاتلا بغير طائل .

وكان الاحوص يكره الحارث حتى أنه وافق على الفور . . وتقدم اثنان من الفرسان فعصبا رأسه حتى لا ترتخى جفناه اثناء القتال . . وهتف الاحوص .

– ثأرى ولن يدركه غيرى .

كان كل منهما يحمل للآخر حقداً لا يهدأ . . لأن الحارث قد أطار بضربة واحدة كل مجد بنى عامر . . ولأن الاحوص جد فى المطاردة حتى لم تعد للحارث قبيلة أو أرض . ولأن كل ما بينهما تحول إلى أطلال . . ومقابر . ورماد . . كانا يضربان . . ويتواجهان . . وحين سقطت الخيول من التعب واصلا القتال على اقدامهما . . وأخيراً استطاع الحارث أن يمد ذؤابة السيف ويمس العصبة التى ترفع جفنى الاحوص . . فلم يعد يرى غير الظلام الدامس . . كان قد خسر . . واخترق السيف جنبه وشعر بوطأة الخزى أقسى من الألم . . انهزمت بنو عامر من جديد . . ظلوا مترددين . . هل يهاجمون دون زعيم . . أم ينسحبون ؟ .

ولم يتحد الحارث مشاعرهم . انسحب فى هدوء وتوارى بين صفوف بنى قشير وانتظروا قرارهم . . وعندما تقدم عدد من فرسانهم وحملوا جثة الأحوص عرف انهم قد قرروا الانسحاب مؤقتا على الأقل .

وهلل بنو قشير . أحس كل واحد منهم كأنه قد خاض معركة وكأنه انتصر بالفعل . لقد اصبحوا فجأة قبيلة قوية يردد رواة الانساب أخبارها . . كان الحارث حزيناً . انصرف بنو عامر وغدا سوف يأتى جنود الملك . وسوف تتحول سعادة الأطفال التى يشعر بها الجميع إلى مأساة لن يتنذر الرواة بأى شىء من خصالهم لأن الملحاء لن تبقى لهم أثر . لذا حسم أمره قائلاً .

– يجب أن أرحل عنكم .

ودهش شيخ القبيلة وهو يرفع فوق خيمته الرايات الملونة .

– ولكن . . لماذا تتركنا . . من ينصرك غيرنا . . ؟

كان الحارث يفكر فى مكة . فى الحرم الذى لا يهدر فيه دم . هل يمكن أن يصل إليه . . وأن ينجو . دون ذلك كل الطرق المراقبة وعيون الجواسيس وبطون القبائل

المتحالفة . . والملحاه . . لكن الاختيار كان قد حسم فى داخله . . أما أن يصل إلى مكة أو يموت على أبوابها .

وخرجوا يودعونه على دقات الدفوف وحرص الرواة على ترديد أشعاره أمامه ليتأكدوا من درجة الحفظ ودست الجوارى قوارير العطر فى متاعة ها هى الصحراء الواسعة مرة أخرى . ترك كل الطرق المألوفة . أصبح يحفظ الصحراء مثل كف يده . وأحسن جنوده الملك بما يحاول أن يفعله فأخذوا يضيقون عليه الخناق . . يحاولون محاصرته عند منافذ الجبال وفى بطون الوديان . . وكل يوم تتواتر اخباره . . شوهد الحارث بالقرب من غفار . . بالقرب من الطائف . . من يثرب . . ثم بالقرب من جبل مكة . يمرق فى الليل كحلم وفى النهار كحافة سكين . . يكتشف فجاجاً لا يعرفها أحد . ومكة راقدة بين جبالها العالية كحدقة العين وكلما سقط الحارث خرج من يمد له يد المعاونة . يعطيه طعاماً . . أو سهاماً . . أو حتى جوداً . . كانوا يريدونه أن يصل . . أن يحقق حلمهم فى أن يتغلب فرد واحد . . كانوا يريدون أن يجتازوا بـه خوفهم . . والملك النعمان يرتجف فوق عرشه ويصرخ .

– لا يجب أن يصل إلى مكة . . يجب الأ يفلت .

والحارث يكسب كل يوم شبراً من أرضه المحرمة . شبراً من حياته . يتقدم ويدوم وتنهمر عليه السهام كالمطر وتنصب له الفخاخ . وأخيراً . . إستطاع ذات ليلة مقمرة أن يستدير وأن يهبط من منحدر وعر إلى مكة بعد أن تمزقت يداه . . وسار يترنح إلى الحرم . . وأصبح بعيداً عن مخالب الملك .

وفى الصباح فوجىء أهل مكة بالحارث جريحاً متعباً متشبثا بأستار الكعبة . . لقد انتصر . . الآن يستطيع النوم والزواج والحياة . يستطيع أن ينجب ولداً وان يمد جذوره فى الأرض . . ولكن هل ينساه الملك . . وهل تهدأ بنو عامر . . ؟ . . ومرت الأيام ولكن ما أغرب أن تكون انساناً عادياً . . تمارس حياتك وسط اناس عاديين . . إنحصر الحارث فى وادى القرى الضيق . . لا يخرج منه ولا يتخطاه . . لا يمضى مع قافلة ولا يشترك فى سوق . ولا يعرض نفسه لمواسم الحجيج . هل يمكن أن يطوع نفسه لهذا الأمان الخانق . . يبقى ويأكل ويسمن . . وترتخى عضلاته . . ويتساقط الريش من أجنحة طائر الصدى . . وعندما زوجوه اكتشف أنه لم يكن يريد هذه الزوجة . . ولا هذه الحياة . . مرت بنت غفرز بذاكرته كلسع اللهب . . كان فراش الزوجية بارداً قاحلاً . . والحارث يمضغ طعام الملل اليومى .

ومن الشمال جاءت أنباء غريبة . . لقد عفا الملك النعمان . . من يصدق هذا . . ؟ ارتدت جيوشه خائبة . . واستكانت عامر . . وأصبح الحارث اسطورة . . ولم يكن

النعمان ليجرؤ على معاداة الاسطورة . . وجاء شيوخ القبائل ووجوه العرب من ربيعة ومضر واليمن . . كلهم يحملون نفس الانباء وتأكيدات الملك . . لقد أصبح آمناً . . بطلاً

أهذا فخ جديد . . ؟ .

وجاء سنان بن أبي حارثة المرى ــ عمه الذى تخلى عنه ــ جاء يسعى قائلاً . .

– ها هو كتاب الملك بالعفو عنك . . لقد نلت ثأرك ورفعت رؤ وسنا . .

واستمع الحارث إلى كلماته في هدوء . . كيف تبدل كل شيء إلى هذه الدرجة . . فتح كتاب الملك . . كانت كلماته عفواً صريحاً وتعهداً بالأمان ودعوة لزيارة الحيرة . .

حدق الحارث فى عمه طويلاً وهو يتمتم حائراً .

– هل الملك صادق . . ؟ .

هتف كل شيوخ القبائل .

– لقد وعد والملك لا يغدر ونحن ضامنون لك صدق وعده . .

وصمت الحارث ثم سأل عمه فى صوت خافت :

– هناك مغنية فى الحيرة اسمها بنت عفرز . . هل هى موجودة ؟ .

– أجل . . إنها مازالت تغنى .

والتف الحارث حول نفسه وعاود الصمت . . هل تصدق وعود الملك . . ؟ . . هذا ختمه وشارته وهذه كلماته . تأمل لحى شيوخ القبائل . والتجاعيد فى وجه عمه . . وشوق الرحيل الممض فى أعماقه . . وشوقه إلى بنت عفرز . كل هذا جعله لا ينام ليلاً ولا يأكل نهاراً .

وعندما قرر الرحيل امتدت الصحراء مثل جسد رخو لم يعد فيه ما يثير الرعشة . . مر على القبائل التى تبرأت منه قديماً . . أصبحت الآن ترفع له سعف النخل والرايات . . ذهب إلى قبيلته فوجد الحياة قد عادت والأطفال يجاهدون لأخراج الماء من الآبار . وواصل السير فرأى الطيور الجارحة فى السماء . . والآبار المسمومة فى الأرض . . لكن وعد الأمان المكتوب كان فى جيبه

وعلى باب الحيرة تأمله الحراس قليلاً ثم سمحوا له بالدخول . . كان سيفه ذو الحيات حول وسطه . . ولم يره أحد . . أو لعلهم تجاهلوه . . بدت الشوارع ضيقة . مليئة بالمتسولين والأطفال الهزالى . . والبيوت واطئة تشبه الزنازين . . وفى الليل سار إلى حانة بنت عفرز . . حيث يختلط العطر والدخان وصوتها .

فاسقى بجيراً من رحيق مدامة . .
وأسقى الخفير وطهرى أثوابه . .

كانت تغنى من أشعاره . . وحين التفت وجدته جالساً أمامها . . مثل أمنية عزيزة المنال . . اقتربت ولمسته . . تأكدت أنها لا تحلم . . كان هو أيضاً لا يحلم

قال لها . .
– فى الغد سوف أذهب لمقابلة الملك النعمان . . ثم أعود لنبقى معاً .
هتفت فى لوعة . .
– سوف يغدر بك . . لا تذهب .

– الملك لا يرحم . . لكنه لا يغدر . . لقد عفا عنى وكتابه فى جيبى . .
توسلت إليه من خلال دموعها . .
– لا تذهب . . لنهرب سوياً إلى أرض الغساسنة . .

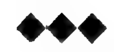
كان الحارث قد هرب كفايته . . وحزن كفايته . . وامتلأ جسده بكل أنواع الجروح . . هتف . .
– يجب أن أذهب إليه . .

وجاء الصباح . . طائر أبيض الجناحين كسيح . . سار الحارث إلى القصر . قال للحاجب : إستأذن لى . . والناس عند النعمان متوفرون . . كل شيوخ القبائل الذين حملوا وعد الأمان . . قال النعمان للحارس : ائذن له وخذ سيفه . قال له الحارس : ضع سيفك وأدخل . . قال الحارث فى بلاهة . . ولم أضعه ؟ . . قال الحارس . . ضعه فلا بأس عليك . . وظل يلح عليه حتى وضعه ودخل ومعه الأمان . . انحنى أمام الملك انحناءة خفيفة وهو يقول : أنعم صباحاً أبيت اللعن . . قال النعمان : لا أنعم الله صباحك . . قال الحارث : هذا كتابك !! . . قال : كتابى والله ما أنكره . . لكنك غدرت بى مراراً فلا ضير أن غدرت بك مرة .

ساد الصمت . . وارتجف شيوخ القبائل . . وظل الحارث واقفاً . . واحداً . . كما تعود أن يكون . . واحضر الحارس سيفه ذا الحيات ووضعه تحت قدمى الملك . . وهتف النعمان : من يقتل هذا . . ؟ . . فقام ابن خمس التغلبى وكان الحارث قد قتل أباه . . قال : أنا أقتله . . والتفت الحارث إليه يسأله : من أنت ؟ . . قال . . ابن خمس التغلبى . . همهم الحارث متهكماً . أنت تقتلنى يا بن شر الأظماء . ورد ابن الخمس . . أجل . يا بن شر الأسماء وتدحرجت رأس الحارث . . ببساطة آسرة ومفزعه تحت قدمى الملك . . بنفس السيف الذى دافع طويلاً عنها . . وكانت يده ما تزال ممسكة برقعة الأمان . . ونقلوا جثته ليمثلوا بها . لكن بنت غفزر أعطت للحارس كيساً من الذهب

وأخذتها .. حيث دفنتها فى مقبرة لا يعرف طريقها إلا هى .. والذئاب .. ووقف ابن خمس فى سوق عكاظ وهو يهتف .

ــ هذا سيف الحارث بن ظالم المرى .. من يشتريه ..؟ .. وتأمل الجميع السيف فى يده .. والحيات المرسومة على مقبضه . وانكسروا فى حزن .. كيف جرؤ على فعل هذا إن يستسلم . ويقدم رقبته دون ثمن .. دون أى ثمن ..؟ .. كيف . !!



تـأبـط شـراً

الذين يموتون وهم وقوف

اسمه الحقيقى ثابت . لا يوجد له نسب معروف . الأرض الصحراوية القاسية ترفض جذوره وأبوه جابر بن سيفيان ينكر بنوته . وقبيلته من بنى العقيق لم تحسبه عليها . . لكنه يستمد نسبه من جذور بعيدة . من كل الطرداء والملفوظين والباحثين عن العدل المستحيل . ومن المجرمين الشرفاء الذين يقيمون قوانينهم الخاصة حيث اللا قانون . رفاقه هم أوباش الجزيرة العربية وصعاليكها والهاربين من فداحة الثأر والحيوانات الضارية ونسور القمم والجمال المبعدة المطلية بالقار . يضمهم جميعاً حضن الفيافى الوعرة ،لحظات الحرب الدائمة . .

حدثتنى الكائنات قالت :

قالت الثعابين : طلبت منه أمه العجوز هدية مثلما يفعل بقية أخوته فحملنا تحت أبطه وألقانا تحت قدميها . فزعت المرأة وهرعت للخارج تستنجد بالجيران . وقال الجميع : لقد تأبط ثابت شراً . وظل الاسم يلاحقه . قالت الغول : هذا الوغد الكالح الوجه طلب أن يعاشرنى . . تقابلنا فى وادى رحى طحان بأرض هذيل ودار الصراع بيننا ثلاثة أيام وثلاث ليالى ولم يهزم أحدنا الآخر . تنكرت فى هيئة خروف صغير فحملنى تحت أبطيه . جعلت أركله طوال الطريق حتى القافى . وقال من شاهده : لقد تأبط شراً . وقال الشيطان : كان ثابت رفيقى وصاحبى . كنا لا نمل من السير سوياً . نتحدث عن النساء الجميلات . والتجار اللصوص الذين يعجبوننى . وذات يوم وصلنا إلى مكان قفر تضع الطيور فيه بيضها على الأرض . قال ثابت : لقد هلكنا هذا المكان لم يمر به بشر من قبل لو كان البشر يعرفون طريقه ما وضعت الطيور بيضها على الأرض . قال الشيطان . وصعدنا كل واحد منا على جبل . رأيت الموت فالحتُ إلى ثابت بالسيف .. ورأى هو الحياة فألاح إلى

بالثوب . وافترقنا . لكننى تركت شرى معه . كلما نضح عرق إبطيه . نضح شرى . قالت الرمال : كنا نرتجف تحت وقع أقدامه . وقالت الخيول : كنا نلهث خلف عدوه . وقالت الطيور : كنا نخشى حدة سهامه . وقالت الظباء . كنا نتقى لحظة جوعه . كان إذا جاع يجول بعينيه حتى ينتقى أسمن ظبية فينا ثم ينطلق خلفها . حينئذ ندرك أنه لا مهرب . أنه لابد لاحق بها . وسرعان ما نشاهد رفيقتنا وقد سقطت تعباً بيننا ينقض هو عليها كأن لم يجر قط . . وعندما تحمل الريح رائحة الشواء الرهيبة نتساءل فى حسرة . . متى يأتى دورنا . . ؟ . . ليتنا لا نسمن أبداً : قالت الينابيع العذبة . انى اتقزز من ملمس جسده الخشن . وقالت الفراشات : انفاسه تحرق أجنحتنا . وقال النمل : أننا نحاذر أن نمشى وهو نائم لئلا يسمع دبيب أقدامنا . وقالت حية : نام تأبط شرا ذات ليلة فوق حجرى فتجمدت رعباً حتى الصباح . . وحدثتنى كائنات كثيرة لكننى وجدت الخرافة تسود معظم الاحاديث فاستبعدتها . .

حدثنى تأبط شراً قال :

ماذا أفعل ؟ . . الصخور قبيلتى والرمل منفاى . حلمت مرة بالافق فأخذت أعدو إليه . اجتزت القوافل والخيول وكل صنوف الحيوانات . . لكننى سقطت لاهثاً وظل الافق بعيداً . .

ماذا أفعل ؟ . . مات أخى وحلت بالثار . ولم أكن ثرياً فيخشون مالى أو ذا عشيرة فيهابون سطوتى . عرفت مبكراً أن زهر الصبار موحش والذئاب جائعة والآبار جافة . ظللت اهيم على وجهى . كل القبائل قبائلى . وكل القبائل أعدائى . حين يمضنى الجوع اغير عليهم لأنهم قبائلى . ويطاردوننى بالسهام والرماح يبغون قتلى . . لأنهم أعدائى . يكمنون لى وراء الأكمة وحواف العيون . يسكنون عن الحركة ويكتمون انفاسهم . لكننى أضع أذنى على الرمل فأسمع وجيب قلوبهم . والخفقات المترددة ترصدنى . لا أملك إلا الفرار وأنا أتساءل . . لماذا لا أسمع وجيب قلبى كأنه لم يخفق أبداً . . ؟ . . نسيت قبر أخى . دفنت أمى وأنا فى الطراد . وقلت للنسور رافقينى فازدرتنى ونأت مرتفعة .

ماذا أفعل ؟ . . أحلت القبائل دمى وأباحت شعرى . كنت أنا الشر وكان شعرى التعويذة . كنت الأذى وكنت الرقية . عشقتنى النساء ووضعن على الوسائد رأسى فى احلامهن لكن ما من واحدة تحملت لسعتى . قابلنى أعرابى . . قال : كيف تخيف الناس ؟ . . قلت : بأن اذكر اسمى أمامهم . قال . فقط ؟ . . قلت : فقط . قال : هل تبيعنى اسمك وتأخذ طيلسانى . وقد كان . أخذت الطيلسان الفاخر ومضيت . وأخذ الاعرابى يزعق فى وجوه الناس . أنا تأبط شراً . ولم تمهله السهام المترصدة أن يتم الثانية !

ماذا أفعل ؟ . . الاصدقاء حمقى والاعداء اذكياء . وهذا يضاعف من وحدتي ومن حدة المطاردة . من قال أنني لا أتقي بيتاً أو أسرة . لكنها الانساب التي لا ترحم والتجار الذين يتاجرون في الاجساد الحية ، والجوع الذي لا مأوى له ولا وطن . .

حدثتني جثث الاصدقاء القتلى :

الآن ننهض من قبورنا . ننزع الكفن وخيوط العنكبوت . هذا تأبط شراً يعدو فوق ثرى اجسادنا . وقع أقدامه له نفس وقع لهجته وهو يحدثنا ويغرينا . كنا أصدقاءه ورفاق شدته . نعاني جميعاً من الأحلام المجهضة . وعندما تبعناه لمرابض الخيول وأوتاد الجمال كنا نقتنص حقنا الطبيعي في الحياة . لكن الفخاخ كانت منصوبة والرماح مشرعة . والخيل متوفزة . صاح : اهربوا . فروا . وحاصرتنا الخيل . كان هو أكثرنا سرعة وأمهرنا حيلة . اجتاز التل والشعاب المتوحشة وتساقطنا نحن صرعى . كنا رفاق احلامه وغاراته لكنه فر وحيداً . . أهو العدل حلم فردي ؟ . . ألا يوجد حلم جماعي بالمساواة . هل كان يحبنا . أم يحب نفسه . أم يحب العدل ؟ . . يا رفاق الموت انهضوا . الشمس لا تشرق من القبور . والصبار غير مستساغ الطعم والماء آسن والعظام نخرة والعناكب موحشة والديدان شرهة وشواهد القبور صلبة . وأنت تعدو وحيداً . نقولها لك يا تأبط شراً . . لا أمل . . لا أمل . .

حدثتني جاريته قالت :

قالت صاحباتي ، وقالت كل جواري الحي . . أنه يهواني . . إنني الشعر الذي يقوله في اليقظة والحلم الذي يهرف به في النوم . قلن . إن له قلب طفل وعين نسر وساقي غزال وأن لا أحد يقدر على صرعة إلا عيون الحسان . . خشيت على نفسي من غرام هذا الرجل المفرد . . وفرحت لأن غرامه بي جعلني أنا أيضاً مفردة . . قالوا لي .قابليه فرفضت. وظللت أرفض ذلك بشدة حتى قابلته .

كانت عين الماء ساكنة ولا أحد يرانا . نظرت إلى وجهه الداكن ولحيته الشعثاء ونظرة عينيه المتألقة فوجب قلبي . هذا الآدمي الغريب يهواني . . تمنيت أن يتكلم . يخدش السكون بأي حرف . ظل صامتاً . تساءلت : هل سيغدر بي . . هل سيفضحني ؟ . . كان يعاني حتى يتكلم . رأيت حمرة خفيفة تتسلل خلال وجهه الداكن وتغمره كله . . فهمت كل شيء . . كان خجلاً . والخجل أعجزه عن الكلام . . كدت أضحك بصوت

عال . . لم يكن هذا أول من عرفت من الرجال . . لكنه الوحيد الذى صعق بمرآى هكذا . ولو أننى ضحكت لزاد خجله وفر هارباً .

كان كالحيوان الحرون . حاولت ترويضه . قلت . انشدنى شيئاً من الشعر الذى قلته فى ؟ . . لم يتكلم . قلت . . ماذا تريد منى ؟ . . فعلت ذلك فى صوت ذائب النبرات . . لكن صوتى لطمه فظل يحلق فى مذهولاً . امسكت يده فوجدتها ترتجف . . لا فائدة . . البطل الذى دوخ كل القبائل داخ من نظرة واحدة . تركته ومضيت . .

مهما كان الأمر فإننا نحتاج من الرجل إلى شيء من الجرأة .

حوار لم يتم :

- يا تأبط شراً . . هل أنت مجرم . . ؟ . .

- ولم لا يسأل أحد لماذا تبدو شمس الصحراء بهذه القسوة . . والأرض بمثل هذا الجفاف والعصبيات بهذا الوثوق . أننى جزء من طبيعة هذه البيئة الشرسة عارس قوانين العرف السائد . يأتى الليل علينا إما أن نُقتل . أو نَقتل . لا نستند لقانون مكتوب . الأقوى هو الأكثر تنافساً والأضعف هو الاستثناء وسرعان ما يلفظ دون رحمة . .

- لكنك مجرد فرد . . بصورة أخرى مجرد إرهابى . . إن القبائل حين تتصارع تحكمها قوانين الحرب . . لكنك لست من قبيلة وليست لك أرض ؟ .

- أنا وحدى قبيلة . اعدو أسرع من خيولهم مجتمعة وسمعى أرهف من كل آذانهم . وساعدى أمهر فى رمى السهام من كل رماتهم وحيث أحل تكون أرضى وعليهم أن يغيروا عليها أنا لا أخرج عن قوانين الرمال لو شاهدونى نائماً لما عبروا لكنى أنام كالذئب مفتوح العينين . وهم يغمضون عيونهم ويطفئون نارهم وهذا يحل عليهم عقاب الظلام .

- لكنك بالغ القسوة أنت تقتل حتى الأطفال ؟

- أنا أحب الأطفال أنهم الشىء الأخضر الوحيد وسط هذا القفر أحب أن يكون لى أسرة لكنى وجدت الأزواج طيبين والآباء خائفين الأطفال هم ثمنهم يجعلوننا لا نتمادى فى المغامرة ولا نلحف فى الرفض إننا نتشكل من أجلهم مع العرف السائد ونفقد فرديتنا وتمايزنا لكنى أحبهم ذات مرة رأيت طفلاً بارعاً يصطاد الأرانب أردت مداعبته فصوب القوس على ظهر ناقتى فأدماها أخطأت منه فقتلته لكنى ندمت

بعد ذلك . ادركت أنني دنست الصحراء وأن نهايتي قد حانت . حلمت به كثيراً . ورأيت صورته تلامق عدوى . كنت موقنا ان ما فعلته لا يغتفر وأن على أن أتحمل العقاب .

- رغم ذلك فأنت شاعر . . ؟ . .

- الشعر هو درعى . وهو خيمتى احتفظ بها فى صدرى . أفرشها على الرمل فتكون أرضى . أرتجل القصيدة فتفجر عيون المياه ويعشوشب الرمل . القوافى قبيلتى . حروفى منحوتة من الشظف . وصورى ملأى بالرعب والخشونة . إنه الثمن الطبيعى لارتفاعى فوق قوانينهم . إن جلوسهم فى البيوت المريحة جعل منهم مجرد رواة يرددون الكلام الطيب ويهزون رؤوسهم فى بلاهة . إنهم أمام شعرى يتحولون إلى عشب مهمل ينتظر الحصاد . . أو رؤوس ماشية تنتظر الوباء . .

- إذا قبضوا عليك هل تعتقد أن القتل هو الجزاء المناسب ؟ . .

- لو أنهم تركونى دون قتل لعاقبتهم جزاء غفلتهم . لا يجب أن يرحم احدنا الآخر . قد تكون حياتى قصيرة لكننى سأعيش . لا أحد يستطيع أن يقتل حلماً أو يغتال قطعه من السحاب . ان الآلف المعذبين يحفظون أخبارى ويتسقطون شعرى . . ولو مت سوف يخرج من بينهم واحد جديد . .

- كيف ستموت يا تأبط شراً . . ؟ . .

- ان ميتتى غريبة . بل ومثيرة للسخرية . . لعل هناك ضعفا كان كامناً فىّ لم افطن إليه إلا مؤخراً . . وأنا فى القبر . .

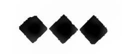
حدثنى أحد الغلمان قال :

اختبأت وراء سياج من العشب وأنا أشاهد تأبط شراً يغير على قومى . . كنا أشبه بالعزل وهو كالريح الهوجاء . . وأنا غلام لم يتعد سنى الخامسة عشر لا أرمى السهام إلا على الارانب . اصيب واحداً ، واخطىء عشرة . . لكننى اخذت قوسى وسهمى واختبأت . .

كان الرجل الداكن يشد وتره فيشق قلب قومى من الرعب . أبى وأمى وأخوتى ورفاقى . كل الرجال الذين أعرفهم يتدافعون كالمجانين يبحثون عبثاً عن خيولهم أو سيوفهم والرجل الداكن يجذب الوتر ويقيم بينه وبينهم حاجزاً من الجثث . .

رأيت واحداً من أصحابى يموت . صرخت . سمع صرختى التفت . رآنى . تفحصنى بعينيه النافذتين . أدركت أنه سوف يقتلنى هذه اللحظة . لكنه بدأ مدهوشاً وهو يتأملنى . أنزل يده المشرعة بالقوس . خيل لى أنه يبتسم . كنت أكره هذه الابتسامة .

وضعت السهم فى قوسى وهو مازال يتأملنى . أطلقته عليه وهو مدهـوش خيل لى أن السهم يرتد إذ يلامسه . لكنه نفذ فى كتفه اليسرى . بوغت . لم يتوقع أن أفعل هذا فكرت . سوف يـرد على . لم يفعـل . وضعت سهمى الثانى وأرسلته فغاص فى كتفـه اليمنى . ظل واقفاً . حاول رفع ذراعيه للرد على لكنه كان قد تأخر . والابتسامة على وجهه كما هى . ارسلت السهم الثالث فغاص فى صدره . كنت مندهشاً من دقة تصويبى . رأيت قومى يقبلون من الخلف فى حذر . وهو واقف أمامى حتى ظننته يلعب لعبة ما . وأن سهامى وهما . أطلقت السهم الرابع فغاص فى بطنه . ظل واقفاً قلت . سوف يقبل ويقتلنى . اطلقت الخامس على فخذه الأيسر والسادس على فخـذه الأيمن وظل واقفـاً . أطلقت . أطلقت على وجهه وعلى عضديه وعلى حوصه وعلى قدميه وظل واقفاً . قال لى أبى قديماً أن أحد العرافين المهرة شـاهد أثـره وقال هـذا لا يقدر عليه أحد . أيعـرف أننى مازلت طفلاً ؟ وأن اللعبة أكبر منى . أننى أطلق سهامى بعناد وهو لا يأبه بذلك . فرغت جعبتى أصبحت بلا حول . بدأ يتحرك يقبل على . بطيئاً . بطيئاً . يمد ذراعيه المرشقتين بالسهام . وقمت أنا متصلباً . مشلولاً . لا أستطيع الفرار . . وفجأة هرى للأرض . . وأدركت أن البريق الذى كان يتوهج فى عينيه . قد انطفأ . .



عروة بن الورد
من يملك الكون الرحب . . ؟

وقف عروة بن الورد على حافة الصحراء رأى التلال كالحيوانات الرابضة والنحل أذرعاً متوسلة . ومضارب الخيام مثل حبب الماء ومثل السراب . مد قبضته والقى آخر ما فى جعبته من سهام . وآخر ما فى كيسه من نقود . وآخر ما فى قربته من قطرات الماء . فإنشق الرمل عن زهور برية رائعة الألوان وساتات شيطانية وعشب نصر الخضرة

قال أبو الفرج الاصفهانى متوسلاً
– تمهل قليلاً يا عروة . حتى اكتب قصة حياتك

لكنها سنوات الجوع واشعار الفخر والانتساب لا تشبع جائعاً ولا تشفى مريضاً «وعطفان» مثل كل القبائل ــ ومثل كل البشر ــ فيها الجوعى وفيها المتخمون . ولكى تكون القسمة عادلة لابد من جراحة بالسيف والشعر دم القلب . تحمل أبياته كل العذابات وكل التوق الانسانى للحب والتواصل

أخرج أبو الفرج أوراقه . وضع ريشته فى المحبرة . قال :
– اجلس قليلاً اذكر نسبك وقص على أخبارك أنت لست مسئولاً عن كل هموم الصحراء . .

الصحراء فى الصدر . ذنب وتعويذه . الصعاليك هم نباتات الصبار بين محاجها . عنـدما يـظهرون يصحـون قبيلتـه . ويصبحـون نسبـه . ويصبـح هـو مجرد عـروة الصعاليك .

تمهّل بالجواد قليلاً . . أخذ يتكلم بينها أبو الفرج يدون بسرعة :
- أنا عروة بن الورد بن عمرو بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن غطفان بن مضر بن نزار . .

وقبل أن يتم سلسلة الانساب . تعالت من خلف التلال المحيطة بها أصوات الاستغاثة . خرجت جموع من الناس . فقراء ومرضى وشيوخ وأرامل وأطفال يتامى . . اسمال رثه وعيون غائرة . . زعقوا بصوت واحد :

- يا عروة . . يا أبا الصعاليك أغثنا . . .

لم يسألهم ماذا ألم بهم ؟ . . كان يعرف رائحة الجوع حين تتكاثف وتختلط بالعرق الاسان والرمل وشمس الصحراء القاسية . . حين تصبح سحابة قاحلة . . يعرف بريق العيون والتوهج الأخير قبل الإنطفاء . والأطفال يزمون أفواههم وقد عجزوا عن ترف البكاء والإلحاح . هذه نذر سنوات الجوع والصحراء لا ترحم الضعيف . . قال لهم :

- تعالوا معى . .
تحركت قبيلته البائسة خلفه . ذهبوا لواد منعزل . أحضروا سعف النخل والجريد واقاموا أكواخاً صغيرة للمرضى والنساء . تفرس عروة فى الباقين الذين لم يهدهم الجوع ؛ كان عليهم أن يواجهوا معاً مصيرهم . . أصدر أوامره . .

- هيا معى . سوف نغزوا سويا . .
والصحراء الممتدة تحمل وعود الشبع ونذر الموت . ولا يوجد بين التلال المتراصة إلا طريق واحد يختاره البشر والضباع . حتى أن عروة يحس بنفس حدة الجوع التى يحسون بها . ينزع قشرة السيادة ويرتعد الصعلوك الرابض فى داخله من النشوة . إن ثمة خطأ فى التقسيم . وعليه كل حين من الزمن أن يعيد الأمور إلى نصابها . وفق قانون المباغتة الذى لا تعترف الصحراء إلا به . .

ومثلما كان عروة يشم رائحة الجوع . إشتم رائحة التخمة . خلف التلال كانت هناك قبيلة نائمة . ونار مطفأة . وأبل تجتر شمس النهار الفائت . زعق فيهم . اهجموا ياكل فقراء البادية . ياكل الصعاليك . . وبكل شراسة الجوع . بكل غريزة البقاء هجموا . فوجىء سادة الابل — الذين كانوا يعانون من كوابيس سوء الهضم — بالهجوم ، استيقظوا فزعين . هربوا وهم يهزون كروشهم . وتركوا الأبل غنيمة سهلة . لمحوا عروة ؛ بريق سيفه وشارة عمامته وهو يصول فوق جواده . يصرع من يتعرض له .

سألوه نفس السؤال :
- يا عروة . . أنت سيد مثلنا . . كيف تساعد الصعاليك على نهبنا ؟ . .

لم يرد عروة عليهم . لن يفهموا الاجابة أبدا كانت سيوف الجوعى لا تنتظر

عادوا بالغنائم . حيث المرضى والشيوخ والنساء . أوقدوا نار الفرح العظيمة . وعروة يقسم الغنائم . كل واحد له نصيبه حتى الشيوخ والمرضى . انقشعت رائحة الجوع الثقيلة . وتلونت ألسنة اللهيب بقطرات الدهن المتساقط من الشواء . وإنتعش الليل بأغنيات الحب . . وهز عروة رأسه فى سعادة وهو يقول لأبى الفرج :

- عندما أشاهد نارهم أرحل فى الحلم . أغنياتهم التلقائية البسيطة توقد داخلى كل جدوات الشعر وكل الصبابات القديمة . .

هتف أبو الفرج معترضاً :

- لكن ما أكثر الفقراء وما أكثر الأوغاد فيهم . إن شرور العالم لن تنهيها غزواتك الفاحشة . . والمحدودة . .

- إن علينا أن نحاول فقط . لا نيأس ولا نستسلم . هكذا تحتم علينا شهوة الحياة العارمة . نيرانها تتقد بداخله أشد سطوعاً من نيران القبائل الكبيرة . يمتص وحشة الصحراء وضراوتها ويحولها إلى شعر متألق . ويزرع شوقاً لا يهدأ فى صدور النساء . . الصعلوك لا يمتلك شيئاً لذا لا تتأثره شهوات التملك . ولا تؤرق ليله أحلام الأنانية . توحده الصعلكة مع ريح الفجر وحداء القوافل وهمسات العشاق على حواف العيون . . حتى أنه يهب كل ما يملك . . يهب . . يهب . . ويهب . . ولا يظفر إلا بشهوة الحياة المتدفقة . .

يبلل أبو الفرج أطراف ريشته ويكتب :

- من قال أن حاتم الطائى أكرم الناس فقد ظلم عروة بن الورد .

لكنه ذات مرة حاول أن يمتلك . أمنية . قطعة من السحب . يمتلك زوجة وبيتاًوأطفالاً فى إحدى المرات أغار على قبيلة «مزينة» . فاجأتهم الطلمة بصرخات الجوع تركوا إبلهم ونساءهم وفروا أقبل الصعاليك على الغنائم . وقف عروة أمام امرأة وحيدة فى خيمة منفردة رأى عينيها الواسعتين . عينا المها الشاردة ووجهها الوديع واسدال شعرها تحت الخمار :

- ما اسمك ؟ .

قالت : سلمى . .

سارت خلفه أسيرة . لم تقاومه . لكنها ظلت مترفعة لم تنحدر إلى مستوى السبى وكلما التفت إليها رمقته بنفس العينين المتوثبتين دون أن توليه أى اهتمام .

جلسوا يقتسمون الغنائم . قسموا الابل والثياب والجواهر . قال عروة . هذه المرأة

لى . وفوجىء بالصعاليك يقولون . . كلا . بل تقسم مثل غيرها من المتاع ومن شاء أخذها فليأخذها . وذهل عروة .

هتف أبو الفرج فى حنق مبالغ :

– ألم أقل لك . . إنهم أوغاد . . لماذا لم تهو عليهم بسيفك ؟ . .

مد عروة يده وأمسك سيفه . تأمل وجوههم التى كانت تتقلص من الجوع وأصبحت الآن تتقلص من الطمع . تذكر أنهم صنيعته . هو الذى جمعهم وصنع منهم قبيلته الصغيرة أدرك فيما يشبه لمحة البرق أنه قد وقع فى خطئه الأول . إن رغبة التملك قادته إلى ذلك إما أن تمتلك أو تكون صعلوكاً . . قال :

– هأناذ أتركها لمن يريد وإن شئتم إفديتها بناقتى

وتسربت المرارة خلال نبرات صوته . ولابد أن الصعاليك قد شعروا بهذا أيضاً ؛ أخذوا الناقة وتركوه والمرأة . وحيدين فى الصحراء . مد يده ولمس شعرها فانتفضت . . قال . .

– لا تخافى . لن تكونى أمه . سوف تكونين زوجتى . لا أستطيع أن امتلك شيئاً .

وسارا معاً . توالت أيام . جفت آبار وتفجرت عيون وطمر الرمل واحات نائية . وعاش عروة بن الورد بين ذراعى سلمى . مهما تباعدت الغزوات وطالت مشقة السفر . . فهو يعود إليها .

يركض عروة على صدر الصحراء . الرمل حضن دافىء رحب . والسماء زمردة بعيدة المنال . يستغيث به الصعاليك من حدة الشتاء ومن قيظ الصيف . كان معه ناقتان . ذبح واحدة وحمل مرضاهم على الأخرى وسار إلى مضاجع المتخمين . كان ينفض عن نفسه رماد الحياة الزوجية الراغدة . فى الخلاء قابله أحد الضعفاء يشكو ظلم قبيلته أعطاه سيفه وخلع عليه طيلسانه . ورأى امرأة طاعنة فى العمر مقطوعة الولد . أعطاها آخر ناقة يملكها . وكانت الشمس رغيفاً ساخناً تتطلع للفقراء من فوق قمم الجبال وتدفع داخله الشعور بأنها ــ هى أيضاً ــ يجب أن تقسم بالعدل . شكى أحد العشاق المولهين من أن حبيبته لا تأبه به . ألف له قصيدة وطلب منه ان ينسبها لنفسه ويلقيها على اسماعها . رأى القبائل تتأهب للحرب من أجل ثأر قديم فدفع دية القتلى . وظل وقع سنابكه يدق صدر الصحراء مثل وجيب القلب . يضع زهوراً على حافة الآبار ويرثى موتى الصعاليك . وينبت العشب الأخضر فى رماد النيران المطفأة ويطيرُ الحب قبلاً على وجنات الصبايا . يرقص رقصة الشبع والدفء . نموذجٌ رائعٌ لأعظم ما يكون صفاء الانسانى رغم جروح أظافر الاصدقاء . وأسوار الانانية . ورغبة التملك الشرسة . والتخمة والجشع . رغم كل هذا . كان صدره سمحاً كإمتداد الصحراء . معتداً كالقمم . صبوراً كزهر الصخر . فرحاً بكل الأطفال لحظة الولادة . وبالبراعم لحظة التفتق . وبكل العشاق حين يتبادلون قبله

مختلسة . وبالجوعى حين يقدحون نيران الشواء ويصعدون ريح الشبع كان عاشقاً لكل أنواع البهجة الانسانية . وكانت عينا سلمى سوداوين وعيون المها حوراء وريح الصب عذبة . .

قال أبو الفرج وهو يزفر غضباً ويلقى ريشته :

– هذا جنون لقد ترجمت للكثيرين . صعاليك . ملوك . فرسان شعراء .

لم أر من هو أضعف من النفس الانسانية . أنها مفعمة بالشهوات مثل مستنقع ملء بالديدان أعرف هذا جيداً . .

لكن عروة القى زهرة لسحابة عابرة فأمطرت . حمل زوجته على راحلته وسارا .

قالت : وإلى أين تأخذنى يا عروة ؟ قال : إلى حيث شئت كل البلاد بلادى . قالت : لو أخذتنى إلى أهلى فأراهم ويروننى قال : أما هذه فلا أستطيع . قالت : خذنى اذن إلى بلاد بنى النضير . . قهقه ضاحكاً : هؤلاء اليهود بقلانسهم السوداء الطويلة وضحكاتهم الخافتة الماكرة . . ما أشد شوقى إليهم . .

كانت سلمى تضمر أمراً . . والناقة تحث الخطى عبر الوديان والبوادى إلى بلاد بنى النضير . ثم تجوس خلال بيوتهم الواطئة وطرقاتهم الضيقة الملتوية . وأصوات المزامير وهى تتعالى من المعابد . والقلانس السوداء تكشف عن الوجوه اليهودية الشاحبة . واللحى الرفيعة المسترسلة . . أخذوا عروة بالاحضان . . لم يكن ثمة من يجهله . انزلوا سلمى من هودجها . ذهب هو مع الرجال . وبقيت هى فى خيام النساء . كانت سلمى تعرف ما بين أهلها وبنى النضير من صلات وثيقة . تجارة وزيجات وتحالف . طلبت من النساء أن يستدعين أزواجهن وبعض وجوه القوم وقالت لهم . .

– أنتم تعرفون نسبى . وأن عروة خارج بى قبل أن يخرج الشهر الحرام . أخبروه انكم تستحون أن تكون امرأة معروفة النسب منكم سبية . وافتدونى منه فإنه يحسب أننى لا أفارقه ولا أختار عليه أحدا . .

قالوا :

– لكنه سيرفض . لقد عشتما معاً عشر سنين ولك منه أولاد . .

– إنه أكرم الناس . وهو يهب أى شىء حين يكون متيقظاً . فما بالكم لو كان مخموراً . .

وفى حانة بنى النضير كان عروة يشرب ويضحك ويتحدث . كيف يمتطى الخيول ويسوق الابل . يتحدث عن السحب والزهور والنجوم الصغيرة الملونة التى يعثر عليها مطمورة فى الرمل . ويهود بنى النضير يتضاحكون فى خفوت ويراقبونه وهو يشرب الكأس

الأول قالوا . أنت شريف برمك ونسبك ينتمى لمعر وهو أشرف العرب فلماذا تصاحب الصعاليك ؟ وقال : عندما تجرح السيوف الصعاليك فإن دمهم الذى يسيل يشبه دمى . . ونحس نفس درجة الألم . وفى الليل نحلم نفس الأحلام . وراقبوه وهو يشرب الكأس الثانى قالوا : يا عروة . أنت لا تحصل على أى فائدة من ورائهم . أنت فقط تثير عداء أشراف القبائل ضدك . قال : أنا لست يهودياً مثلكم : كل مساء لاآوى إلى فراشى قبل أن أحصى أرباحى وخسائرى . ولسن صيرفيا فى طريق القوافل . أننى أحط ترحالى حيث تكون الحياة : يجب ان يتمتع بها الجميع وضحكوا فى صوت خافت وهو يشرب الكأس الثالث والرابع قالوا . . يا عروة . . لكنك ستموت ذات يوم ولن تخلف لأولادك شيئاً . قال . . بل أترك لهم هذا الكون الواسع الممتد . لم أملك شيئاً ولم يتملكنى شىء . فتحت لى الريح صدرها . ودثرتنى الصحراء بعباءتها ووهبنى الليل أجمل الأحلام . . إننى أترك لهم شعرى . إرث دائم لا يستهلك . . كان قد شرب حتى إنتشى وإتسع قلبه ليشمل الكون وحانت لحظة المساومة الخاسرة . تقدم كبير بنى النضير . كان شيخاً مهيباً لولا تلك القلنسوة الطويلة المضحكة التى يلبسها ، قال :

– يا عروة هل تهب أى شىء . . ؟ . .

قال عروة . . أى شىء مادمت أملكه . . ؟ .

قال الرجل : إعطنا زوجتك . قال عروة فى دهشة . . ماذا . . ؟ قال الرجل بهدوء ومكر . .

– ان زوجتك معروفة النسب فينا . نحن نخالط قبيلتها ولهم علينا حق الجوار . وبيننا أصهار وأقارب . وإن علينا الآن سه لأنها سبية عندك . . فإذا صارت إلينا وأردت ان تخطبها زوجناك إياها . .

قال وهو يشعر برأسه تدور : لكنها زوجتى . أم أطفالى لا أستطيع قالوا : أنت الذى تباهى بسماحتك تتراجع فى نفس اللحظة ؟ تذكر سلمى . تذكر رفاقه الصعاليك . قال .

– لى شرط واحد . أن تخيروها إن اختارتنى وولدها ذهبت معى وإذا اختارتكم ذهبت لأهلها .

قال الرجل بسرعة . . ذاك لك . .

وفى الغد ساروا إليها . وقفت سلمى وسط جمع الرحال من ناحية وعروة بن الورد من الناحية الأخرى . وبدت وجوه بنى النضير مثل غربان تتحفز للانقضاض . تقدم كبيرهم . قال .

– يا سلمى . . لقد وهبنا زوجك لنا على شرط . .

قالت بهدوء وهى تتحاشى النظر إليه : أى شرط ؟

– أن يكون لك الخيار . أن تختارى عروة وولدك فتذهبين معه . أو تختارى أهلك فتمضين إليهم . .

صمتت المرأة برهة . وفكر عروة بفته إنها لن تختارنى . قالت . .

– فأنا أختار أهلى . .

ورغم سابق توقعه فقد أذهلته الكلمات وهى تخرج من بين شفتيها وأذهلته أيضاً تلك الابتسامة المتواطئة على وجوه بنى النضير . صاح أبو الفرج ثائراً .

ـ ألم أقل لك . كل النساء خائنات . .

وفكر عروة . حتى هى تخدعنى بعد عشر سنين كاملة

وقفت المرأة أمامه قالت بصوت سمعه الجميع .

– يا عروة والله ما اعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك . أغض طرفاً وأقل فحشاً . . وأجود يداً . ولكن ما مر على يوم منذ كنت عندك إلا والموت أحب إلى من الحياة بين قومك لأنى لم أكن أشا أن أسمع إمرأة من قومك تقول . . قالت أمة عروة كذا وكذا . . إلا وسمعته والله لا أنظر فى وجه غطفانية أبداً فارجع راشداً إلى والدك وأحسن إليهم . . وترقب حتى تنسيك الأيام ما كان من أمرنا

تأوه عروة كالمطعون سار عبر الدروب الملتوية والبيد الموحشة يهذى بالشعر والندم . كان يتذكر بنى النضير ، يرى أطراف أنوفهم المدببة . يسمع المزامير ويحس بوطأة الخديعة . . سلمى . . واليهود . والسنوات الخائنة . هل كنت مخطئاً فى كل ما فعلت . . فى كل ما عشت ؟ كل أشعارى هباء . والصحراء ضيقة كطرقات بنى النضير والشمس سوداء بلون القلانس والآبار مرة ، وسلمى بعيدة كأنها لم تكن ذات يوم . والصعاليك يغرزون أظافرهم فى جلده والعشاق يذبحون على حواف العيون وسط الفلاة ! صرخ كالحيوان الجريح :

– سلمى لماذا فعلت بى هذا . ؟

وتبدد الصدى دون إجابة . . قال أبو الفرج .

– لعلك قد تعلمت من قسوة الدرس . فإذا جاءت سنوات الجوع واستغاث الصعاليك فلا تجب . . أنت شريف وهم صعاليك .

ترك عروة ناقته وضرب كفلها . ظلت تخب حتى اختفت كان فيها بعض من رائحتها . . وهو يتمنى أن يولد من جديد . لعل هناك أرضاً لم يطأها بشر . وظل يركب

الجواد ويضرب صدر الصحراء . . وتوقف أبو الفرج فى ظل صخرة يبلل أطراف ريشته ويكتب حتى أقبل عروة فصاح به :

- توقف يا عروة . . لقد انهيت مهمتى . .

قال عروة . أى مهمة . . ؟ . .

أشار أبو الفرج إلى كومة من الأوراق كان يحفظها بحرص واضح . .

- لقد دونت نسبك . . وكتبت تاريخك وأخبارك وكل الاسانيد الصحيحة . سجلت أشعارك ومآثرك وبهذه الأوراق سوف يحفظ لك التاريخ أجمل الصور . . يا عروة إن عمرك كله فى هذه الأوراق . . خذها وكن حريصاً عليها . .

تناول عروة لفة الأوراق . إحتضنها كأنما استعاد نفسه أخيراً . لكز الجواد وإبتعد . وحفيف الأوراق إذ يحتك بصدره كأنه همس امرأة . وفى منتصف الطريق رأى شخصاً ما . صعلوك بائس . لا يرتدى من الثياب إلا ما يستر عورته . وقف فى طريق الجواد وهو يهتف :

- يا عروة . يا أبا الصعاليك . . أغثنا . .

لوى عروة عنان الجواد وتوقف . . قال .

- ماذا بك ؟ . .

قال الصعلوك :

- بردان يا عروة . . بردان حتى النخاع . .

ودون أن يفكر عروة ألقى إليه بلفافة الأوراق وهو يقول . .

- خذها . . اشعلها وتدفأ على نارها . .

وإنطلق عروة بن الورد بجواده . .



النابغة . المنخل . المتجردة .
الصداقة . الحب . الموت

بينما كان أبو الفرج الاصفهاني تائها في عرض الصحراء مر به فارسان لم ير أجمل منهما خلال تجواله الطويل . ولما كان في أبي الفرج ـ كعادة كل الفنانين ـ نقطة ضعف أمام الوجه الحسن فقد أوقفهما وهو يتساءل .

- أيها الفارسان الجميلان . . انتسبا ؟
توقفا قال الأول . .

- أنا النابغة الذبياني واسمي زياد بن معاوية بن عيظ من بني ذبيان
قال أبو الفرج . . فأنت أشعر أهل زمانك . .

والتفت للفارس الآخر يسأله . . فقال . .

- أنا المنخل بن عبيد بن عامر اليشكري
قال أبو الفرج . . فأنت أجمل أهل زمانك . إلى أين تمضيان . . ؟
قالا . إلى بلاط النعمان بن المنذر ملك الحيرة . .
قال أبو الفرج .

- ان الشعر روح الصحراء اللافحة تشرد قوافيه كالجياد العصية . وعندما تمسه رياح بلاط الملوك يصبح رخواً متنزلعاً أما الصداقة فهي نبض ليالي الخوف والخطر المشترك . وعندما تحتضنها الحاشية يصبح الود وقيعة . واسداء النصح دسيسة

قالا معاً . أنت لست من أهل زماننا ولا تعرف معادن الرجال
ومضيا قالا لبعضهما البعض . هذا مخمور مخرف كريه الرائحة وظلا طويلا

الصحراء إذ نام أحدهما أقام الآخر الليل يحرسه . وإذا وصلا لبئر أصر كل منهما على أن يشرب قبل الآخر خشية أن يكون مسموماً . وإذا رددا بيتاً من الشعر لم يدريا من قائله . كيف جئت يا منخل من بنى يشكر . وجئت يا نابغة من بنى ذبيان وتجمعتها تحت عباءة الريح عبر كل هذه الفيافى ؟ رجلان حقيقيان إذا سارا وإذا غزيا وإذا عشقا . وعندما مستهما ريح الطموح ، رحلا سوياً . . وأكد أبو الفرج لنفسه . .

– لكنهما مخطئان . النعمان بن المنذر . أحمر أبرص . قصير . دميم . وهما كتصفى القمر كيف يطيقهما فى مجلسه . .

وعندما وصلا لديار «الحيرة» . أدركا أنهما وصلا لأرض الغربة فتعاهدا بالدم . وبلقمات الخبز وجرعات الماء وساعات السهر وذهبا لقصر الملك . ووقف النابغة منشداً . .

أتيتك عارياً . . خلقا ثيابى . .

على خوف تظن بى الظنون . .

ورأيا النعمان على عرشه . . دميماً كما لا يتصور أحد . وشعره الأحمر يضفى قبحاً مضاعفاً على التاج . . يغافل الحاشية حتى يحك جلده الابرص . . وهمس المنخل . .

طوال عمرى لم أر ضفدعة تتحلى بكل هذا القدر من الذهب والجوهر .

وصفق النعمان طرباً . وهتف . .

– هذان صديقان من الصحراء . شاعران يسبحان بحمدى . دقوا الدفوف ومدوا الموائد .

وكان أبو الفرج قادماً من الصحراء فرأى القصر مزداناً بالأنوار والموائد ممدودة . حاول الدخول فأوقفه الحرس . قالوا .

– الملك مشغول . عد بعد عام . .

سأل عن هذه الأنوار . قالوا . شاعران يقولان مدحاً فى الملك . قال مدهوشاً . . يا إلهى . لقد هويا سريعاً .

ونهضت المتجردة زوجة الملك النعمان من حمامها المعطر ، سألت عن سبب دوى الدفوف . قالوا : شاعران انضما لبلاط الملك قالت بسأم . عجوزان أبلهان آخران انضما لبقية عجائز الحاشية . التفت فى علالتها وسارت . كانت تكره القصر والجوارى والخدم والعبيد وتجهم الحراس وبعومة الحرير وبلخ العطور . عصفورة مقرورة فى قفص من ذهب . جاء إليها العرش هدية ملوثة لم تسع إليها . كانت زوجة لابن عمها «حلم» أحد أقارب المنذر بن ماء السماء . لا تهوى سوى أمنيات الحياة البسيطة . وذات يوم زار الملك المنذر منزلها . رآها . من ؟ قالت . . أنا المتحردة . زوجة «حلم» .

ظل يحلق فيها وعندما جاء زوجها جلس إليه . وكل الامسيات يريد فى تقريبه ويجعله كاتم سره وعلى مائدة الشراب أخذ المنذر يمزج شرابه بالماء ويقدم الشراب صرفاً «لحلم» ثم قال له

– يا حلم إنه لقبيح بالرجل أن يقيم على المرأة زماناً طويلاً حتى لا يبقى فى رأسه ولا لحيته شعرة بيضاء إلا وعرفتها فهل لك أن تطلق امرأتك «المتجردة» واطلق أنا امرأتى «سلمى»

ولأن كل الآراء فى رأس المخمور تكون صائبة فقد وافق وأخذ كل منهما عهداً على صاحبه وفى الصباح طلق «حلم» المتجردة وطلق المنذر زوجته سلمى وأم ولى عهده النعمان ثم أسرع بالزواج من المتجردة بينما حرم على سلمى الزواج من غيره

انتقلت المتجردة إلى بيت المنذر وهى تعانى من مرارة الخديعة .

وكان المنذر عجوزاً . وذات صباح استيقظت فوجدته ميتاً فلم تشعر بأى حزن ولم ترتد أى سواد وداعبتها أنسام العتق والحرية لكن النعمان بن المنذر وقف على بابها كانت جزءا من أرث والده بجانب القصر والعرش والحيرة لم يكن هناك أمل فى الخلاص . حتى «حلم» فقد عقله وتاه فى الصحراء وأصبحت دروب القصر شبكة متداخلة وسيوف الحراس باترة .

تحولت عينا المنخل القلقتان . الرطوبة تنبعث من كل ركن . رجال الحاشية . يقفون منحنين كالبوم العجوز فى الصحراء يموت الرجال وقوفاً كالنخل . والشمس تشعل الرغبة والجنون . لكن القصر والاروقة الطويلة الخالية لا تحمل سوى الكآبة رغم بريق الذهب والموائد الحافلة والدفوف العالية وكل الأشياء التى تعلن للجميع أن ندامى الملك غاية فى السعادة

إستكملت المتجردة زينتها تساءلت فى حسرة ما جدوى العطر ؟ دخلت وصيفتها قالت الحاشية كلها مجتمعة . قالت بملل . أعرف كل عجائز الحيرة قالت الوصيفة أنهما ليسا عجوزين يا مولاتى . وليسا من الحيرة أيضاً نهضت فى تثاقل لمجرد أن تعبر من كآبة الحجرة . تطلعت من خلف الستر . من نافذة علوية فوق العرش ألقت نظرة سريعة . . لكنها توقفت لم يكونا عجوزين حقاً لم يكونا من الحيره لم يكونا أحمرين . قصيرين دميمين أبرصين . كانا رجلين فيهما سمرة الصحراء وكمل صوات الشباب همست الجارية فزعة

– لا تحركى الستر يا مولاتى حتى لا يراك أحد . .

قال المنخل . أنظر يا ذبيانى . هذا الستر يتحرك . لقد رأيت خلفه عينين كأنهما

نجمتان بعيدتان . إرتعد النابغة وهو يهتف : لو نظرت هناك مرة أخرى لكانت نهايتنا . .

هلل النعمان إنسحبت الرقصات . طلب منهما أن يقولا شعراً فى مجده وجاهه أحد النابغة يرتجل والمنخل يرقب حركة الستر . شعرت المتجردة بالاشمئزاز وهى تسمع ضحكات النعمان . لكن عينيها ظلتا عالقتين بعينى المنخل والجارية تتوسل إليها أن ينصرفا . . وقال الملك . .

- غداً نخرج للصيد . . منذ الآن نديماى ندمائى وخير خلصائى . .

خلع عليهما الذهب والثياب . وللمرة الأولى فكر المنخّل . لقد أعطى النابغة أكثر منى . ورفع أبو الفرج كأسه تحية لكل ندامى الحيرة وهو يهتف . .

- يا أصدقائى . رمل الصحراء هو مقياس الصدق الوحيد . إنه لا يساوى شيئاً ولا يثير طمع أحد . .

وباتوا يحلمون . كان النابغة يحلم بسوق عكاظ . . وقد غدا أعظم شعراء العرب يجلس فى صدر موكب التحكيم . وشعراء القبائل يسعون إليه . يضعون قصائدهم على أعتابه وينتظرون حكمه . كلمته تعنى مولد شاعر . أو موت شاعر . . والمنخّل يحلم بحركة الستر . والعينان النجمتان تشعان فى صدره . يرفع الستر فيغوص فى بحر من عطر الشام . والمتجردة تحلم بالصحراء . أغلقت باب حجرتها . قالت إنها متعبة . وأطفأت كل الشموع ورأت القمر مثل امرأة وحيدة تشكو الهجر . النعمان يحلم بالقبائل وهى تردد القصائد التى قيلت فيه بالكلمات وهى تطرق اسماع كسرى ملك الفرس فتولد داخله الحسرة

. . ولم يستطع أبو الفرج أن يحلم لأنه قضى الليل فى الشارع . صاحب الحان سلبه كل نقوده وألقى به للرصيف . فقط تمنى أن يؤلف كتاباً ضخماً يبيعه بثمن عال .

وفى الصباح رأتها المتجردة يستعدان للصيد وعند الظهر رأتهما حول مأدبة الغداء . وفى المساء رأتهما فى مجلس الطرب . أصابها ما يشبه الهوس . وعينا المنخّل تلاحقها . . تتمنى أن تكون جارية صغيرة بعيدة عن عين الملك . والحرس والوشاة . .

وذات مرة كشفت عن وجهها لمدة وجيزة كانت خلف الستر ، ورأت عينا المنخّل تتطلعان نحوها فمدت يدها ببطء وكشفت له عن وجهها . أعطته نظرة طويلة متألقة مليئة بالرغبة وركض قلب المنخل خوفاً وهو يهمس لنفسه :

- إنها هى

وقررت المتجردة أن تبعث إليه برسالة . . هتفت وصيفتها مولاتى . . هذا جنون .

قالت الذبح أفضل

[illegible] ثم حملت الرسالة ذاتها تحمل حمر الناء وعندما عادت

إليها سألتها فى لهفة بالغة : هل أعطيته الرساله : قالت : أجل يا مولاتى . قالت هل رآكما أحد ؟ نفت الجارية ذلك . إن أحداً لم يرهما بالفعل . لكن الوصيفة لم تعط الرسالة للمنخل . . إن الذى أخذ الرسالة كان النابغة . .

جلس وحيداً وفتح الرسالة . وشهق . المتجردة تدعوه . أهى خدعة . . أم اختبار للثقة . . ؟ ماذا يفعل . . هل يقول للمنخّل ؟ . . إنه صديقه الوحيد فى هذه المدينة . . صحيح إنه تغير فى الأونة الأخيرة لكنه مازال رفيق الصحراء وبينهما عهد الدم . . هل يذهب للمتجردة . . أم يتناسى الأمر . . . . كان وحيداً . وجد النعمان قد خرج للصيد والستائر مرخية والأروقة خالية .

وأحس أنه كالمنوم يجتاز الأجنحة ويدخل الحجرة . . بحر من عطر وحرير . . وألوان ناعمة تسلبه كل إرادة ، يدفع باباً خلف باب . . الحجرات خالية والاروقة والاسرة دفع الباب الأخير . وجد المتجردة أمامه توقف مبهوراً كانت فى حمامها عارية تماماً وجسدها الأبيض يشع وهجاً كحد السيف وحرقة الرعب التفتت فى فزع . مدت يديها تخفى نصفها السفلى تحاول أن تتقية . . همهم . .

- أنا النابغة . . اتذكرين . . الرسالة . .

تمتمت فى حنق وغضب :

- أخرج وإلا قطع الحرس رأسك . .

ردد نفس الكلمات وهو غير فاهم . حاول الاقتراب . لكنها صرخت أخرج أيها الكلب

جاءت الجوارى مسرعات . ودثرنها .

ودفعن النابغة . وخرج وهو يتساءل . لماذا ارسلت الرسالة اذن ؟ لم يكن قد رأى امرأة بهذا الجمال . ولا جسداً بهذا البهاء حتى وهى تسبه وتطرده من أمامها .

عاد النعمان من الصيد لم تقل المتجردة شيئاً فقط أدركت أن الرسالة قد أخطأت طريقها وظل طيف المنخل أمامها . تتحين الفرص الأتصال به . . وعندما طلب النعمان من النابغة أن يقول شعراً لم ينبس ببيت واحد . ورأى الستر يتحرك . ورأى وجه المنخل يشرئب والعينين السحميتين اللتين أصبح يعرفهما . . والاختلاجات السريعة على وجه المنخل شعر بالحسرة تأكل قلبه . . تمنى . لو أننى لم أغادر الصحراء . .

وفى اليوم التالى . رأى نفس الوصيفة لكنها أصبحت تعرف طريقها . ورأى المنخل عندما غاب عن مجلس النعمان . وعندما عاد مرتبكاً . وفكر فيما يشبه الومضة . ترى هل كنت غير مقصود بالرسالة . . ؟ . . والمنخل يبتسم كأنه يحلم . والستر يهتز وديدان

البرص تسير على الابسطة وتهبط درج العرش . . وبينما هما عائدان وقف فى مواجهة المنخل فجأة . . وقال . .

- يا منخل . . هل تعشق المتجردة ؟

بوغت المنخل : أنت مجنون . .

وتركا بعضهما . أدركا أن كلا منهما قد فضح سر الآخر . وأن ما بينهما قد أفسدته برودة القصر وعطايا الملك . فكر النابغة : يجب أن نفترق ، وفكر المنخل : لا أستطيع أن أترك القصر . . وفكرا سوياً : سوف يكون القتل أهون عقاب يوقعه النعمان بهما .

وعندما هطلت الأمطار وتماسكت الغيوم فوق الحيرة استطاع المنخل أن يلتقى بها . أخبرته كيف تزوجت المنذر وكيف ورثها النعمان ثم كيف أحبته هو من اللحظة الأولى . وكيف أخطأت رسالتها الأولى طريقها إليه وفسد ما بين المنخل والنابغة تماماً وأصبح وجودهما فى القصر معاً مستحيلاً . .

كان المنخل يواصل التردد على القصر ومنادمة الملك . . بينما كان النابغة يتباعد . يحاول الا يفتح الجروح القديمة . وفى أحدى المجالس . . همس المنخل فى أذن الملك . . دع النابغة يقول شعراً فى المتجردة . . ربما حرك فيها هذا الشعر شيئاً ناحيتك . .

أمره النعمان بصوت حازم . .

- قل شعرا فى المتجردة . .

نظر النابغة حوله كالمستغيث . .

- لا أستطيع الآن يا مولاى . . أننى أعانى من نضوب قريحتى . .

لكن النعمان كرر بنفس الحدة : قل شعراً فى المتجردة . .

وصمت النابغة . ثم بدأ يقول الشعر متردداً : أمن آل مية رائح أو مغتدى . . لكن الشعر عندما يتدفق يفتح كل الجروح القديمة . يوقظ كل الصبوات وكل الامنيات المكتومة وكل أحزان القلب المتعب . رأى النابغة المتجردة أمامه عاريه تماماً كانت الشمس تشع من خلف جلدها . . لم يعد يرى المنخل ولا النعمان ولا الحاشية وعندما أفاق وجد العيون تحدق فيه شذراً والنعمان يتنفس فى غضب ، والمنخل يتبسم فى خبث والحاشيه مبهوتة . وظل الصمت ثقيلاً

انتفض النعمان . ضرب الارض بصولجانه أمر بفض المجلس وسار النابغه مرتعشاً كشف نفسه وفضحه الشعر وانصرف المنخل دون حقق انتصاره وهمس «عذب» جلاد الملك فى أذن النابغة .

– انى أعرف نظرة الملك عندما ينتوى القتل . . ولن يمر الليل عليك . .
قال النابغة فى عجز : وماذا أفعل . . ؟ . . قال الحاجب : إهرب . .

وعندما داهم حراس الملك بيت النابغة لم يجدوا إلا بقايا متاع قديم . . والصحراء التى جاءت به تحمله وتلقيه بعيداً . لعله يفلت من أظافر النعمان الطويلة . وأصبح المنخل وحيداً . ودروب القصر مفتوحة أمامه . لم يعد يفارق المتجردة . كان النعمان يحس بالمتجردة وهى تزداد جمالاً يوماً بعد يوم . وتغدو أكثر مرحاً . كان يشعر بالحنق لأن النابغة قد أفلت من يده وكانت المتجردة تتمنى وهى بين ذراعى المنخل . ليتنا نصبح نخلتين وحيدتين فى مكان ناء بالصحراء . . لماذا لا نهرب . ؟ . قال المنخل : ما أقسى الصحراء فى وجه هاربين خاصة لو كانت أظافر النعمان بهذه الحدة تمنت لو أن النعمان يموت فجأة كما مات أبوه . وكانت «الحيرة» تنتبه لمساتها قليلاً . قليلاً . وعجائز الحاشية الذين أصابتهم البرودة بالصمم بدأت تلفحهم نيران الهوى الجديد .

ثم كانت المرة الأخيرة . . خرج النعمان للصيد . . وتسلل المنخل إلى حجرة المتجردة . . كانا يريدان أن يصلا سوياً لدرجة من الامتزاج . . وأخذت المتجردة تلاعبه فأخذت قيداً وجعلت أحدى حلقتيه فى رجله . . والحلقة الأخرى فى رجلها . . كانا يريدان أى رباط لا فصام له . . لكن المسافة بين القصر والصحراء بعيدة . . حتى حرارة الرغبة لم تكن تقدر على اجتيازها .

كانت هذه المرة هى الأخيرة . النابغة يتخفى مرعوباً . والقبائل ترفض أن تجيره وتهدر دمه وعاد النعمان «للحيرة» فى صمت كان قد فشل فى الصيد . وفرت كل الغزلان . دخل القصر دون أن يشعر به الحرس . وعندما تنبهت الوصيفة أخيراً نهضت مفزوعة لتنذر سيدتها . والنعمان يجتاز الاروقة فى حذر الصياد الماهر . وصرخت الوصيفة . .

– الملك قادم . .
نهضا فى رعب . حاولا أن يخلصا قدميهما من القيد . ولكن بلا فائدة . هل كانت هناك وشاية ؟ . . من الذى وشى . لم يكن هناك وقت للتساؤل . . لأن الثلاثة . المنخل والمتجردة والوصيفة سمعوا النعمان وهو يهتف . .

– دعوا «عكب» يساعدهم على الخلاص .

وحملقت العيون الستة رعباً . أشار الملك فتقدم «عكب» رفع سيفه . هوى به فى حركة ماهرة على ساق المنخل . بترها ، صرخ المنخل من الألم الرهيب انفجرت نافورة من الدم القانى . وأمرهم الملك

- احملوه وأقتلوه بعيدا

حمل الحراس المنخل وهو يصـرخ وسيال ـ.ـه يتدفق . يـرسم خطا بـطول الرواق والقصر . . والمتجردة فاقدة الوعى .



عمارة بن الوليد ..
بيد عمرو .. لا بيدى ..

كانت أجنحته قوية .. وسماؤه ضيقة .. كيف يستطيع إذن ان يحلق فى جحر الفأر .. ؟ .. عمارة يعشق صورته فى الماء .. والماء يعشق الطحالب العطشة .. والطحالب تعشق صدى البحر البعيد ..

كان عمارة .. وكانت المقايضة هى آخر حل إختارته قريش ولم تجد خيراً منه .. حلم كل أب وأم .. وكانوا كلهم : الرجال والنساء والاصنام متلهفين لاتمام الصفقة .. صفقة غريبة لأن الموت أحد طرفيها . وعمارة يسير وسط رجالات قريش . وهناك بجوار الكعبة أجساد تنزف .. وصراخ يحمل كل العذابات الأنسانية . وعمارة ناعمٌ ، ناعم . نعومة عطر الشام ورقة الديباج الفارسى . هذا الصنم الضخم يرمقه فى حسد .. وهذا الرجل الذى يموت من أجل الشىء الذى آمن به أحمق .. والموكب الذى يمضى عمارة فى منتصفه يكبر كل لحظة .. عمرو بن العاص يسير عن يمينه .. يؤكد له أن الطرف الآخر سوف تغريه الصفقة .. عمرو ليس صديقه فقط . إنه استاذه .. وتجربته الأولى فى هذا العالم .. وعندما يؤكد له هذا فإن احساسه بالفخر يتضاعف ..

وصلوا إلى بيت أبى طالب فى شعاب مكة .. جلسوا .. وجلس أبو طالب فى مواجهته . احاطت به كل الوجوه المراوغة .. ونهض كبير القوم يبحث عن أكثر الكلمات نعومة :

– يا أبا طالب .. أنت سيدنا وأشرفنا ونحن أحرص اهلك عليك رغم ما فعل إبن أخيك بنا وبآلهتنا .

وأبو طالب صامت .. وضحك الرجل ضحكة جافة وهو يعبث فى لحيته ..

- لذا جئنا نعرض عليك أمرا صالحا . . تدع لنا محمدا نعمل به ما نشاء . . ونعطيك بدلاً منه هذا الفتى . .

والتفت فى حركة سريعة وهو يشير بيده معلناً . .

- عمارة بن الوليد المخزومى أجمل فتيان قريش . بل أجمل فتيان العرب .

. . وتعالت همهمات الاعجاب . وأحنى عمارة رأسه متواضعاً . . حتى عمرو إبتسم وأبو طالب صامت . لم تظهر على وجهه أية بادرة من بوادر السرور التى توقعوها . . تبددت الضجة الزائفة . . ورفع عمارة رأسه فوجد أبا طالب يحدق فيه . . أهى نظرة الغضب . . أم الاحتقار . . ؟ . . وظل الصمت مخيماً ، وقال الرجل متردداً .

- ما قولك يا أبا طالب . . هل توافق . . ؟ . .

وزأر أبو طالب فى غضب . .

- يا لها من صفقة . . آخذ ابنكم فأربيه . . وأعطيكم ابنى فتقتلونه . . إذهبوا عنى . .

إرتفعت ضجة من التهديد الأجوف . وشعر عمارة بخزى مفاجىء . . أنهم يريدون استبداله برجل يكون قد نبياً حقاً . كان ساذجاً عندما أغراه ابن العاص بنسب بنى هاشم . . ونساء بنى هاشم . . وكل واحد يصرخ ويلوح بيده ، وعمرو المبتسم الوحيد . . أبوه الوليد بن المغيرة يهتف فى عصبية . . وأمية بن خلف يعانى من نوبة تشنج . حتى عمرو بن هاشم يشعر أن الأمر كله اهانة شخصية موجهة إليه . .

لم يكن أمام عمارة إلا أن يتسلل . . ترسب فيه من الخزى ما يكفى . . خرج من شعب أبى طالب . عبر البيوت الضيقة . يخشى أن يقابل محمداً فتزداد درجة خزيه . وصل إلى الكعبة . . هناك بالقرب من تمثالى آساف ونائلة كانت امرأة واقفة . ترقب عبيد أبى لهب وهم يقومون بتعذيب أحد الرجال . . يربطونه فى أحد الخيول ثم يدفعونها لتعدو حول صنم هبل الضخم . . كانت المرأة تتشرب المشهد . . ترتعش وتتأوه فى خفوت . كلما تناثرت قطرة من دم أو تهشمت قطعة من عظم . . وقف عمارة أمامها يرقبها . الرجل يلفظ أنفاسه الأخيرة . . وتأوهات الموت تتحول إلى لمسات من النشوة تهز جسدها . . إمرأة لم يرها عمارة من قبل . . لم يحلم بها . . توقفت الخيول وهدأت المرأة . . دارت بعينيها فشاهدت عمارة . . اكتشف كل منهما الآخر . . دون صوت دار حوارهما . سارت فسار خلفها . كان محبطاً . مسلوب القوى . شاعراً باليتم . وهى تعرف أنه خلفها ولا تلتفت . وصلا إلى تل منعزل . إقترب منها . . كانت هناك بقايا من نيران الرعيان . . جذوات لم تخمد بعد . . هل مست جبينه بأصابعها . . أم أنها وضعت عليه جذوة من نار . . كان

صغيرا . . وأبوه الوليد يهوى بالسياط على ظهور الجوارى . لعل أمه واحدة منهن . وأخوه خالد يهرب إلى الجبال يقتل كل ما يقابله من حيوانات لعله يقتل فيها صورة الأب . والمرأة أمامه . يده مغروسة فى الجذوات المتأججة . . والنار هادئة هدوء الخزى . قال لها . أريدك . فتضاحكت . ونثرت الرماد بينهما . . كانت تفر مثل السراب . . قالت . . اتقدر على . . ؟ اتقدر على زوجى ؟ . . هتف فى دهشة . . ماذا . . أنت متزوجة ؟ . . ضحكت فى نعومة وتهيأت لكى تمضى . . وتركت جوابها خلفها . .

– زوجى . عمرو بن العاص . .

أحس لسعة النار . . ماذا ؟ الا يوجد غيره فى هذه الصحراء . . من بين كل الازواج البلهاء لا يعشق غير زوجة ابن العاص . . منذ أن انتشله وهو طفل غرير وعلمه كيف يواجه شظف البادية . . كان يشد القوس لنهايته فقال له · لا توتر قوسك وإلا ارتد إليك . . وعندما كان يسعى خلف الصيد . . قال عمرو : إجهد صيدك ثم ارمه . . وعندما كان يشعر بالضالة أمام أخيه خالد . . قال عمرو : كل لحظة من المتعة تجعلك أكثر منه قوة . ترك ابن العاص بصماته على كل ذكرياته . . الرفيق . . والصديق . . والمرأة تنهض وهو غارق فى ذهوله . . قال لها : ما اسمك . . قالت : اسمى الرباب . . هل يفيدك هذا فى شىء . . تركت آثار الحريق فى وجهه واصابعه . . وتركت الرماد فى قلبه . . خزيان فى يوم واحد . . هذا كثير . .

فى الفجر هزته ريح الفجر فاستيقظ . . وكانت الأحلام مليئة بالكآبة . . والليل يمضى سريعاً . والشمس تشرق على خزيه ولا تغيب . . ابن العاصّ يضحك من آثار النار التى على وجهه ويهتف به . .

– تبدو كأنك أحد العبيد الذين أسلموا . . ثم عذبوا . .

خبز النسيان مرير وجاف . . أرض ليس فيها إلا صديق واحد . . ورغبة واحدة . حتى أبوه الوليد بن المغيرة أصابه من جنونه . . اصنام عجوز لم تكل من السياط . . والنبى يمضى كالسيف . قابله عمارة مرة فإبتسم له ابتسامته العذبة الفريدة . فكر : وكنت أظن نفسى مجنوناً حين أقايض به . . وقال له عمرو . . لقد رحلت كثيراً حتى أننى عرفت أن الكلمات العذبة كلها كاذبة . .

وفى اليوم التالى قال عمرو :

ــ هذه ليلة وداعنا . . أننى راحل من عندى إلى الحبشة .

انزل عمارة كأسه وترقب بقية كلماته قال عمرو :

– هؤلاء المسلمون . . أمرهم محمد بالهجرة إلى الحبشة ولأننى أعرف النجاشى معرفة وطيدة فسوف أطلب منه أن يرد كل من هاجر إلى بلاده .

هتف عمارة : خذنى معك .

تردد عمرو : إنها رحلة طويلة .

ألح عمارة : أنت وعدتنى . .

وافق عمرو . . مجبراً . . لم يلاحظ عمارة ذلك . لم ينم بقية الليل . سوف يرحل عن مكة ولن يعود إليها إلا بعد أن تبرأ كل الجراح . . عندما يصطحب عمراً . . سوف ينسيه هذا رغبته فى الرباب . . وسوف يعود أكثر حرصاً على صداقته . .

فى الصباح خرج كبراء قريش لوداع ابن العاص . . يوصونه أن يستعمل كل دهائه وبلاغته . . كانت النوق كثيرة . . والخلق كثيرون . . والأصنام شامخة والصحراء تحمل السلوى والعـزاء . . لكنه لاحظ أن هنـاك جملاً آخر بجوار جمـل عمرو . عليـه هودج مغلق . . هل هى ؟ !! . لأجل هذا تردد ابن العـاص بالأمس . . هـذا الهودج المغلق الغامض . . هل يحتوى نفس المرأة . . رأى عمرا يتطلع إليه كأنه يقرأ ما يدور فى ذهنه . .

- إنها زوجتى . . لم أكن لأفارقها فى هذه الرحلة الطويلة . .

لم يرد عمارة ، وحاول بقدر امكانه ان يخفى رعدته . . إنما هى . . ذكرياته معها قبضة من رماد . . مجرد وجود عدمى . . وعمرو يبتسم . . الابتسامة التى لا يعرفهـا أحد من العرب كما يعرفها عمارة . . لماذا لم تخبر زوجها ؟ . . لقد فضلت أن تحتفظ بخزيه الخاص سراً لها . .

انزوى بعيدا . . وجاء الليل ففقـدت الصحراء ألفتها وعزاءهـا . . والهواء يطير ضحكاتها . . رائعة . . صافية . . يتبعها صوت ابن العاص الخشن . . وعمارة يرتجف حتى الصباح . . . . يبتعد كل يوم عن قريش ويدخل فى ذاته . .

ثم ظهر البحر أخيراً . . حيوان أخضر لا يكف عن الالتواء واللغط . وقف عمارة أمامه كالطفل اليتيم . . يشعر بالنسيم البارد كأنه يد تحنو عليـه أخيراً . . التفت فـوجد الرباب تتطلع إليه من الهودج . . وزوجها مشغول بالجدال مع ربان السفينة . . تحدثت بعينيها . . تبادلا رغبتهما الحارة العاجزة دون صوت كما حدث فى المرة الأولى : إنى أريدك يا عمارة . . كان هذا كافياً ليعيد إليه توازنه الداخلى . . اصابعها تـرفع سـتر الهودج . فيظهر جزء من وجهها وجزء من صدرها وجزء من الحلم الذى أضناه طويلاً . .

هتف عمرو . .

- هيا يا ابن العم . . سوف تقودنا هذه السفينة الحبشية إلى بلادها . . وأناخ جملها . شاهدها تغادر الهودج بجسدها الفارع الوحشى الجمال . . تركوا النوق مع القافلة التى صحبتهم . . وحمل عمارة متاعه وانزوى بعيداً . . وعند الفجر سارت السفينة . وابتعد خط الصحراء الاصفر . . . وتعود ان يراها من بعيد . . واقفة عند حاجز السفينة

تتطلع . لعل هناك أفقاً ما . يسعهما معاً . ويلفظ ابن العاص . . وفي ليلة جاء عمرو إليه . . قال . .

- انضم إلينا يا بن العم . .

وتأمله عمارة في دهشة . . هذه الدعوة الغريبة . . أهي وراءها . . سار معه . . كانت في انتظارهما سافرة بلا نقاب وبلا هودج تتطلع إليه بثبات . . اهتز البحر وارتعشت السفينة . وتناول عمارة كأسه في جرعة واحدة . وضحكت الرباب . .

- رفقاً بنفسك . .

ضحك عمرو . . قال . .

- الفتى مصاب بدوار البحر والحنين إلى الديار . . رفقاً أنت به .

لم يكن دوار البحر يا عمرو . . ولا حنين الطيور المهاجرة . . ما جدوى التمهل واللهب يستعر في دمائي . . كأس أخرى أيتها الرباب . .

شرب كثيراً حتى هدأ . . ثم انتشى . وعاد يخرج من نفسه ليكون عمارة المخزومي فتى قريش كما كان دائماً . . لا يبالي بإبتسامة عمرو . . واصبحت النظرات بينه وبين الرباب أكثر حرارة . . وكان القمر يفرش ضوءه على صفحة البحر وعمارة يغوص في عينيها . . كأنه يحلم . غرق القمر في البحر وبرزت الشمس . . حمراء كالدم . ما بين شاطئين تهب ريح الصحراء اللافحة . . وتهب ريح الحبشة المحملة برائحة البخور والفلفل والصندل . وترف الطيور البيضاء فوق رأسيهما بعنف . . ثم اختفى . .

إلى أي مدى ذهب الأمر . . ؟ . .

سأل ابن العاص نفسه في الصباح ولم يظفر بجواب . . الصداع يفتك برأسه . . والرباب نائمة . قطة وديعة دافئة . والبحر هادىء بالغ البراءة . . نهض كالمجنون . . ذهب إلى حيث ينام عمارة . . كلب وديع دافىء . وهو الوحيد المستيقظ . . المغدور به . . وحينما استيقظا أخذ عمرو يتكلم . . ويتكلم . . وهما صامتان . . على وجه كل منهما ابتسامة راضية . . يحدثان في موج البحر ويحلمان نفس الحلم . . ماذا حدث أيها الوغدان . . اللعنة على الخمر الفاسدة . .

وفي الليل إستدارت الحلقة رغماً عنه . . إبتسمت وهي تعطيه كأساً كبيراً لكنه أخذ يقل من الخمر ويكثر من الماء . . وهما يشربان خمرتهما صرفاً . . ينتظران لحظة الأمس . . ولن يطلبا الاذن منه . قال عمارة .

- هل الخمر جيدة يا عمرو .

أيها الصغير الفاسد . ذكرياتك من صنعي . واشعارك نفايات قولي . . ها هي

اغنيات الاحباش مختلطة بطبولهم الوحشية . . كانا يراقبان لحظة ضعفى . . كن شاهدى أيها الليل لقد ارقت لهم خمرى . . ومددت لهم حبلى . .

إنسحب عمارة كسيراً إلى مكانه . . وطأطأت الرباب رأسها ومضى الليل بطيئاً ولم ينم أحد من الثلاثة . . وجاء اليوم الثانى وعمرو مازال منتبهاً . لكن عمارة قابلها فى لحظة وجيزة . . توحداً لبرهة رغم المسافة التى تفصلهما . . وهتف عمارة . .

– ولكن . . ماذا افعل . . ؟ . . قالت فى هدوء :
– ان كنت تريدنى تخلص منه . .

وابتعدت . قريش بعيدة والرباب هى حدود عالمه . بنو العاص ضعفاء . . وبنو المغيرة أقوياء . . أخوة خالد بكل آل العاص . . والبحر غاضب . والسماء مثل خيمة مترية . . والأحباش يدقون الطبول وقد أصابهم مس من الجنون . . تهتف به أن يقدم . . عمرو واقف على حافة السفينة يرقب الموج . . يتيح له الفرصة النادرة . . ليكن جريئاً . . ليقضى عليه . . والاحباش يزعقون . . يتوسلون لكل الآلهة المجهولة . . واقترب من ظهر ابن العاص الصامت . . مديده فى الفراغ ثم اندفع . . ازاحه من أمامه . . من فوق ظهر السفينة . . من فوق وجه العالم . . صرخ عمرو . . لكن الطبول المزمجرة إبتلعت الصرخة . . والتهم الموج جسده . . ذهب . . واصبحت الرباب أخيراً له . . القتل هو أعظم شهوات الدنيا . . يفوق حتى شهوة الحصول عليها . . كان محموماً وهو يصرخ بها . .

– لقد فعلتها . . قذفت به إلى البحر . .

كان فى يدها سوار من الذهب المرصع . ظل يخمشه فى ظهره طوال الوقت . . قالت لن تستطيع العودة إلى قريش . . قال . . أنت عالمى . . كان الفراش مليئاً بالاشواك . محشواً بريش الغربان . وفى الركن صنم صغير أبله لا يكف عن التحديق فيهما . . ونداءات الاحباش الوحشية تعلو حتى الموج يتلوى غاضباً . . موج افريقى دافىء . . ملىء بالحيتان وكلاب البحر والأسماك والجثث . . تتوالد كلها من جثة عمرو . . وكانت الحركة عنيفة ، ووقع المصباح الزيتى الذى كان يضىء لهما . إشتبك لسان من اللهب فى الفراش . فنهض عمارة ليطفئه . . وحين إستدار شاهد ابن العاص واقفاً على الباب والماء يقطر من لحيته وثيابه . .

تراجع ببطء . . يبحث عن شىء يستر به عريه به فلم يجد . . احس بقطر الماء المالح على جسده وعمرو يقترب . . صرخ . .

– لو علمت . . لو أننى فقط علمت أنك تحسن السباحة ما فعلتها . . صدقنى . . ما فعلتها .

كان يهذى ويرتجف . . ويتراجع .

- ما فعلتها . . ما فعلتها .
قال ابن العاص هادئاً . . إنى اصدقك يا عمارة .
وظلت النار تأكل الفراش المحشو بالريش . .

أطلت عليهم شمس حمراء من فوق الجبل . جاءت الحبشة بعد أن هجرتهم كل النجوم . . وهبت الريح ساخنة . . كانوا ثلاثة . . استقبلتهم مصوع بلا أى ترحيب . . مطر عنيف . . وشمس لزجة ليس فيها شيء من جفاف الصحراء تحط على جسد عمارة مثل عشرات الأيدى القذرة وابن العاص يتصرف بشكل عملى . . كان يعرف جيداً مدى ضعف آل العاص وقوة بنى المغيرة . توازنات دقيقة لا يدركها إلا رجل مثله . . مهما قال فلن يفضح إلا نفسه سوف تجف الدماء . . ويبقى العار . .

فى الطريق قابلتهم أحدى القوافل العربية العائدة إلى الصحراء . وضع عمرو الرباب معهم لتعود إلى مكة . . وأعطى رئيس القافلة رسالة ليوصلها إلى أبيه . . كانت هذه هى الخطوة الأولى فى طريق انتقامه الطويل . .

وبعيداً فى مكة تلقى العاص رسالة ابنه . . وفهمها على الفور كان يوصيه أن يعلن أمام الناس جميعاً ـ وبالاخص أمام بنى مخزوم والمغيرة ـ أنه قد خلع عمر وتبرأ منه ومن جرير ثأره واسرع الأب إلى بنى المغيرة وهو يصيح . .

- إنى برىء من عمرو . . ومن جريرة ثأره
والتفت حوله بنو مخزوم . سألوه عما يعنى قال

- حرج إبنى من عمارة بن لولند وكلاهما شاعر . فاتك فلا من آمن أحدهما على الأخر . . لذا برئت نفسى من عمرو . ومن حريريته

وتناقش بنو المغيرة . . وكان الوليد ان المغيرة يعانى من حالة مرمنه من البلاهة منذ أن أسلم وارتد . وذكر أن العاص يلجأ للخديعة وعليه أن يلجأ لما هو أيضاً وهكذا طاف منادى المغيرة وهو يقول . .

- نحن أبرياء من دم عماره . . ومن جريرته

وتقاطعت النداءات حول الكعبة وسمعها رجل أعمى . . دق الأرض بعصاه وواصل سيره وهو يقول . .

- ضاع والله دم عمارة إلى الأبد .
كانوا يصعدون وأقسوم العالية أشبه بوكر العقاب . . لا يصعد إليها الضحايا

إلا حائرى القوى . والصمت ثقيل مشبع برذاذ الماء . وكان خزى ثقيلا حتى إنه تبع عمرا دون أن يجرؤ على الهرب . . والحبشة هى مصيره المجهول . . أكواخ القش . . وأناس سود نحاف . . وطيور مفزعة . . ذات أجنحة مدببة تندفع فى طيرانها خلال قوس قزح الهائل الذى كان يمتد من أول الجبل إلى نهايته . . كانوا يصعدون . . وشعور الوحدة فى داخل عمارة يزداد : إن عمرا يريد قتلى . . ولكنه يخاف من قومى . . ومن خالد أخى . . إننى ضعيف حقا . . ولكنه أضعف منى . .

وأخيرا بعد أيام من الصعود الشاق . . أشار عمرو إلى القمة الخضراء المزدحمة بالأكواخ وهو يقول :

– هذه «أقسوم» حاضرة النجاشى .

وقطع الصمت دقات النواقيس . ترن فى البرية فيضاعف الصدى من صوت الدقات كأنها تنعى إلى عمارة نفسه . والقافلة تقترب . . أقسوم لا تختلف كثيراً عن كل القرى التى شاهدوها فى صعودهم . . لا تزيد عنها إلا فى الكنيسة العالية والبرج الضخم والجرس الذى يتلوى فوق الغابات والوديان الصامتة .

الدليل يسير أمامهم . . توقف حين شاهد حالة الذعر التى تسود المدنية . . الأكواخ المهدمة . والأشجار المقتلعة . وجثث الأطفال المهشمة . نظر عمارة إلى ابن العاص فوجده مذهولاً . . كان الناقوس يستغيث . وقال الدليل :

– بحق المسيح . . لقد هاجت الأفيال «أقسوم» . .

ساروا فى الدروب الخالية . عمرو يعرف طريقه إلى قصر النجاشى . . وآثار الفيل مطبوعة بوضوح على التربة الحمراء . . وتساءل عمارة . .

– هل من اللائق أن نزور النجاشى الآن . . ؟ . .

قال ابن العاص . .

– هذه هى الطريقة الوحيدة لكى يسمح لنا بالبقاء فى أقسوم .

قصر النجاشى يقع على حافة بحيرة هائلة منها تتفرع كل انهار الحبشة العظيمة . . ومنها نهر النيل العظيم حيث لا أثر لملوحة الصحراء .

فى الأرض البحيرة وفى السماء السحب وفى الهواء الرذاذ وعمارة يتطلع إلى قوس قزح الملىء بالاسرار . يبدو قريباً منه لكنه لا يترك فى قلبه أى لون مبهج كان هناك صف من القساوسة . . أرديتهم سوداء . فى أيديهم اليمنى عصى طويلة تنتهى بصليب من الذهب . . وفى اليسرى مباخر تخرج منها أدخنة ملونة . . يرتلون أدعية غريبة . . بلغة غريبة .

القصر واسع . مفروش بالحصير المجدول وعلى جدرانه رسوم قبطية كلها تمثل الملائكة والقديسين بيض الوجوه ما عدا ابليس فهو الوحيد ذو اللون الأسود كل شيء يبدو غريباً . . وغامضاً . . فوجيء أن هناك أيضاً من يراقبه . . عيون واسعة . . امرأة . . ولولا أنه متأكد من أن الرباب عادت من مصوع لأقسم ان هاتين العينين الواسعتين الجائعتين هما للرباب . . ودفعه عمرو في حدة .

- أيها الأحمق . . لا تتلفت وإلا ضعنا . .

كان عمارة يشعر بتيار هذه العيون الدافق وهو يسرى في داخله . والنجاشي جالس في بهو القصر الواسع . وحوله رجال القبائل بملابسهم الزاهية والقساوسة والسحرة . . وهو على العرش مغطى بجلد أسد تحيط برقبته اللبدة الكثيفة وعلى رأسه تاج من العاج . . إنحنى ابن العاص حتى قبل الأرض . . وصنع عمارة مثله . .

كان وجه النجاشي كئيباً . . وعندما تكلم عمرو وترجم له الدليل الكلمات . . لم يفهم أى شيء . . الأمر كان معقداً كما إكتشف عمارة بينه وبين نفسه . . كان يتحدث عن أناس آخرين . تركوا دين قريش الذى لا يؤمن به النجاشي . . واعتنقوا ديناً آخر لا يعرف عنه النجاشي شيئاً . تركوا أهلهم وديارهم خلفهم فماذا يراد منهم أكثر من ذلك . وتلفت النجاشي إلى القساوسة ورجال القبائل والسحرة وحاول الدليل قدر طاقته أن يترجم . . لكن شعر ابن العاص كان بالغ الصعوبة والركاكة بحيث لم يعد الدليل نفسه يفهم شيئاً . وتلفت عمارة فرأى عيني الرباب . . كلا . . ليست إلا إمرأة بنية اللون تطل من كوة فوق العرش وتبتسم له وحده وظل النجاشي يتساءل حتى أحس بالملل . . ثم أمر ابن العاص أن يبقى في ضيافته على الأقل حتى يفهم ماذا يريد منه بالضبط . .

وذهبا إلى الأكواخ التى أعدت لهما . . وفكر عمارة . . يا لها من امرأة . . هل يمكن ان تنسيه الرباب . سمع صوت الاستغاثة . . والأهالى يصيحون مع دقات الطبول . أهو هجوم آخر للفيلة ؟ . . خرج عمارة . . جرى وسط اناس «أقسوم» . . كانوا يطلقون صيحات الفرح . . إنه عيد ولا شك حتى الدليل يصيح فرحاً . . كان عمارة سعيداً . إستيقظ الطفل النائم في داخله . سمع صوت هزيم هائل . . هزيم متحشرج . . يشبه خوار عشرات الأبقار . . إندس عمارة في زحام الساحة . كان هناك . . على الأرض فيل ضخم يخور في وحشية وعشرات الرماح مرشوقة في جسده . . يتقلب ويضرب الأرض بخرطومه والرجال السود يتقافزون كالقرود كل واحد يستعرض براعته ويرشقه في أكثر الأماكن حساسية . . والاصوات تهدر بالتحية ودم الفيل يفرش تحت أقدامهم ملاءة حمراء لزجة وهتف الدليل في عمارة . .

- إهتف معنا . . إن صيد الفيل أو فرس النهر هو أهم الأعياد التى نحتفل بها في «أقسوم» .

دقت الطبول وأوسع الجميع مكاناً فى صدر الحلقة . أقبل النجاشى بنفس هيئته . ضخماً مهيباً مثل شجرة باسقة ورأس الأسد الذى يرتدى جلده يتأرجح بين ساقيه . . وذهل عمارة عندما شاهد المرأة بجانبه . عارية حتى وسطها . . وكل هذا الجزء الظاهر من جسدها مغطى بالوشم . .

هتف الجميع فى صوت واحد . واصلوا القفز ليجهزوا على الفيل . تشنجت قوائمه الأربعة المتجهة إلى السماء . ارتجف عمارة . . نفس الرجفة التى أحس بها بالقرب من الكعبة . وكانت الرباب وكان هناك رجل يموت . .

ملأوا إناء من الدم وألقوه تحت أقدام النجاشى . . هبط بقدميه الحافيتين وأخذ يدور فى حركة راقصة وصرخت المرأة فى وحشية . غمست يدها فى الدم ولطخت جسدها العارى وعيناها معلقتان بعمارة . . وأحس عمارة بهذه النظرات تغوص فى دمه . . قال للدليل . .

- هذه المرأة . . من هى . . ؟ . .
ورد الدليل فى غضب حقيقى . .

- أيها الأحمق الملعون . . إنها زوجة النجاشى . .

ازدادت حدة الرقص وضاع رنين الناقوس وسط الطبول ورفع النجاشى دنا كبيراً من الشراب إلى فمه . . أخذ الجميع يشربون فى شراهة . ويرقصون وينقضون على جسد الفيل قتلاً وتمزيقاً . . وعيناها تشيران إليه حتى يتحرك . . لم يلحظ أحد إنها تبتعد . . ولم يلحظ الدليل أن عمارة قد تبعها . .

قوس قزح . . تام الاستدارة . . يمتد من أول العالم إلى نهايته . . وجسدها خشن من الوشم . لم يكونا فى حاجة إلى مفردات اللغة العاجزة كان النهر ينصب من البحيرة كأنه صفحة واحدة . وطيور الزرزور تحط على الصخور وعلى جسديهما . وقوس قزح يطبع الوانه عليهما . . لماذا يبدأ كل شىء بهذا التدفق وينتهى بهذا الخزى . . فكر عمارة بين ذراعيها . . هذا الكائن الأسود الموشوم هل ينسيه الرباب . هل تجدى حرارته اللافحة فى اقتلاع جذور ذكراها . . رائحة النهر . . رائحة الدم عطر غريب . . لم يفهم كلماتها كانت تصف له كيف يمكن أن يتسلل إلى القصر عبر البحرة ويدخل مخدعها الخاص بعيداً عن عين النجاشى .

تذكر نفسه الآن . يمد يده فترجع خائبة بلا نجوم . لا أحلام وعمرو أمامه الآن يتشرب فى عطرها رائحة الكافور . . وسرخس الماء . . وزهور اللوتس . . لقد كسب ملكة الأحباش فهل كسب جولته أمام ابن العاص . .
عاد إلى الكوخ عمرو فى انتظاره يتظاهر بالقلق عليه . .

- لقد تأخرت كثيرا . . والقوم هنا ينتابهم الجنون بعد الشرب .

همس عمارة فى نشوة . .

- لقد حصلت عليها .

وقال عمرو : من ؟ . .

روجة النجاشى

- أيها المجنون .

أوشك أن يهب صارخاً فى وجهه أن يمسكه ويهز كتفيه حتى يفيق . لكنه سكت . كتم كل انفعالاته . . قال فى هدوء . .

- أعنى أن هذا مستحيل . لابد وأنها امرأة أخرى تزعم ذلك . تزعم أنها زوجة النجاشى لترغبك فيها .

وأكد عمارة . أقسم بكل الألهة . قص ما حدث . وعمرو يبتسم . . يسأله إن كانا سيلتقيان مرة أخرى . . وقال عمارة . .

- غداً سوف أدخل القصر . . سوف أركب قارباً عبر البحيرة وأدخل مخدعها رغماً عن أنف النجاشى .

وضربه عمرو على ظهره فى حماس مبالغ فيه . .

- يا لك من فارس شاعر . . لقد غزونا الأحباش فى عقر دارهم .

وتركه . . أدرك أن لحظة انتقامه قد حانت أخيراً . . كان يعرف منذ البداية أن عمارة سوف يقع فى مثل هذا الخطأ القاتل . . من هذه اللحظة سوف يضع لمسات انتقامه ببطء ودقة وأن يمد له حبال النشوة حتى يأتى الموت مباغتاً . .

وفى الغد ذهب إليه سأله باهتمام .

- هل ذهبت إليها .

- قضيت الليل بأكمله معها

- لا أصدق . . كلا يا عمارة لابد إنها امرأة عادية من عامة الأحباش

وأقسم عمارة وراح يتسلل كل ليلة عبر البحيرة والنجاشى يستدعى ابن العاص يسأله عما يطلب بالضبط أى دين والدليل عاجز عن أن يوصل ما بينهما وعمارة يعود حاملاً عقوداً من خرز وأيقونات العاج وخناجر مرصعة بالجواهر يسمح فى

الوشم المتشابك على جسدها . . لعله ينسى الرباب . لعله يخفف من درجة خزيه أمام ابن العاص . . لكنه لا يصدق . يصر الا يصدق . . ويهتف عمارة .

- كيف أثبت لك صدقى . . ؟ . .
سكت عمرو قليلاً . . ثم قال . .

- آتنى بعطر النجاشي . . عطره الذى يعده السحرة من عنبر الحيتان ومن الأعشاب السرية ولا يستعمله إلا هو آتنى به فأصدقك .

وضحك عمارة من تفاهة الطلب . كانت الأنشوطة تضيق حول عنقه وهو يرقص رقصة الحياة الأخيرة . يعبر البحيرة . . وترف طيور اللقلق البيضاء كأنها تحذره . . لكنه يلوح لها فى جذل . ويسبح فى البخور . والوشم ينطبع على جسده . على روحه . لكنه لا ينسى الرباب . . حفرت وشمها الخاص ومضت . دون أن يلتئم أى جرح . يستنزف النسيان قطرات دمه فلا ينسى . إكتشف متأخراً . . أنه يحاول الانتحار فى جسدها . .

عاد إلى عمرو وفى يده قارورة كاملة . مختومة . وهتف ابن العاص معلناً إنه يصدقه . لكنه إنزوى فى كوخه صامتاً . لقد عزم الا يلعب مرة أخرى وأن يرحل بعيداً عن الحبشة . . لن يعود إلى قريش . . ولا إلى أى مكان . . سوف يرحل وكفى . . وضاقت الانشوطة لآخر مداها . .

فى الصباح طلب ابن العاص الأذن بالدخول إلى النجاشي . . كان مملوءاً من مطالبه غير المفهومة . . ولكن عمرو لم يلجأ للدليل هذه المرة . إستعمل كل مهارته فى العربية . . والامهرية ولغة الاشارة التى لا يخطئها أحد .

- خبرى هام يا مولاى . . إبن عمى سفيه خوان . . يختلق الاكاذيب ويبالغ فيها . لقد جاء بقارورة العطر هذه . وزعم أنه دخل على بعض نسائك وجاء بها . .

وفهم النجاشى . . كان عمرو هادئاً . رأى نظرة الجنون تطل من عينيه . . سمعه يلتقط انفاسه فى صعوبة . . ورأى أصابعه وهى تتشنج على مقبض العرش . . بل يوشك أن يقفز غاضباً لكنه يبذل جهداً كبيراً ليتمالك نفسه . ويشير إلى ابن العاص أن يضع القارورة وينصرف . وسار عمرو . لقد غسل يده إلى الأبد من دم هذا المدعو عمارة . لقد حاول أن يلقيه فى جوف البحر فألقاه هو فى غياهب الحبشة السوداء . .

كان عمارة يجمع متاعه ويستعد لهبوط الجبل . إنفتح باب الكوخ بعنف وسد الباب عشرات الاحباش المسلحين بالرماح . ألقى المتاع ووقف جامداً . لقد كشف أمره .

وتوجهت كل الرماح إلى صدره . . قادوه عبر الاكواخ والكنيسة والأجساد السوداء . . إلى قصر النجاشي . . مثل جرة سيء الحظ .

دفعوه حتى إنكفأ تحت قدمي النجاشي . . حاول أن ينهض ولكن النجاشي ركله بقسوة . . كان سقف القصر بعيداً والوجوه الغاضبة شديدة القرب . . القساوسة . . والسحرة . . يرتدون الأقنعة الملونة وأثوابهم من ريش الطيور . . يدقون العصى التي تنتهي بالجماجم . .

صاح النجاشي . توجه للسحرة ثم أشار إلى الحرس . اقتربوا من عمارة شقوا ثوبه ونزعوه عن بدنه . صرخ . . دار وسط حلقة السحرة وهم يدورون ويدقون الأرض بالعصى فتهتز كل الجماجم . انبعثت أدخنة البخور من أماكن مجهولة . . كانوا يصرخون في وجهه بالتمائم والتعاويذ . إرتمى على الأرض فانهضوه رغماً عنه . حاول أن يستر عريه أمسك أحدهم دهاناً أسود والقاه على جسده فصرخ . . وتحولت صرخاته إلى عواء عندما اقترب منه شيء مفاجيء ولمس الجزء السفلي من جسده . . يحرقه . . يشل رجولته إلى الأبد . القى ساحر على رأسه سائلاً جديداً . . مثل الآف الجمرات الملتهبة . . تلوى والبقع الحمراء تتسع فوق وجهه وجسده . ومن بعيد يبدو النجاشي . وعمرو . والرباب . . وشخص ما . يشير إلى جسده المشوه . . ويصيح . . هذا أجمل فتيان قريش . . لكن الآف الحيوانات تركض في داخله . وتمزق أحشاءه . . تدفعه حتى يعوى مثلها . . ويركض ويغرس أسنانه في أي شيء يقابله . يقف محنياً وسط السحرة . . يقفز مثل قرد شرس جائع أبيض اللون يشاركهم رقصة الألم . .

تركه السحرة وسط القاعة . . أشار النجاشي للحرس ففتحوا أبوابها . . وفتح الخدم أبواب القصر . . وكانت الغابات مفتوحة . . قوس قزح تام الاستدارة . . جرى عمارة إلى حياته الجديدة . . أو قبره الأخير . . كانت كل الحيوانات في انتظاره . . كي ينتظم معها في عوائها الطويل

أعوام طويلة مرت منذ أن عاد ابن العاص إلى قريش يشكو ظلم النجاشي وخيانة عمارة وفعل السحرة حتى جاءت خلافة عمر بن الخطاب . خرج من بني مخزوم بعض من ابناء عمومته ليبحثوا عنه وسلكوا نفس الطريق الذي سلكه من قبلهم نحو المجهول صعدوا الجبل . . يقودهم بجير بن أبي ربيعة . اجتازوا أقسوم . . كان النجاشي قد مات . ربضوا على حافة الغابة . . سألوا الأهالي وسمعوا الروايات المتناثرة عن الوحش الأبيض . . وظلوا يتتبعون أي أثر له . . وصلوا إلى نبع ماء جار في وسط الغابة شاهدوا آثار الحيوانات وبينها آثار قدميه اختبأوا فوق الأشجار والوحوش تأتي وتشم الهواء ثم تشرب في ذعر واضح وتنصرف . حتى جاء عمارة . غريباً . . لم يتعرفوا عليه . . جسده مغطى

بالشعر الغزير . . واظافره تحولت إلى مخالب . . وحين وصل إلى النبع إرتمى على بطنه وأخذ ينهل من الماء . . قفزوا عليه . . نهض فى فزع . . حاول أن يفلت ولكنهم أمسكوه . . شدوا عليه وهو يصرخ . . يريد أن يعاود انطلاقه . . أن يهرب إلى حضن الغابة . . تعرف على وجوههم لكن صراخه الوحشى ازداد حدة . . هتف يخاطب بجيراً :

- اتركنى يا بجير . . لا استطيع أن أبعد عن هنا . . لا استطيع العودة اليكم .

لم يتركوه . . كان يرتعد . . يمور فى داخله ألم غامض . الآف الأنياب والأظافر تنشب فى أعماقه . . يصرخ فيحاويه جوع كل حيوانات الغابة وحنينها للعتق والانطلاق . . دوت الأجراس تبلغ رسالته العاجزة . . تنساب قطرات عرقه . . وينزف الدم من عروقه شعروا بالفزع فتركوه . . ليذهب إلى حيث يشاء . . نهض فى اعياء وسار بضع خطوات متجهاً إلى الغابة . . ولكنه سقط . . والجرس يرن . . والحيوانات تعوى . .



الخنسـاء

من أين جاءت بكل هذه الدموع ؟

وأخيرا . . قال صخر لأخته :

ــ سوف نذهب لموسم الحج هذا العام . . لعلنا نرى من قتلوا أخانا .

ونهضت الخنساء لتمسح دموعها ، وتستعد للرحيل . . إلى البلد الحرام والأشهر الحرم حيث يتجاور القتلة وطالبو الثأر ، دون أن يجرؤ أحد على رفع سيفه . لا تسمع سوى أصوات الشعراء والابتهالات إلى الآلهة حتى تكون أقل قسوة . إن الرحيل جوع جديد . ورأس الخنساء حليقة . جسدها لا يمسه طيب أو دهان . ومازال طائر الصدى ظمآن . يلح عليهم كما يلح دم معاوية . . يا ديار سليم . . يا آل الشريد . . يا أذل العرب . ثأركم مازال ضائعاً . كوني حنونة يا نجوم السماء ، وتلوني بلون الدم . لعل نار المراثي تخبو قليلاً .

كانت الخنساء صغيرة عندما دق الموت بابهم . إسمها تماضر . وتشبه الظبي الصغير . وسميت الخنساء نسبة لأحد أسمائه . لم يلتفت أحد إلى جمالها ولم تلتفت هي إلى نفسها . كانت قبيلتها «سليم» فى ذيل القبائل . . حتى جاء أخواها . . معاوية وصخر . .

منذ ذلك اليوم أصبح من حق أبيها أن يسير إلى عكاظ ليفاخر بقية العرب . . لا بماله . . ولا بنسبه ، إنما بولديه . يقف وسطهما ويتف :

– أنا أبو خيرى مضر . . ومن نكر . . فليعتبر . .

وحفظت الخنساء هذا التفاخر . تمثلته كحقيقة من حقائق الطبيعة . واستجمعت القبيلة المهزوزة شخصيتها . تغزو ما حولها من القبائل وتفرض كلمتها . . ماذا يفعل بنو مرة أو أسد ، أو غطفان ، وليس فيهم صخر أو معاوية . . ومع الحروب والغارات تدفقت

الأسلاب على القبيلة ، وامتلأ البيت حول الخنساء بالغنائم الملوثة بالدم . . وكانت رائحتها أطيب من أى عطر !

معاوية هو الأكبر . . القائد . الشمس الساطعة التى تبهر عينيها ، غاية فى السماحة والجود والعطاء والقوة . لم يدانيه فى الفروسية إلا دريد بن الصمة فارس بنى جشم . لذا تصادقاً وتحالفاً . ولكن نهاية معاوية كانت سريعة . . وكانت امرأة هى السبب . . مجرد إمرأة يملكها الأقوى والاقدر على دفع الثمن . . «اسماء المرية» بغى سوق عكاظ . . دعاها معاوية إلى نفسه فامتنعت . قالت إنها عند «هاشم بن حرملة» . عدوه اللدود من بنى مرة . وصمم معاوية على أن ينالها . ولم يغفر له هاشم هذه الاهانة . ظل يترصده ويرقب تحركاته . . حتى تخلى معاوية ذات مرة عن حذره وسار وسط جمع قليل من رجاله . وإذا بجيش بنى مرة يحاصرهم . وحاول معاوية أن يشق طريقاً بالسيف . لكن هاشماً وأخاه تصديا له . تظاهر أحدهما بالهزيمة وحين هم معاوية بالاجهاز عليه طعنه الآخر فى ظهره . . منذ تلك اللحظة خرج طائر الصدى من رأسه يجوب الفضاء ويزعق من العطش . ولبست الخنساء ثوب الحداد . . وبدأت أيام المراثى .

يا إلهى . . من أين جاءت الخنساء كل هذه الدموع . . ؟ . .

سافرت وأخيها إلى مكة . . طافا بالكعبة والاصنام وسوق عكاظ . . يسألان عن مكان بنى مرة . كان صخر هادئاً . والخنساء ترتعد . رأت عباءة معاوية معلقة فوق إحدى الخيام ، ممزقة من أثر الطعن . ملوثة بالدم . . وولدا حرملة واسماء المرية يشربان . . ويتفاخران بما حدث . . وهتفت الخنساء فى كراهية : اقتلهما . . الآن !

وتمنى صخر بصوت عال : ليتنى استطيع . . لولا هذا البلد الحرام !

وتقدمت هى . لم تكن تملك سوى سلاح الشعر . أخذت تفخر بأخيها . ترثيه وتهدد القتلة وسط ذهول الجالسين . انتزعت عباءة معاوية . والتفت بها . بدت مثل شجرة صبار ملوثة بالدم الجاف . إنها لا تزال صغيرة لكن صوتها ممتلىء بريح السموم . . وصخر صامت ، وجهه مثل قناع كثيف لا يظهر أى انفعال ! . .

وعادا إلى ديار سليم . وبدأ صخر يستعد للثأر ، والخنساء تستعد للزواج دون حب أو رغبة ، تؤدى ما تفرضه عليها التقاليد القبلية . زمان «قبل ان يموت معاوية» كانت تملك القدرة على الحكم وعلى الاختيار ، حتى عندما تقدم لها «دريد بن الصمة» فارس بنى جشم وحليف أخيها . رفضته . قالت لأبيها :

– أوأترك أولاد عمى مثل عوالى الرماح واتزوج شيخاً عجوزاً من بنى جشم ؟!

وانصرف «دريد» مخذولاً . لم يفرض أحد رأيه عليها . واخذ «دريد» يهجوها بأقذع الألفاظ . لكنها كانت من القوة بحيث لم ترد عليه . ولكن معاوية مات . وجاء ابن عمها

«رواحة» . مثل «عوالى الرماح المثلومة » . تطلعت إلى وجه صخر فوجدته جامدا . لا رفض ولا قبول . . على أى حال . . كان يجب أن تتزوج !

فى ليلة الزفاف لم تخلع ثوب الحداد . زفت وهى حليقة الرأس . وظلت ساهرة تنتظر عودة صخر من أولى غزواته ! نسيت أنها ورواحة قد اصبحا فى بيت واحد . وعندما وضع يده عليها إرتعدت . نظرت إليه فى اندهاش . . وسمعت الخيل وهى عائدة فهرعت إليها . كان صخر وكأنه سيف ملوث بالدم . . فهتفت به :

– هل ادركت ثأرك . . ؟ . .

قال : كلا . . لم اشف غليلى بعد !

وفى ليلة الزواج قالت أكبر مراثيها . . جلست أمام «رواحة» تجتر أحزان عمرها الذى لم يبدأ بعد . وإستيقظت فى الصباح فلم تجده بجانبها !

أى قوة خفية تشدها لصخر . . ؟ . . رغبة الثأر الحارة . . ؟ . . عجزها عن أن تعيش فى ظل غير ظله . . ؟ . . هل هو مجرد أخ رجل . . فارس منتقم . . رمز لأشياء مجهولة . . أم هو رغبة محرمة . ؟ . . لا توجد اجابة محددة . لأنها حملت من السنين أكثر من عمرها . وأهدرت من الدموع ما لم تقدر عليه عين . وارتدت ثياب الحداد حتى بلى جلدها . . وتشربت كآبة المقابر حتى النخاع . . حتى كلمات شعرها تحولت إلى سهام مسمومة . .

لم يكن رواحة هو الروح المناسب . ولم تكن هى الزوجة المريحة . فهجر المنزل إلى اطراف القبيلة . . حيث يجتمع السادة والصعاليك واللصوص والتجار الشرفاء فى حلقات المقامرة . . وحيث ينهض جميع خاسرين . . ولا يدرى أحد أين يذهب المكسب . . ؟ . . فى اليوم الأول . خسر «رواحة» كل نقوده ، وفى الثانى خسر «خواتمه» كل ما كان يزينه من قلائد ذهبية . ثم عاد دون سيفه وخنجره . ثم بدأ يسلب الأشياء ذات القيمة الموجودة فى البيت . . ولم تكن الخنساء تريد أن تنجب منه . . لكنها انجبت رغما عن أنفها طفلها الأول «عبد الله» .

وذهبت تشكو إلى صخر . أعطاها نصف ما فى بيته من أموال . . فأتى رواحة وسلبها . ولو أن المراثى تباع لقامر بها أيضاً . . وحاول صخر أن يصطحبه معه إلى الغزو فرفض رواحة . . وتطور الأمر بينهما إلى التهاجى . . والتحدى . .

ثم عاد صخر سعيداً من الغزو . لقد روى طائر الصدى أخيراً ، وبلل منقاره الأسود من الدم الصافى ، أباد بنى مرة . وقتل ولد حرملة . ظفر بثأر وحشى كامل . وسوف تظل الجثث عارية . . تأكل منها الجوارح حتى التخمة . . ثم تذروها العواصف . لعل معاوية يهدأ . ولعل أشعار الخنساء تصفو قليلاً . اندفع إلى خيمتها ، يحمل البشرى فوجدها

باكية ، ممزقة الثياب . . شعثاء الشعر والولد الصغير ملقى فى زاوية الخيمة . قالت :

- إنه رواحة . . لقد أخذ كل ما يمكن بيعه . . وذهب !

ودمدم صخر . سيفه مازال دافئاً . لكن «رواحة» هـو ابن العم ، وزوج الأخت

وأشرق وجه الخنساء وهى ترى علامات القتال على ثيابه . . هتفت بسؤالها التقليدى :

- هل ادركت ثارك . . ؟ . .

قال أجل . . وافنيت بنى مرة عن بكره أبيهم !

كان يحسب أنها سوف تهدأ . . لكنها تساءلت فى مرارة :

ـ وحلفاء بنى مرة . . أسد . . وغطفان . . مازالا بخير . . أليس كذلك . . ؟ . .

ووافقها صخر كأن الصحراء كانت مقبرة واسعة . . وعلى الجميع أن يكونـوا فيها موتى !

وفى الصباح عثروا على جثة رواحة . . قالوا إنه تعثر فى الصخور وسقط . لكن أثار الطعان كانت واضحة فى جسمه . نقلوه إلى بيته . ثم إلى قبره . ولم تكن الخنساء قد خلعت ثوب الحداد بعد . لكنها لم تنبح عليه بكلمة . . لم ترثه ببيت . ولم تفكر لحظة فى أن تزور قبره . وظلت ترثى معاوية كأنه هو الذى مات بالامس . لم يبق إلا «عبد الله» . . الشاهد الوحيد لهذه الزيجة !

وتفرغت لصخر . وتفرغ صخر للثأر المطلق . ثأر يقع على كل من شاهد القتلة أو سمع عنهم . ثلاث قبائل كاملة من أجل فرد واحد . . لكن القبيلتين الباقيتين لم تكونا فريسة سهلة . توثقتا . وتعاهدتا . وأحضرتا ربيعة بن ثور أبرع من رمى الرمح فى بلاد العرب . . إستضافوه . . وجهزوا له الأموال والجوارى حتى يأتى وقته . .

وركب صخر فرسه الشماء . وقال لأخته :

- أخشى أن يعرفنى . . ويعرفوا غرة الشماء فيتأهبوا . .

وسودتها الخنسـاء بتراب الفحم . وودعهـا صخر ، تحلى وجهه للمـرة الأولى عن جوده . . وحمحمت الخيل إلى ديار غطفان . وهتفت فتاة من فوق مكان عال : هذه والله الشماء . . لكن قومها ردوا عليها فى بلاهة ، يا حمقاء . الشماء غراء وهذه بهيم . وظلوا ينكرونها حتى دهمتهم الخيل . ونفذ سيف صخر فى اجسادهم . هرعوا إلى ربيعة بن ثور . لقد حانت لحظته . ولم تكن سليم تتوقع هذه المقاومة الشرسة ، ولا هذا العدد الكبير من الفرسان وجهز ربيعة رمحة . ثم أطلقه كالوميض إلى الجانب الأيمن من صدر صخر . لقد حافظ ربيعة على مستواه ولم يخطىء هذه المرة أيضاً وانتزع صخر الرمح . وظل يقاتل . . ويتراجع . . وينزف . .

تناثرت قطرات دمه على غرة الشياء فتحولت إلى اللون الأحمر . وارتمى صخر ــ أشد فرسان الصحراء قوة وضراوة ــ عاجزاً ، فوق فراش داخل بيته . . وهرعت الخنساء إليه . دفعت زوجته بعيداً ، وجلست بجانبه ورأت جرحه . إنه جرح غريبٌ ، فى أسفل الجانب الأيمن من الصدر واسع وعميق . تبرز منه كتلة حمراء دامية بحجم قبضة اليد . . حاولت الخنساء أن تلمسها . أن تعيدها إلى مكانها . لكن صخر . . صخر القوى الصلب ، يصرخ من ألم مميت . إنتفض جسده كله كأن براكين العذاب تفور فى داخله . جاء كاهن القبيلة . إكتشف أن كبد صخر قد خرج عن موضعه . . ولن يعود مرة أخرى .

مات معاوية مرة واحدة . لحظة واحدة . لكن صخراً يموت كل لحظة عشرات المرات . والكاهن يحضر الجمر والاسياخ المحماه . ويكوى شفرتى الجرح وصخر يتوسل اليهم أن يجهزوا عليه . أن يريحوه من عذاباته . . أعطوه كل الأعشاب المداوية . . ولم يكن هناك من يجرؤ على الاجهاز عليه . والخنساء تتأمله . إنه فارسها . ورجلها الحقيقى ولكنه عاجز مثل جواد نافق . . يوم وراء يوم وشهر وراء شهر . وكل من يسأل عنه لا يتغير الجواب . .

- «لا هو ميت فينعى . . ولا هو صحيح فيرجى» !

والجرح مفتوح . فى البداية كان ممتلئاً بالدم . . ثم أصبح ممتلئاً بماء اصفر عكر . ثم لم يعد ينزف غير الصديد . والرجفة تغمر جسده . تلهبه بالحمى والهذيان . والخنساء عند قدميه . تتوسل لكل قوى الصحراء الخفية ان تنقذه . أن يعود الكبد ويلتئم الجرح ، وينهض صخر . لم تكن تتصوره ميتاً أبداً .

وفى اليوم الأخير من علم المرض والعجز . . همس وهو يهذى :

- أنا الذى فعلتها . . ؟ . .

لم تفهم . . كان قد فعل الكثير . . قالت حتى ترضيه :

- أنت قاتلت كل القبائل من أجل ثأرنا .

هز رأسه بالنفى . . وأضاف وهو يشهق : رواحة . .

وكف عن الحمى والهذيان والصراخ أخذ نصيبه من الألم كاملاً . لم يبق للخنساء من يأخذ بالثأر . ان ثأر الكون كله لا يكفيها . . لقد تدفق الشعر كالسيل . . لم تعد امرأة . . اصبحت فقط نفساً غاضبة . وكلما بلى ثوب الحزن ارتدت غيره . وكلما جفت الدموع ، الهبت بالقصائد عيون الآخرين . أشعار جافة ، مباشرة . لا تأبه بصورة أو تشبيه . تكشف عن أغوار هذه النفس الأنسانية عندما يضنيها الأحساس بالغبن .

قيل للخنساء : صفى لنا أخويك صخراً ومعاوية . قالت : كان صخر جنة الزمان الأغبر . وزعاف الخميس الأحمر . وكان معاوية القائل الفاعل . قيل لها فأيهما كان أسنى وأفخر . قالت : أما صخر فحر الشتاء . وأما معاوية فبرد الهواء . . قيل لها . . فأيهما أوجع وأفجع . قالت : أما صخر فجمر الكبد وأما معاوية فقيام الجسد . .

ركبت جملها إلى عكاظ . تذكرت المرة الأولى التى جاءت فيها مع صخر . وقفت تنشد المراثى . وتساءل العرب : هل هناك من هى أعظم مصيبة منها ؟ . . ولكن امرأة أخرى وقفت فى محاذاتها هتفت فى الموجودين مفاخرة :

– أنا أعظم العرب مصيبة !

نظرت الخنساء إلى البكاءة المنافسة ، وسألتها :

– من أنت ؟

– أنا هند بنت عتبة اعظم العرب مصيبة . أبكى أبى عتبة بن ربيعة وعمى شيبة وأخى الوليد . وكلهم قتلوا فى بدر . .

وانطلقت تنشد الأشعار . تحكى عن يوم بدر . وتحرض الجميع على «محمد» الذى أوقع العرب فى الحرب . . وانطلقت الخنساء أيضاً . كل منها تتباهى بقتلاها . وتفضل مصيبتها . تحول الحزن الأنسانى إلى منافسة كلامية . وتفوقت الخنساء بحكم الخبرة . وانصرفت هند مخذولة . لكنها ما لبثت أن أطفأت «حرقتها» حين مضغت كبد حمزة بن عبد المطلب فى يوم أحد . وبقيت الخنساء فى حاجة إلى عدد هائل من الاكباد . .

أفاقت «سليم» وقد عادت إلى مكانتها الأولى . ضعيفة . مكسورة الناب . لا تقدر على رد اللدغة . ذهب «فارساً» آل الشريد . وبقيت أسد وغطفان . خطر دائم متجدد . إجتمعوا . تناقشوا . وكان الاتفاق على الانضمام إلى أكبر القوى الصاعدة ــ والتى تعاديها أسد وغطفان فى الوقت ذاته ــ أن ينضموا إلى الاسلام .

وتألف وفد منهم . ظهرت عليهم امارات الاقتناع المفاجىء بالدعوة الجديدة . والخنساء بينهم . تسير بثوبها الغرابى . كان النبى فى مسجده . وأحست «سليم» أن الأمر مختلف عما تصورت . ليس تحالفاً أو سعياً للحماية . إنه التزام صارم . . يتطلب العطاء قبل الأخذ . . إنها رسالة . . وليست فرصة تنتهز . لكن أحداً منهم لم يتحرك . انسابت كلمات النبى « ص » إليهم وتشربتها نفوسهم كالاراضى العطشى . . وابتسم النبى « ص » فى وجه الخنساء ، وهو يقول : هيه . . يا خناس . .

استمع إلى أشعارها فى حزنها . . أخبرها أن فى الاسلام العزاء لكل القلوب الحزينة . .

تزوجت للمرة الثانية : مرواس بن أبي عمر . شيخ كبير يلائم مزاجها النفسي . ولم يكن صخر موجوداً فتفرغت لحياتها الزوجية ، ووالت انجاب الأطفال . تحاول تعويض أيام العقم والرثاء . لكنها تجردت من كل عواطفها . ومارست الطبيعة دورها خلال جسدها دون أي احساس حقيقي . ماتت داخلها رغبة الاستمتاع بالنزوات الصغيرة . . واصبحت أما . . صارمة . . عكرة المزاج ! .

ولم يمنعها هذا من أن تنجب بنتاً جميلة هي «عمرة» . ظبية صغيرة تملك قلباً متوثباً . يتوق للحب والمرح وأشعار الغزل وهمس العشق عوضت كل ما حرمت منه أمها ، وأخذت تصنع من الخطايا اليومية ذكريات جميلة ! .

ومات النبي « ص » . وانقسمت القبائل . اعتبروا الزكاة وكأنها كانت نوعاً من الاتاوة تؤدى لرجل قوى . وإنتشر الأنبياء «الكذابون» يدعون أحقيتهم بالنبوة . وتذكرت الخنساء أن لها إبناً اسمه عبد الله من زوجها الأول . تذكرت ذلك حين إمتشق حسامه مع المرتدين . وقف خلف طليحة أحد الأنبياء الكاذبين . يواجه جيوش المسلمين . وتبلدت مشاعر الخنساء إلى حد الموت لم تبال إن كان مسلماً أو مرتداً . . نجح في المقاومة أو لقى حتفه . .

لم تهتز إلا عندما اكتشفت وجود علاقة غرامية بين ابنتها عمرة وشداد بن مرواس ابن زوجها من امرأة أخرى . ذهلت من أن تقدم ابنتها على مثل هذه العلاقة المحرمة . ولم تبال عمرة . لقد وقعت في غرام عشرات الفرسان فلماذا لا تقع في غرام شداد وليكن ما يكون ؟ لكن الخنساء وقفت أمامها في حزم . وعندما مات مرواس قطعت كل ما كان يمت إليه بصلة . ورثته بأبيات باردة هشة . لكنها كانت خيراً من اللا شيء الذي كان من نصيب رواحة . وأنهت العلاقة . وهزت عمرة كتفها ، فهي لا تزال قادرة على الحب ، والعالم ملىء بالفرسان الذين لا يمتون لها بصلات محرمة . .

لم ترحم الأيام الخنساء . حولت كل ذكرياتها إلى قبور . ولم ترحم هي نفسها فتحولت أيضاً إلى مقبرة . أمدت روحها بعشق دم الآخرين . وكانت أكثر عطشاً من طائر الصدى ولا أحد يدري كيف إستقام هذا الشعر الجيد مع هذه المشاعر المريضة ! .

حين أقبلت على المدينة ومعها أناس من قومها التقوا مع «عمر بن الخطاب» وقالوا : هذه الخنساء نزلت المدينة بزى الجاهلية . فلو وعظتها يا أمير المؤمنين فقد طال بكاؤها في الجاهلية والاسلام . وقام عمر واتاها . قال : يا خنساء ما الذي قرح عينيك ؟ . . رفعت رأسها وقالت : البكاء على السادة من مضر . . قال : إنهم هلكوا في الجاهلية وهم وقود اللهب وحشو جهنم . قالت . فذاك الذي زادني وجعاً . .

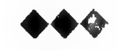
لم تغير ثوب الحداد . لعلها ماتت به ، مرة واحدة في زفاف ابنتها عمرة . التفت في

شال أحمر ، وجلست فى ركن لا تشارك فى الرقص ولا الغناء ، تاركة النساء الغريبات يزين ابنتها . كانت تحاول أن تتذكر ما حدث فى زفافها الأول . . هل غنى أحد أغنية من أجلها . . ؟ . . فوجئت بعمرة تدوس على قدمها . . كانت قد نهضت لقضاء حاجتها وهى ترتدى ثوب العرس . . كانت جميلة بحق . . لكنها هتفت فيها بغيظ :

- يا حمقاء . إننى كنت أحسن منك عرساً . وأطيب درساً . وأبسط منك عرفاً . وأرق منك فعلاً وأكرم منك بعلاً . لا أذيب الشحم . ولا أرعى «البهم» ، كالمهرة الصنيع . لا مضاعة . . ولا عندى مضيع ! .

وقفت «عمرة» ذاهلة . وذهل بقية المدعوين . والأم تسلط لسانها الحاد . لقد اكتشفت أنها لم تكن عروساً فى يوم من الأيام . . لم تحب . . لم تستمتع .

عاشت أيامها كلها فى الشيخوخة . وفقدت بصرها قرباناً لأيام البكاء الحارة . وحين جاءتها الأخبار أن ولديها الأثنين قد استشهدا فى معركة القادسية كانت قد استنفذت كل الدموع ، وكل أبيات الشعر . لقد زاد عدد القبور قبرين . وأدركت بشكل غامض أن كل ما يمت إليها بصلة مقضى عليه . لم يبق إلا هى : وحيدة كئيبة . . تنتظر وقع دبيب الموت الذى تأخر عن موعده !



أميه بن أبى الصلت
المتوهـم والمنتظر الأعظـــم

كان يهذى من الحمى عندما مرق طائران من خلال النافذة ودارا حوله عدة دورات ثم نفذا إلى الفضاء الخارجى . . زعق .

- لبيكما . لبيكما . . ها أنذا لديكما . .
لا برىء فأعتذر . . ولاذو عشيرة فأنتصر . .

هتفت إبنته : إهدأ يا أبى . . أنت تهذى . . دفع يدها وهو يحاول النهوض . . هذان طائراً النبوة . يحملان لى الخاتم والرسالة قالت : أنت تتوهم يا أبى لا توجد طيور . والرسالة مجرد حلم . لكن صدره كان يعلو وينخفض . يسمع صراخ الطيور الحاد وهى تناديه من فوق حواف الصخور المسنونة ومن قيعان الأودية المحترقة وعند الآبار والينابيع حيث تموت الأوهام فى وهج الظهيرة . . يلاحقه الصوت الغريب فى النهار كالنذير وفى الليل كالحلم . . إنهض يا أمية . جاءت أعلام الزمن الجديد . يتفصد جبينه بالعرق ويصرخ : من ذا الذى يرفع الأعلام ؟ . ومن أى الجهات تهب الريح ؟ . . أحس ريح الصبا . . وأحس بريح الموت . . ولكن أين ريح النبوة ؟ .

مرق الطائران خلف النافذة مرة أخرى . . فهتف :

- لبيكما . لبيكما . . هاأنذا لديكما . .
لا مال يغنينى . . ولا عشيرة تحمينى .

نهض من الفراش . دفع ابنته بعيداً خرج من البيت واجتاز الحى وابتعد عن المضارب . يقوده الطائران فى السماء نحو آفاق بعيدة . . رآه قومه من «ثقيف» . . هتفوا به . .

- إلى أين تمضى يا أمية ؟ . .

رآه رعاة الماشية وحداة الأبل وعشاق الآبار الجافة . وكان الطريق الذى يسلكه لا يقود إلى اليمن أو الشام . . لكنها مسارب غريبة يا أمية لا تنى تنفتح وتتشابك كالفخ . . كأنك الطراد والصيد . والقلب الذى أضنته الحمى والانتظار الشاق يصرخ . .

- يا طيور السماء . يا كل الموجودات . من آخر أنبياء الزمن الآتى ؟

يهتفون به جميعاً . .

- أمية بن أبى الصلت . .

أهو السراب الخادع مرة أخرى . . أيتها الطيور توقفى قليلاً وأجيبى على سؤالى . . إذا كنت أنا حقاً آخر أنبياء الزمن الآتى . . فمن هو هذا النبى الذى ظهر من قريش . هذا الفقير البائس . . أتراه قد سلب حقى وسرق منى رسالتى ؟ . .

ولا تتوقف الطيور ، تخترق قطع السحاب المتناثرة وتقوده خلفها . أنفاسه كأنها الحشرجات الأخيرة ، وصدره مثقل وقدماه تغوص فى رمال متحركة . . وأخيراً توقفا فوق تل مرتفع وأخذا يرمقانه بعيونهما المستديرة الحادة . . هتف :

- لبيكما . لبيكما . . هاأنذا لديكما . .
محفوف بالنعم . . محوط من الريب . .

وظل يتسلق التل حتى تجرحت راحتاه . . الاحجار جماجم . والرمل دم جاف . والطائران خفاشان كبيران يلغان فى القاذورات ويرقبانه فى تحفز . . توقف مشدوهاً ثم هتف فى يأس مطبق . .

- لقد خدعتنى السماء . .
وأغمى عليه ، حتى عثر عليه بعض الرعاة من قومه وشاهدوا طائرين أسودين يجثمان على صدره وينقران لحيته .

لم يزل أمية بن أبى الصلت فى الانتظار . منذ أن شب ووعى . رأى الصحراء المترامية تسكنها بطون وقبائل متفرقة لا يحكمها غير قانون الثأر . . والأصنام الضخمة تنتصب حول الكعبة . والتجار يستخدمون كل الوسائل من أجل الكسب . والعبيد يلدوون تحت شمس الصحراء القاسية تعباً وعرقاً . وبيوت اللهو تمتلىء بالحالمين التعساء . . سافر أمية شمالاً إلى الشام . وجنوباً إلى اليمن . باع وكسب وخسر وعرف ، واتسعت حدود العالم وانبسطت اليابسة . شاهد الرهبان فى أديرتهم المتناثرة واليهود فى معابدهم . ورأى الأحباش اتباع

سيف بن ذى يزن يمضون عمرهم فى مصغ القات بعد أن تخلت عنهم الهالات الاسطورية . . وأحس بنظرات الاحتقار التى يلقيها الفرس والروم على كل ما هو عربى . . وعندما كبر قليلاً بدأ يقرأ قرأ كتباً لم تقرأها العرب وعرف نبوءات لم يسمع عنها أحد من قومه وهيأ نفسه من أجل رسالة كانت جنيناً فى بطن الغيب . أدرك أن الأصنام باطلة والخمر فاسدة والكون زائل فلبس السواد وتمسح بالزيت . . وإنتظر .

قال أمية بن أبى الصلت يحدث صاحبه . .

– إن ها هنا راهباً عالماً أخبرنى أنه تكون بعد عيسى عليه السلام ست رجعات وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة وأنا أطمع فى النبوة وأخاف أن تخطئنى

كانت قبيلته «ثقيف» حملا تنوء به أكتافه . يحمل لعنتها واثمها المتكرر وسط عالم يقيم كل شىء وفقاً لسلسة طويلة وقاسية من الانساب . تنحدر ثقيف من أياد . . وأيّاد من ثمود . الذين قتلوا نبى الله صالح وعقروا ناقته . هنالك حديث نبوى يقول .

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يحب ثقيفاً . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يبغض الأنصار» .

ما من مكان يذهب إليه ثقفى إلا وخرج له من يعايره بثمود . . وكلما فاخر العرب بعضهم بعضاً ـ والمفاخرة هى عدة الأمة العاجزة ـ عدّوا ثقيفاً من غير العرب . وظل رمز عارهم ممثلاً فى قبر «أبو رغال» كلما مرت به قافلة أو جماعة رجمته بالحجارة كأنما ترجم ثقيفاً كلها . كان جدهم الأكبر وأول ملوكهم . كان ظالماً حتى أنه ذبح الماشية التى كانت تمد الأطفال الرضع باللبن . . وكان دليل جيش «ابرهة» . . بعد أن رفضت كل القبائل أن تدله على الطريق للكعبة دلهم أبو رغال وهلك فيمن هلك منهم ودفن فى مكان بين مكة والطائف ومر الرسول بقبره فأمر برجمه فرجم . فكان ذلك سُنة . .

ظل أمية يحس بوطأة هذه اللعنة فى أعماقه . تسرب إليه اللا شعور الجماعى الذى كان يثقل كل أفراد قبيلته بالعار . حتى أن اللعنة تحولت إلى وضع إجتماعى ثابت . لكن رغبة التطهر الحارة كانت تؤرقه . لم يصور الاصفهانى مثل هذه العاطفة الجياشة وهذا التوق الذى كان يفور بنفس هذا الرجل . كان فى الرسالة التى ينتظرها خلاصه ، وخلاص قومه ، ورفعهم من مرتبة القتلة إلى مرتبة المبشرين .

لقد ولد لديهم الشعور بالذنب رغبة متطرفه فى التفوق . . يقول أبو الفرج عن أمية وقومه . .

– اتفقت العرب على أن اشعر أهل المدن أهل ثقيف . . وأشعر أهل ثقيف أمية بن أبى الصلت . .

وبسبب وطأة هذا الشعور ولد الانبياء المتوهمـون مثل أميـة . وخرج القـادة القساة المتعطشون للدم مثل الحجاج بن يوسف الثقفي . .

بدأ الأمر مثلما تبدأ الأحلام . كان نائماً وانشق السقف عن طائرين . وقف أحدهما صدره فشقه . أخرج قلبه فشقه . قال الطائر الأعلى : أوعى ؟ . . قال الطائر : وعى . . قال : أقبل ؟ . قال · أبى ، واسرعا بالتحليق مبتعدين . وجلس أمية يمسح صدره . قالت ابنته . .

– يا أبى . . هل تجد شيئاً . . ؟ .
قال . . لا . . ولكنى أجد حراً فى صدرى .

وفى السماء هوى شهاب قرمزى أمام عينيه فاعتقد أنه النداء الذى ينتظره . وثغت شاة صغيرة فعرف لغتها وعرف أنها تشم رائحة الذئب . وتنبأ غراب أسحم بموته . سافر مع القوافل شهوراً وسنينا باع الكثير وربح الكثير . . لكن النبوة كانت حلم الخلاص . . إنتشر شعره الجلجل الملىء بالألفاظ الغريبة والصور الأشد غرابة . . لكن معانيه كانت تدور عن الآخـرة والبعث . . وتساءل عنـدما تثاقلت الأيام . . متى تجىء السـاعـة . ويهبط الوحى ؟ . .

حدثوه عن راهب يعرف علوم الأولين ويعرف ميقات نبى الزمان الآتى . وفى أحدى رحلاته ترك القافلة وظل يخب بناقته عبر فيافى موحشة حتى رأى الصومعة الوحيدة والراهب الوحيد . هبط إليه . كأنما كان الراهب ينتظر قدومه . . قال له :

– يا أمية ان لك تابعاً لا تراه يسعى خلفك . .
قال امية بفرح حقيقى :

– نعم . . أحس بذلك منذ كنت صغيرا وصوته يلاحقنى .
سأله الراهب : من أين يأتيك ؟ . قال أمية : من أذنى اليسرى . . سأله : بـأى الثياب يأمرك . .
قال : بالسواد .
سأله : ما مركزك وسط قومك ؟ قال · أنا سيدهم وأكثرهم مالاً . .
قال الراهب بأسف . .

– لقد كدت أن تكون النبى المنتظر . لكن الآخر . يأتيه تابعه من أذنه اليمنى ويأمره بلبس البياض . وهو أفقر قومه وأقلهم مالاً ، لكنه أشرفهم نسباً . . أما تابعك فهو من الجن ولا شك . .

ظل أمية يحدق فيه . لا يستطيع متابعة الكلمات . ينتظر أن يغير الراهب أقواله . . يعدلها . . همهم . . ليس أنا . . هتف في حيرة . . واحد آخر غيري أشد فقراً وأرفع نسباً . . وظلت ابتسامة الراهب ثابته . . أى أمل أضاع وأى حلم حطم . . وركب ناقته وواصل سيره للشام . باع واشترى . كسب وخسر . حدث نفسه بإطمئنان : لا يوجد من هو أحق منى بالرسالة . . تطلع للسماء البعيدة : هناك إله واحد . . إله ابراهيم واسماعيل . . الأصنام التي يحملها أصحابه ويتباركون بها باطلة . . . الخمر التي يقتلون بها الليالي فاسدة . . ويبقى هو . . نقياً كما الثلج في جبال الشام . . صريحاً كشمس الصحراء . عميقاً بعيد الغور كالبحر الممتد . وتساءل عن حرقة : كيف يكون النبي فقيراً ؟ . .

وفي طريق العودة إنفصل عن القافلة . وسعى براحلته مرة أخرى عبر الفيافي إلى نفس المكان . الراهب الوحيد والصومعة الوحيدة والابتسامة الثابتة . . ترجل عن ناقته وسأل . .

- متى يظهر آخر الأنبياء ؟ . .
قال الراهب على الفور :

- يا أمية لقد كانت الرجعة . . وقد بعث نبي العرب وكل السماء تتألق بنجوم دعوته .

وازداد ذهولا أمية . . ضاع عمر الانتظار الطويل وظل طوال مدة السفر وهو يرتعد ويحس الخديعة . . حتى الشهب التي تهوى ليست أكثر من أكاذيب . . وبعث فيه الحداء الطويل الممتد شعوراً بالحيرة فبكى . . وعندما يبكي الرجال في الصحراء فهذا ليس من الأمور الهينة .

عندما وصل إلى بيته لزمته الحمى وإستبد به الهذيان . لكن الأخبار لاحقته داخل الفراش كدقات الطبول المنذرة . كلها تتحدث عن النبي الجديد والدعوة الجديدة . تتحدث عن فزع السادة وعن فرح الفقراء والعبيد . هذه أيام الريح المواتية والحياة المتدفقة . . عبر الحصار والاضطهاد وفي وجه كل العادات المتوارثة والعبادات والطقوس والأوضاع الاجتماعية والمصالح والاوامر القبلية وفوق العصبيات وقوانين الدم وشرائع الصحراء كانت الدعوة تولد ، كان الفقراء يجمعون عليها مثل الجوهرة ومثل جمر النار .

لم يطق رقدته . . تسلل من بيته حتى عرف المكان الذى يجتمع فيه أتباع محمد النبي إختبأ خلف أحد الحواجز وأخذ يتطلع إليهم . . جماعة من الفقراء والعبيد ومعذبي الأرض يجلسون تحت شمس الصحراء القاسية يتدارسون ، وجوههم نحيلة مدبوغة ، وأجسادهم دأبت على العمل اليومي . والنبي الجديد جالس في وسطهم وعيونهم مشدودة إليه . .

عندما يتكلم تتدفق فيهم الحياة وتنقلب موازين الكون البالغ القدم . أدرك أمية أن الهواتف خادعة ، وأن لبس السواد ومسح الزيت لا يهب خلاصاً . إن هذا الرجل الفقير الجالس وسط دائرة الفقراء وحده يملك القدرة على التغير لأنه يعرف ماذا يريد أن يغير .

تطلع أمية إلى نفسه . كان سيداً وكانوا بؤساء . . كان يحمل جرح اللعنة الذى لا يندمل . . وكانوا يحملون خلاص العالم كله . .

وبدلاً من أن يستعيد توازنه النفسى . أخذ قلبه ينبض بغيظ متأجج . . لقد خدعنى وأخذ رسالتى . سلب النبوة منى . . ومضى فى طريقه . يثير الرثاء أكثر مما يثير السخرية . يحس بالعالم وهو يتغير حوله دون أن يملك القدرة على المشاركة . . وتساءل فى حيرة .

– هل يعتنق الاسلام . . هل يرضى أن يكون تابعاً بعد أن وهب عمره كله ليكون نبياً . .

وزادت وطأة الحمى فأخذ ينادى الطيور التى خدعته . ويلعن الراهب الذى سرق منا البشارة . ومشى يتخبط بين الخيام . يلقى آخر تعاليمه ويدعى أن الوحى قد أخطأ طريقه فى الهبوط . . مجرد خطأ صغير . . لكنه قاتل . . لكن الأوضاع سوف تتحسن . . ها هى تعاليمه . . وهذه هى نبوته .

قالوا له . . أسلم . لعل فى الاسلام خلاصك .

رد غاضباً :

– اعلم أنه قد دنا أجلى . . وهذه المرضة منيتى . . ولكن الشك يداخلنى فى محمد .

رأى المسلمين يعذبون . رآهم يهاجرون بعيداً عن أراضيهم وديارهم لكن الرسالة تطوى الصحراء كالسيل . . وبقى وحيداً . نبياً بلا ظل .

يقولون : إنه بينما كان يشرب من أحد الكؤوس جاء غراب اسحم ووقف على حافة النافذة . تطلعا لبعضهما – أمية والغراب – ملياً . ثم قال أمية . .

– سوف تقع من فوق حافة النافذة . . وتموت .

رد عليه الغراب :

– وأنت تشرب من هذه الكأس رشفة واحدة . . وتموت . .

ووقع الغراب من على حافة النافذة فمات .. ورشف أمية آخر شرابه ومضى مضى المتوهم والمنتظر الأعظم ..



الحطيئة

إنسان بلا ظل

ذهب الحطيئة إلى أمه يسألها عن أبيه الحقيقي .

كان وجهها الذى كان جيلاً قد تغضن . قالت أنها لا تدرى . أوقد الحطيئة ناراً ووضع فوقها قدراً ممتلئاً بالماء . وعندما إرتفع البخار حمل أمه وأقسم أن يلقيها فى القدر إن لم تخبره بالحقيقة . إرتعدت الأم وقالت : إنهم كثيرون . قال محنقاً . كم ؟ قالت : لا أذكر لكنهم كانوا من بنى ذهل وبنى عبس لكنى لا أذكر عددهم . تركها وجلس مقهوراً . لم تعرف الأم أين اخطأت بالضبط ، فقالت تهون عليه . لم أضاجع إلا أشرف الناس أنت بصورة أو بأخرى شريف النسب

هكذا يمضى ذلك الرجل المفرد قبيحاً مثل ناقة حرون . بالغ القصر مثل نبات صحراوى . مغمور النسب . لا ظل من شرف يحتمى به . ولا سند يمنع اهدار دمه . حتى أن «أبا الفرج» يقول :

– كان الحطيئة جشعاً . سؤولاً . ملحفاً دنىء النفس . كثير الشر قليل الخير بخيلاً . قبيح المنظر . رث الهيئة ، مغمور النسب ، فاسد الدين ، وما شاء أن تقول فى شاعر من عيب إلا وجدته وقلما تجد ذلك فى شعره .

كان وحيداً فى مواجهة مجتمع كامل . فى مواجهة تقاليد وقوانين ضاربة الجذور . يعيش هو على حوافه على أطراف المضارب وعلى عطايا كرام الناس . . أو الذين يخافون لسانه . . لا يعشق . لا يتشبب لا يحلم إلا بموطىء قدمية . . لم يملك شيئاً إلا لسانه . . يهجو أخوته المزعومين من بنى ذهل الذين حرموه من ميراث مزعوم . ويهجو أمه التى تزوجت ابن زنا يدعى كليبا ، ويهجو سادات القبائل الذين أمسكوا أيديهم عنه . ثم يقلب الهجاء مدحاً

فى نفس واحد حين يأخذ . . وعندما ضاقت الدنيا به ذات مرة ولم يجد أحداً يهجوه . نظر فى الماء فرأى وجهه القبيح ولم يتمالك فهجا نفسه . .

أرى لى وجهاً شوه الله خلقه
فقبح من وجه وقبح حامله . .

وعندما جاء الاسلام أسرع بالدخول إليه . . يؤرقه حلم المساواة الشاملة . لعله يذوب بين جوعه . . لكن تفرده الوحشى ما لبث أن طغى عليه فارتد فى ولاية أبى بكر . . كانت رغبته فى الانتساب حارة ، وقافيته شاردة . يقول القصيدة فتشرد فى كل الاركان . كان إذا غضب على بنى عبس هجاهم وقال أنا من بنى ذهل فإذا غضب من بنى ذهل هجاهم وقال أنا من بنى عبس . . ولأن الشعر كان الزاد اليومى فقد توقاه الجميع . وحاولوا توقى لسانه الذى لا ينضح إلا شراً .

جاء الحطيئة يوماً إلى المدينة وكانت سنة مجدبة تغمر الصحراء بريح الجوع . رأى الجميع قامته القصيرة وهو يسير أمام ناقته يتفرس فى البيوت والمضارب حتى جلس على باب المسجد . فزع أشراف المدينة . مشى بعضهم إلى بعض . . قالوا . .

- هذا الرجل شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، وهو يأتى الرجل ويسأله فإن أعطاه جهد نفسه مدحه ، وإن حرمه هجاه . .

واجمعوا أنفسهم أن يجعلوا له شيئاً معداً يجمعونه بينهم . فكان أهل البيت من قريش والأنصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين ديناراً حتى جمعوا له اربعمائة دينار . . وظنوا أن هذا كافياً . . واعطوها له . . لكنه ما لبث أن هجاهم وأسرع بالانصراف .

كان يمقت نفسه . يمقت أمه التى جاءت به سفاحاً . ويمقت كل القبائل التى تعتز بأنسابها وتظل تسلسل حلقاتها حتى تصل إلى «اسماعيل» ويمقت الذين يعطونه العطايا خوفاً منه . . ويمقت المديح الذى يقوله لمن ليس أهلاً له . .

عاش يجوب الجزيرة كلها مثل وحش الفلاة . . والقبائل تردد شعره وتدارى خوفها والشعر الذى لا عيب فيه ـ كما يقول النقاد الاقدمون ـ ينتشر ؛ حتى أن أحد الأعراب يروى أنه كان ذات ليلة يسافر عبر الصحراء فنزل فى ضيافة قوم هيئتهم غريبة . قدموا له طعاماً لم يجد أسوأ ولا أثقل منه على معدته . . وقال شيخهم لأحد الشبان .

- سامر ضيفنا . .

فوقف الشاب وأخذ ينشد أشعار «الحطيئة» كلها . كلما فرغ من قصيدة تلاها بأخرى .

ودهش الأعرابي لهذه الذاكرة الحديدية . . وسأله عن ذلك فقال الشيخ برصانة . .

- نحن من الجن . . وهذا الفتى أخو الحطيئة في عالم الجن .

وصدق الجميع الحكاية بالطبع . وصدقها أبو الفرج نفسه ، وجاء بقائمة طويلة من الاسانيد التي تثبت صدقها .

مرة وحيدة تعرض فيها «الحطيئة» لمأزق حرج بسبب طول لسانه . وكانت هذه المرة مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . كان مثل الكثير من الحكام لا يكن احتراماً لهذا النوع من الشعراء ، وهو ويسمع أعراض المسلمين وهي تسب كل يوم ويشهر بها . . ولعل أنباء ارتداد الحطيئة قد تناهت إليه وتندره عندما ولي «أبو بكر» فقال بيتين شهيرين يعلن فيهما تنصله :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا . . فيا أهل حسب الله ما لأبي بكر
أيورثها بكر إذ مات بعده . . وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وكان الحطيئة قد هجا أحد ولاة المسلمين ويدعى «الزبرقان بن بدر» هجاء فاحشاً . وسب امرأته وأهله . . جاء الوالي إلى عمر بن الخطاب يشكو ، وروى الشعر . إستشار عمر من حوله فأقروا شكوى «الزبرقان» . وكانت حجة مناسبة للقبض على الحطيئة . فقبض عليه ووضعه في بئر عميق ووضع عليه غطاء ثقيلاً وأقسم أن يريح المسلمين من شر لسانه . .

وظل الحطيئة حبيس البئر . يقول الأشعار ، ويتوسل أن يفرج عمر عنه . وللمرة الأولى عرف اللسان العصي طعم التوسل . جاء عمرو بن العاص يتوسل للخليفة . . فقال :

- ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة . .
أمر الخليفة فأخرجوا الحطيئة من البئر ، ووقف أمامه وأمام الجميع مقيداً منكس الرأس . قال عمر :

- علي بالكرسي . .

جاؤا بكرسي فجلس عليه في مواجهة الحطيئة وأشار إليه باحتقار :

- اشيروا علي في الشاعر . فإنه يقول الهجو . وينسب بالحرم . ويمدح الناس ويذمهم بغير ما فيهم . ما أراني إلا قاطعاً لسانه .

وأمر من حوله : على بالطست . . جاؤوا به ووضعوه بينهما قال :

– على بالسكين . لا بل على بالموسى فهى أسرع . .

أمسك الحرس برأس الحطيئة . ضغطوا بأصابعهم على وجنتيه حتى انفتح فمه رغماً عنه وسال لعابه وتدلى اللسان الذى قال عشرات الأبيات مدحاً وهجاء وتشفيا . لكن عبد الرحمن بن عوف وقف بين الموسى واللسان المتدلى وهتف :

– يا عمر . . سوف تكون سنة تتداول من بعدك .

وتوقف عمر . خفت صوت الحاكم القوى . والموقف الذليل الذى عاشه الشاعر أقسى من أن يحتمل . . ولو أن عمر فعلها لكانت ألسنتنا كلها مقطوعة لأوهى الأسباب ! . .

قال عمر مهدداً :

– إياك وهجاء الناس . .

قال الحطيئة وقد اقترب من النجاة :

– إذا يموت عيالى جوعا . هذا مكسبى . ومنه معاشى .

– فإياك والمقذع من القول . .

قال : وما المقذع ؟ . .

– ان تخاير بين الناس فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . .

قال الحطيئة وقد بدأ يستعيد وقاحته :

– فأنت والله اهجى منى .

قال عمر مغتاظاً :

– والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك ولكن اذهب . . فأنت له . خذه يا زبرقان .

ووضعوا العمامة حول رقبته وسحبوه منها . وظلت الوفود الحاضرة تتبادل السخرية به . حتى تركوه أخيراً فى الصحراء . المكان الوحيد الذى كان يشعر فيه بالأمان .

ورغم أن عمر بن الخطاب قد إسترضاه بعد ذلك . وأراد أن يؤكد عليه الحجة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم . إلا أن هذا الحادث ترك فى نفسه أثراً عميقاً . وزادت درجة توحشه . وازدادت درجة تباعده عن الاسلام . . لعله وجد السبب الذى ينشده . . كان يأخذ زوجته وابنته ويطوف أحياء العرب ، ويجلس فى أطرافها ،

ويطلب ألا يكلمه أحد . ولا يزوره أحد . ولا يتشبب أحد بنباته . . وكلما ذكر عمر ارتعدت مفاصله حتى بعد أن مات الخليفة . ازدادت أيضاً درجة بخله وأصبح يفزع من استقبال الضيوف ، وأخذ يتندر على سذاجة «حاتم الطائى» الذى قاده الكرم الاحمق إلى الافلاس حتى أوشك أن يذبح ابنه ذات ليلة . . ورأى جثة أمه وهى ميته . متيبسة الأعضاء . تساءل : كيف يمكن أن تضاجع هذه المرأة أشراف القبائل . وكيف يمكن أن يكون هو سليلهم . . كانوا يقابلونه فيسألونه :

- يا حطيئة . . من أشعر الناس ؟
فيخرج لسانه كأنه لسان الحية . . ويقول :

- هذا إذا طمع .
ثم يهتف :

- إنى اعوى فى أثر القوافى عواء الفصيل الصادى . .

ويقول النقاد القدامى كعادتهم عندما يطلقون الأحكام القاطعة . . «لم تقل العرب بيتاً أصدق من قول الحطيئة» :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه . .
لا يذهب العرف بين الله والناس . .

ويروون أن أحد أحبار اليهودية كان يستمع للشعر فلما ذكر أمامه هذا البيت هتف مدهوشاً . .

- والذى نفسى . . بيده . . إن هذا البيت لمكتوب فى التوراة .

وعندما جاءت النهاية كان قد أصبح شيخاً حطماً . لم يبق فيه نشطا إلا لسانه . . اجتمع قومه حوله . . قالوا :

- يا أبا مليكة (ومليكة هو اسم ابنته) . . أوص .
قال : ويل للشعر من رواية السوء .

قالوا : أوص رحمك الله يا حطيئة . .

- ابلغوا غطفان أن الشماخ شاعرهم هو أشعر العرب إذ يقول . .
إذا أنبض الرامون عنها ترنمت . .
ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز . .
قالوا : ويحك . أهذه وصية . أوص بما ينفعك .

– ابلغوا أهل ضابىء أنه شاعر حيث يقول . .
لكل جديد لذه غير أنني .
رأيت جديد الموت غير لذيذ . .
قالوا : أوص ويحك بما ينفعك .

– ابلغوا أهل امرىء القيس أنه اشعر العرب . . حيث يقول .
فيالك من ليل كأن نجومه .
بكل مغار الفتل شدت بيذبل .

قالوا . . اتق الله . ودع عنك هذا . . هذا لا يغنى عنك شيئاً . . لكنه أخذ يتمتم بصوته الاجش . .

– الشعر صعب وطويل سلمه .
إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه . .
قالوا يا أبا مليكة . . ألك حاجة ؟ .

– لا والله . . ولكن اجزع على المديح الجيد يمدح به من ليس له أهلاً .
قالوا : فمن أشعر الناس ؟ . .
اشار إلى فمه وأخرج لسانه وقال :

– هذا إذا طمع فى شىء . أو إذا استعبر باكياً . .
قالوا : قل لا إله إلا الله . .

فأشاح بوجهه . .
قالوا : ما تقول فى عبيدك ؟ . .

– هم عبيد . . أقنان . ما عاقب الليل النهار .
قالوا . . فأوص للفقراء بشىء .

– أوصيهم بالالحاح فى السؤال ، فإنها تجارة لا تبور .

قالوا . . فما تقول فى مالك ؟ .
قال . . للانثى من ولدى مثل حظ الذكر .
قالوا . . ليس هكذا قضى الله جل وعز لهن .

– لكن هكذا قضيت . .

قالوا : فما توصى لليتامى .

- كلوا أموالهم . . وانكحوا أمهاتهم . .

قالوا : فهل شيء تعهد فيه غير ذلك .

قال . .

- نعم . تحملونني على أتان . وتتركونني راكبها حتى أموت ، فإن الكريم لا يموت على فراشه . والأتان مركب لم يمت عليه كريم قط .

كانت النهاية مضحكة بعض الشيء . حملوه على حمار وجعلوا يطوفون بين مضارب الحي . يتبعه سرب من الأطفال المتصايحين والشيوخ الذين يؤكدون أنها علامة الساعة .

واختبأت النسوة الحوامل حتى لا تنطبع صورته البشعة في أذهانهن . . وظل هو يعرف بكل الأشعار التي قالها والتي حفظها حتى مات .



الرحيل إلى أرض تميم

ناديت عليك يا تميم فى الآبار القديمة . فلا صدى . الربع خال . والأحياء دارسة . والصحراء صامتة . وكراهيتى لكم تملأ قلبى . إننى تائه يا بنى يربوع . ضائع يا بنى دارم . غريب يا حنظلة . فقدت هويتى عند أول بئر . ولم يزدنى السفر إلا عطشا خرجت معكم فى الغارات . قتلت ولم أأسر . فقسمت الأسهم وقت الغنائم وضاع نصيبى ذهبت إلى «الوقيط» فوجدت فرسان بكر يسلبون جثث قتلاكم . وفى «جدود» لم أجد إلا الطيور السوداء وقد أتخمها اللحم الميت . وفى «أياد» كانت كل الينابيع ملوثة . . وفى «قشاوة» . «والوقبى» . . «والشباك» . .

إنى أكرهكم . حولتم كل الربوع إلى مواقع وعيون الماء إلى مخابىء وهمسات العشق إلى صيحات انذار . فماذا يبقى فى الرمل بعد عشرات السنين . وهل جاء ذلك النفط الاسود اللزج إلا من عظام موتاكم ونخاع اعدائكم . . فلماذا لا تظهرون وتنحدرون نحوى كالسيل . تأخذون بمشورة أكبركم وتأتمرون بأمر أصغركم . تحاصروننى وتجلدوننى . وتطلبون فديتى من حشاش الأرض . .

تميم من مضر . ومضر من نزار . ونزار من عدنان . تناسل الآباء . وتصارع الابناء . وتفرقت القبائل مع التضاريس . كانت تميم ثلث العرب . وجهها شطر الصحراء وظهرها للخليج . أمامها قبائل ربيعة . . بكر وتغلب وشيبان ... وخلفها بضع من فقراء الصيادين . .

كل صعاليك العرب قابلونى . وسألونى فى دهشة . ولماذا تميم وأنت تكرههم ؟ قلت . . لأنهم يتحركون خارج مثالية التاريخ . يحملون أخطاءهم الانسانية ويرحلون . ينتصرون انتصارات خاطفة . وينهزمون هزائم مرة . وقال لى الشيوخ العجائز . إذا اردت

تميماً فتوجه إلى مغارات الملح . قلت فى دهشة . . مغارات الملح ؟ . . فى وسط الصحراء . . ؟ . . قالوا وهم يعبثون فى لحاهم . . مع تميم عليك أن تتوقع أى شىء . .

كنت أعرف ذلك . مع تميم عليك أن تتوقع أى شىء . عندما شعروا بالضعف وقرروا أن يدخلوا الاسلام . وتوجهوا إلى يثرب فقال كبيرهم : إن النبى يحرم الغزو . فماذا لو غزونا الأخيرة فى الطريق ثم نعلن توبتنا . . وفى الطريق إلى يثرب غزوا احدى القبائل . وقسموا الغنائم وجلسوا بين يدى الرسول . . سعداء . . شبعى . . وأعلنوا إسلامهم وهم يتنهدون فى راحة . .

مع تميم عليك أن تتوقع كل شىء . . حين إنقسم المسلمون وبدأوا عصر الشتات مبكراً . تقابل جمع من الخوارج مع جنود الخليفة الأموى . وظلوا يتقاتلون النهار بأكمله . وأطبق عليهم ظلام الموت والسيوف مازالت تصطك . وقالت فئة منهم : ويلكم أما تملون القتال . قالوا : كلا حتى تملوا أنتم . وسألوهم : من أين أنتم . قالوا : من تميم . وتواصل القتال . .

مع تميم عليك أن تتوقع كل شىء . . يقاتلون فى غير زمن القتال . ويهجمون لمجرد نزوة سانحة . ويهزمون قبائل مجتمعة . . ولكنهم ينهزمون شر هزيمة أمام بطن واحدة من البطون وهم الوحيدون منذ أن توالى الرسل والأنبياء الذين أخرجوا نبياً انثى . عندما جاءت سجاح بنت الحارث تهتف بهم . إنما أنا امرأة من بنى يربوع . . وإن كان ملك فالملك ملككم . وكان كل واحد من تميم يعتقد أنه ملك فى المنفى . وتبعوا سجاحاً دون وعى . كان النبى الحقيقى قد مات . وأخرجت كل قبيلة نبيها الخاص . ولكن النبى ـ المرأة خذلتهم عند أول منعطف . تقابلت مع مسيلمة الكذاب وقال لها . . « أتزوجك فآكل بقومى وقومك العرب . . » فتزوجته لأسباب بعيدة عن النبوة . وكان صداقها أن رفع صلاة العشاء وصلاة الفجر عن كاهل قومها . . وجاءت جيوش ابن الوليد واجتاحت كل شىء . . ومع تميم تتوقع كل شىء . .

الرحيل إلى مغارات الملح . .

بدأت رحلتى إلى مغارات الملح . لعل أحداً يدلنى إليهم . أشتعل الدم فى عروقى وأنا أواصل الليل بالنهار . كنت لا أتلفت خلفى حتى تتم سفرتى . فى الصحراء لايلتفت إلا العاشق حتى يعود . كنت أفعل كل ما يفعله التائه . أقلب ثيابى وأصيح فى اذن ناقتى . وأصفقه . واهتف . . . النجاة . . النجاة . الساعة . . الساعة . لعلى انجو من مغارات الصحراء . أعوذ بكل أصحاب الوديان . وكل ساكنى الهضاب . واشعل ناراً لاترك ذكرى . .

وفى النهاية وصلت إلى مغارات الملح . تركت ناقتى وقناعى وسيفى الصدىء فى

الخارج . ودخلت . . لم ألق سلاما . ولم أتل تعويذه . وحاصرتنى أعمدة الملح . . كنت محملا بصهد الصحراء . وببعض من شمسها . . والمغارات مليئة برطوبة الزمن المتحجر هتفت يا تميم ثلاث مرات . فى الأولى جاوبنى الصدى كالبكاء وفى الثانية عوت كل حيوانات البرية . وفى الثالثة ظهر الفرزدق ؛ قبيح الوجه كما هو ، شاحباً كما لم يكن من قبل ، عباءته الدقيقة مغطاه بالملح والتراب . . قال فى هدوء كأنما كان يتوقع مجيئى .

- أنا دليلك إلى تميم . قبيلتى ومنفاى .

سرت وراءه صامتاً . آخذنى فجأة إلى عالمه الملحى . كأن مغارة الملح كانت موجودة فى داخلى . كل شىء يصبح هشاً حين تلمسه . أشار الفرزدق بيده . جسد امرأة ممدد أمامنا . ذراعاها متقاطعان فوق صدرها والملح يحيط بها من كل جانب كأنه كفن رمادى رقيق وقال فى صوت منهدج :

- هذه هى «النوار» زوجتى وإبنة عمى المسكينة . تزوجتها رغماً عنها وليلة عرسنا هربت وأخذت اطاردها من قبيلة إلى قبيلة . . كل واحد جرؤت على ايوائها هجوته أشنع الهجاء . حاربت العرب كلهم بلسانى فلم تجد ملجأً إلا بيتى ولكن الموت اجارها . لم يرهبه هجائى . . ولم يستهوه مديحى . .

سرت خلفه صامتاً . لم يكن يبدو نادماً . كان تميميا قحا ، وغدا حتى النخاع . . أشار إلى رجل آخر نائم فى غلالة الملح الرمادية وقال فى همس خائف . .

- وهذا قطرى بن الفجاءة . من الأفضل ألا نتكلم عليه وإلا هدم الخليفة المغارات فوق رؤ وسنا . .

بدأت أشك فى نواياه . لماذا كان هو التميمى الوحيد الذى بقى حياً وكيف قاوم الملح والرطوبة . أشار إلى رجل آخر مفتوح العينين ينظر إلينا فى حنق . . قال متوجعاً .

- وهذا جرير . عدوى وتوأم روحى . كنا نلتقى خلسة بعيداً عن الجميع نشرب سوياً ونتناشد الأشعار . فإذا افترقنا تهاجينا وتناقضنا كما يهوى العامة والسلطان .

لم يخدعنى صوته المتهدج . كنت أحس بتميم وهى تنتفض . تحتج على هذا التقدم الرسمى الباهت . تملأ المغارات بضجيجها وعنفها واخطائها البشرية . وتصنع من كل هذا شمساً صغيرة باهته . جاء عمرو بن يربوع . حكى لى قصة زواجه بإنثى الغول . كان سعيداً معها . وكانت هى لا تخشى شيئاً إلا برق السماء . ولكنها ذات ليلة فاجأها البرق فصرخت ، وفرت هاربة فى عرض الصحراء ولم يرها بعد ذلك . كان يتحدث عن جمالها الوحشى . وعشقها المليء بالشراسة . وجاء بشارة العنبرى الأعور حين حذر قومه من هجوم قبائل ربيعة فلم يصدقوه وخرقوا عينه الأخرى . ونهنه متمم بن نويرة يبكى أخاه

مالكا . إن الشجا يبعث الشجا . والعالم كله مغارة ملح واسعة . . كان مالك سيدا سمحا كريماً . وفي زمن الردة وقع أسيراً في يد خالد بن الوليد . وحدث الخطأ المأساوي وقتل مالك . وزادت فداحة الخطأ عندما تزوج ابن الوليد من زوجة المقتول حتى قبل أن تكمل عدتها .

كانت تميم تنهض حيولهم تصهل . . يستعدون لبعث جديد ولغزوة جديدة . وصدى الطبول يتردد عبر المغارات الموحشة تختلط بأصوات الملح وهم ينفضونه من على ثيابهم . . وجاء إلى خيبرى بن عبادة . . امتشق حسامه وهتف بي في حدة .

– هل تذهب معنا إلى «المشقر»

ولم أجب . ولكن أصواتهم إرتفعت تهدر . انتقلوا من الصمت إلى الغضب في سرعة تميمية هائلة . . استعزتهم صرخة الحرب وهتفوا جميعاً هيا إلى «المشقر» سوف نبدأ من هناك . . .

الرحيل إلى زمن «المشقر» .

على شاطىء الخليج ينتصب حصن «المشقر» . بلا شموخ ولا وقار . حصن بدائي من ترسبات البحر . والمحار الفارغ . والطحالب الصلبة والصخور الجيرية . بابه الخشبي عليه سلسلة حديدية صدئة . والحصن كله مترب . فيه عفونة دائمة تنبعث من سردابه الممتد الذي لا يخلو من القتلى أبداً . وكان «المكعبر» عامل كسرى على البحرين والشاطىء الشرقي للخليج قد آل على نفسه ألا يدع من تميم عيناً تطرف وجلس ينتظر مقدمهم من عرض الصحراء .

وكان «هوذة» عامل كسرى على اليمامة ينتظر قدوم القافلة السنوية التي يرسلها كسرى انوشروان إلى اليمن تحمل الاسلحة والأوامر الجديدة وحكام المقاطعات وكل ما يهم الحامية الفارسية التي تحكم جبال اليمن الوعرة . وخط سير القافلة السنوية لا يتغير . تخرج من المدائن في حراسة الاساورة حتى الحيرة . ويرسلها الملك النعمان بن المنذر في حراسة جنوده حتى تصل إلى اليمامه . فيحرسها هوذة وجنوده حتى تخرج إلى أرض تميم التي تتولى حراستها حتى حدود اليمن . ولأن تميماً لا تدين بالولاء إلا لتميم فهي ولابد أن تقبض ثمن هذه الحراسة .

ولكن هوذه لم ينس أبداً أن تميماً قتلت أباه . وأنه عاجز عن أن يدرك ثأره . . وعندما وصلت القافلة تحمل الطعام والمال ثمناً لخفارة تميم ، قال للأكاسرة . .

– انظروا الثمن الذي تدفعونه لتميم فاعطونيه وأنا اكفيكم أمرهم وأسير بها معكم حتى تبلغوا مأمنكم . .

ووافقه الأكاسرة . وجمع هوذه فرسانه ورفع الاعلام الفارسية . وسار حتى آخر أودية

اليمامة . ثم توغلوا فى أرض تميم . ولكن الأنباء سبقتهم . حملتها ريح الصحراء إلى تميم المترقبة . أن يمنعوا من خفارة القافلة حتى اليمن فهذه اهانة . وان تمنع عنهم الأموال التى أرسلها كسرى فذاك شيء لا يرده إلا الدم .

وهجمت تميم فى غضبتها العارمة . ضربت الأكاسرة وقتلت الحرس . وسلبت العير وأخذت هوذه أسيراً . وكان قائد تميم أكثم بن صيفى الاسدى بسنواته التسعين . ووجهه المتغضرف المليء بالجروح جالساً فى وسط المضارب يتطلع إلى هوذه . .

– أخذت أجر خفارتنا . وسلبت تميما حقها . . وسوف تكون حياتك هى الثمن . .
ارتعد هوذه وشبح أبيه المهدر الثأر أمام عينيه . قال

– فإن شئت افديت نفسى وعوضت خسارتكم
قال اكثم . . ليس أقل من ثلاثمائة بعير .

سار هوذه وسط فرسان تميم إلى هجر ذليلا . حوله بضع من الاكاسرة المهزومين المسرقى الثياب . وأخذت تميم كل ما فى مراعيه من ابل . كانت ثلاثمائة ينقصون ثلاثة . ثم انطلق هوده إلى المدائن مع الباقين ممن نجوا . راح كسرى يتميز غضباً وهو يتأمل وجوههم المهرومة . قال لهوذه . . كم ولد لك ؟ قال : عشرة . . قال كسرى : فأيهم أحب إليك ؟ . . قال : غائبهم حتى يقدم . وصغيرهم حتى يكبر . ومريضهم حتى يبرأ . قال كسرى فى سخريه .

– الذى أخرج عنك هذا العقل أعجزك حتى طلبت منى الوسيلة . هؤلاء الذين قتلوا اكاسرتى وأخذوا مالى هل بينك وبينهم صلح ؟

قال هوذه . .

– بينى وبينهم حساء الموت . هم قتلوا أبى . واقتادونى ذليلا إلى بلدى .
– كيف لى بهم . .
– ان ارضهم لا تطيقها أكاسرتك وهم يمتنعون بها . ولكن احجب عنهم الميرة فإذا فعلت ذلك بهم سنة ، أرسلت معى جنداً من اكاسرتك فاقيم لهم السوق . . فإذا أتوها أصابتهم خيلك . .

. . كانت السنة مجدبة . والمراعى مقفرة . والماشية هزيلة . والغارات لا تؤتى أكلها . وادركت تميم خطأها عندما منع كسرى الميرة عنها . لم يعد هناك أمل فى أية مساعدة أو طعام إلا أن تكون ذاكرة كسرى ضعيفة فينسى ويغفر ويرسل الميرة . . لكن الذى جاء هو هوذه ومعه ألف من الاكاسرة . ذهبوا إلى «المشقر» ونودى فى الأسواق والبطون والمضارب .

ـ إن كسرى قد بلغه الذى اصابكم فى هذه السنة وقد أمر لكم بميرة فتعالوا وامتاروا .

وصدقت تميم لأنها كانت تريد أن تصدق . وأنساها الجدب الحذر . هرعوا جوعى إلى «المشقر» ووقفوا أمام بابه المغلق . وجاءت أوامر الحرس الأ يدخلون الافرادى واحداً خلف الآخر . وفتح الباب فتحة ضيقة فدخل أولهم . ثم فتح من جديد ودخل الثانى . وفى الجو رائحة غريبة . خليط من سخونة الخليج وقيظ الصحراء . ودخل ثالث . لم يبق إلا الاحساس بالجوع . والخوف من فصل مجدب آخر . ودخل رابع . وخامس . وسادس . ولم يعد هناك من يحصى . والابل تثغو فى ضعف . . ما أغرب ذلك الشبح الذى يجعلهم يدخلون ولا يخرجون . . وآخر . . وآخر . . كان خبيرى بن عبادة يتأمل ما بقى حوله من جوعى تميم . . يدخلون ولا يخرجون . تأمل الشيوخ والأطفال . . يدخلون ولا يخرجون صرخ . .

– ويلكم . . أين عقولكم . . فوالله ما بعد النهب إلا القتل . .

جرى ناحية الباب . وامتدت يد أحد الحراس يحاول أن يمنعه . ولكنه هوى بالسيف فقطع يد الحارس وقطع السلسلة التى على الباب . فإذا تميم رؤ وساً مبتورة . ودماً على الأرض . وذبيحة مخدوعة . وإذا هوذه قد أدرك ثأره غالباً . . وصرخ خبيرى : يا لتميم . . الفرار . . الفرار . .

ـ إلى أين . . ؟ . .

من الجحيم إلى الجحيم . . من المشقر الملىء بالجثث إلى المضارب المليئة بالارامل والثكالى . . إلى الصحراء وقبائلها المعادية . إلى أين . . ؟ . .

الرحيل إلى زمن «الكلاب» .

فى أول ليلة من ليالى الحزن جلسوا وسط المضارب الخالية . . بلا فرسان ولا ازواج ولا أخوة . وجلس حكماء تميم السبعة واكثم بن صيفى وسطهم محطماً . . حتى الظهر . . قال :

– أوقع بنا كسرى وأوهن قوانا . وإن الناس قد بلغهم ما لقينا وأخاف أن يطمعوا فينا . وأنى قد قاربت المائة . وقلبى بضعة من جسدى نحل كما نحل جسدى . وبعد اليوم لن نقدر على الغزو . ولن يخرج للرعى إلا الفتيان . فليعرض كل واحد رأيه فإنى متى اسمع الحزم أعرفه .

كانوا بقايا حطام . . يهذون بلا جدوى . . واكثم صامت . حتى قال النعمان بن جساس . .

– لننظر إلى أى ماء نجتمع حوله . لا يعلم الناس أين هو حتى نقوى ونشتد ونضمد كل جروحنا . .

ووافق اكثم . رحيل شامل لكل ما بقى . لا يبقى إلا الطلل الخالى . إلى ماء يقال له «الكلاب» يحميه جبل عال . ويفصلهم عن بقية القبائل المعادية مغارة موحشة . حطوا رحالهم والتفوا حول بعضهم وتناسوا كل الخلافات القديمة والتفاخر الأحمق بالانساب وكان فى «الكلاب» نوع من العزاء لكل الأرامل والثكالى . . وهدأ الزمان قليلاً وهدأت حدة الغيظ . .

ومر بهم مسافر من ملحج . . اثارته رؤية الفتيات اللاتى يقمن بالرعى والابل التى بدأت تسترد قواها . وانطلق من فوره إلى قبيلته وهتف بهم . .

- هل لكم فى جارية عذراء ومهرة شوهاء وبكرة حمراء . تلكم تميم . . ضعفاء مطروحين على ماء «الكلاب» . .

كانت القبائل التى قد أنهكها البحث عن تميم قد وجدوهم أخيراً . ضعفاء كما لم يكونوا من قبل . وسارت الرسل من ملحج إلى قضاعه إلى بقية القبائل المتحالفة . صاح كاهنهم . لا تغزوا . . فلم يستمع إليه أحد . لا أحد يبالى بالنبوءات عندما تتعارض مع المصالح . . وهذه تميم . . مهيضة . . مكلومة . .

خرج اربعة من قادة القبائل اليمنية . كل قائد معه ألفان من الفرسان . ثمانية آلاف مجتمعة . ومعهم عبد يغوث . شاعر بنى الحارث وفارسهم . كأنه جيش وحده . وساروا جميعاً يبغون البقية الباقية من تميم . .

وبدت طلائع الجيش . فزعت تميم . لم تر من قبل تجمعا بهذه الضخامة . كان اكثم ابن صيفى يحتضر . وتلفتت تميم فلم تجد غيره . . هرعوا إليه . .

- حقق لنا هذا الأمر فإنا قد رضيناك رئيسا . .

قال اكثم وهو يلتقط انفاسه فى صعوبة :

- لا حاجة لى فى الرياسة فإن الموت فى انتظارى . ولكن أشير عليكم . . لتنزل حنظلة بالدهناء . وسعد ورباب بالكلاب . . فاى الطريقين أخذ القوم كفى أحدهما صاحبه . .

كانت هذه هى وصاياه الأخيرة . .

- اقلوا الخلاف على امرائكم . واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل . يا قوم تثبتوا فإن احزم الفريقين الركين . وأتزروا للحرب . وإدرعوا الليل فإنه أخفى للويل . وإن عز أخوك فهن . البسوا جلود النمور والثبات أفضل من القوة . واهنأ الظفر كثرة الأسرى . وخير الغنيمة المال . ولا ترهبوا الموت عند الحرب . فإن الموت من ورائكم . وحب الحياة لدى الحرب زلل . . ومن خير امرائكم النعمان ابن جساس .

وتقدم النعمان ليمسك يد أكثم ولكنها سقطت فى يده . باردة ميتة . لم يكن هناك وقت

للمؤلَّه . وملحج وقضاعه وإحلافها قد حاصروا الجبل . إستولوا على الابل والماشية وأسروا الفتيات . وبدت المعركة محسومة مقدماً . ونزلت حنظلة إلى الدهناء . وتوجهت سعد ناحية الماء . وقال ضمرة بن لبيد لقومه بنى ملحج . .

– أنظروا وانتم تستاقون الأبل . فإن أتت الخيل عصبا عصباً وثبتت الأولى للأخرى حتى تلحق بها فإن أمر القوم هين . وإن لحق بكم القوم فلم ينظروا إليكم يريدون الابل ولا ينتظر بعضهم بعضا فإن أمر القوم شديد . .

وانحدرت تميم . واكتسبت من إندفاعها سرعة السهم وحدته . . اخترقوا ملحجا وصفوفها حتى وصلوا إلى الابل ، وكل واحد يحارب كأنها معركته وحده فى مواجهة كل القبائل . وصرخ النعمان بن جساس .

– يا لتميم لا تقتلوا إلا فارساً فإن الرجالة لكم . .

ولكنه قتل فى نهاية اليوم . وانسحبت تميم وباتوا طوال الليل يحرسون بعضهم بعضا وظنت مذحج أن الصباح الجديد سوف يحمل الهزيمة لتميم وفوجئت تميم بنفسها وهى تنتصر . حتى عبد يغوث سقط أسيراً فى يد فتى صغير من بنى عميرة . ما لبث أن اقتاده مسروراً إلى أمه . فرأت الأسير عظيماً جيلاً . فسألته : من أنت ؟ قال عبد يغوث فى خجل . أنا سيد القوم . وضحكت الأم وهى تقول : قبحك من سيد قوم حتى أسرك هذا الاهوج . وتواصل القتال . كان تميماً يتضاعف عددها . كأن كل حواملها يلدن ويدفعن بأطفالهن إلى المعركة . . فيكبرون وينضجون ويتشحون بدم القتلى . وصرخ عبد يغوث . يا بنى تميم . اقتلونى قتلة كريمة . . اسقونى خمراً ودعونى انح على نفسى . وضعوا أمامه دنان الخمر . . وقطعوا عرق الاكحل . . وتركوه ينزف ويموت ويرثى نفسه . .

الا لا تـلومـانى كـفـى الـلوم مـا بـيـا
فـما لـكـما فى الـلوم خـير ولالـيـا

. . كانت تميم تنتصر . انتصاراً رائعاً وغريباً . والملح يذوب فى مغارات الملح وعبد يغوث يموت . وفلول مذحج تنسحب . وأنا اعشق تميماً . قنعت من رحلتى بالعشق بعد الكراهية . لا أبالى ان هزمتهم بطون عامر . أو شردت خيامهم حرب الردة . . لا أبالى باخطائهم وضعفهم الانسانى وكراهية المؤرخين لهم . الطبرى والاصفهانى وابن الأثير والمسعودى . . فأنا اعشقهم . اعشق أخطاءهم الرائعة . وكثرة الثوار والمتمردين منهم وثورتهم على اكفان الملح وكراسى الحكم واستفزاز الرواة ومنتحلى الأشعار . اعشقهم رغم حصار التاريخ الرسمى . ولا أتوقف عن السفر إلى أرض تميم .

نائلة : إنهم يقتلون الإمام

قال لها أبوها قبل لحظة الرحيل :

- تكحلى وتطيبى بالماء . . كأن زينتك هى الليل . . وكأن عطرك هو المطر .

صرخ حادى القافلة بالعير أن تنهض وبالخيل أن تصهل . وبالرماح أن تشرئب . ضم حضن الصحراء «نائلة» فأدركت كم هى غريبة . تهتز صعوداً مع حركة الناقة كأنما الصخر يتنفس . كان المطر يقطر دما . والمكاحل نصال سكاكين . والقافلة ترتحل من الشمال للجنوب . تطلعت خلفها فلم تجد إلا أرضاً قاحلة . تنهدت .

- ما أبعد الشقة بين الثلج والرماد . . .

القمر رغيف يابس . الاحلام شذرات من المخاوف . الأيام والشهور الصحراوية متشابهة مضنية . للماء ملوحة الرمل . وللريح نذير الموت . فقدت أغانى الرعاة . حتى الكوفة أصبحت حلماً شاحباً من أحلام الطفولة . وعندما أشرقت الشمس هتف الغلمان والجوارى . . . .

- بشراك . بشراك . سوف تكونين زوجة الخليفة .

مدينة الرسول المنورة على حافة الأفق . قمم من النخل الأخضر كلمة عذبة لا يتكرر قولها . فكرت نائلة . هذا هو موطنى الجديد : ريح رخية . وعقود تنفرط من الطيور البيضاء كأنها ليست فى الصحراء . وكأن هذا السلام السماوى لم يقدر إلا لهذه البقعة الصغيرة وسط الجبال المتجهمة . . خيم الصمت على كل من فى القافلة . . تناهت همهمات الناس والاسواق مثل أدعية متصلة . كان للبلدة تفردها وقوة حضورها ؛ لا يشبه سكونها سكون . ولا ريحها ريح . كأنها يقظه مفاجئة بعد سبات الصحراء الطويل . قالوا لها :

- حمداً لله على سلامتك . إستعدى حتى تزفى للخليفة . .

. . لكن أحداً لم يجرؤ على إخبار الخليفة أن عروسه قد وصلت . . كان عثمان بن عفان حزيناً كما لم يكن من قبل . يحدق فى البئر العميق الضحل المياة . تضطرم فى أعماقه حركات الغواصين كشهقات مخنوقة . تأمل عثمان الأثر الباقى من الخاتم . حز باهت فى أصبعه الأوسط . سوف يختفى بعد مدة . كما إختفى الخاتم . ارتفع رأس أحد الغواصين من فوق حافة البئر الصخرية . حدق فيه بلهفة . لكنه قال مثلما قالوا :

- لا أمل . . . ،

همهم بقية الصحابة فى خيبة . وزعق عثمان :

- واصلوا البحث ، لا يجب أن يضيع هذا الخاتم . . . .

ولم يجد الغواص بدأ من الهبوط . والصحابة بدأ من الانتظار . . وسار موكب نائلة وسط الشوارع شبه الخالية . يرافقها طائر الحزن حتى بيت الخليفة . ولم يكن فى استقبالها إلا بعض العجائز . . سألت عما حدث . . قالوا فى وجوم :

- سقط خاتم رسول الله فى بئر أريس .

كانت ما تزال غريبة . لكن الحزن هزها . كان الخاتم هو شارة الحكم . يوقع به على كل مكاتبات الدولة . ورثه أبو بكر عن الرسول . وأخذه عمر عن أبى بكر . ولبسه عثمان وبايعته جموع المسلمين . لكن بئر أريس الضحل إبتلعه وأخفاه للأبد ، مقدمة بسيطة لكل الأحداث المأساوية . . وبدأ يوم زفافها الأول بارداً وكئيباً . . .

وفى المساء التالى جاء الخليفة . لم تكن رأته ، ولم يكن قد رآها أبداً . وتم زواجهما ببساطة آسرة . كتب عثمان إلى والى الكوفة سعيد بن العاص خطاباً يقول فيه :

- بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فقد بلغنى أنك تزوجت امرأة . فاكتب إلى بنسبها وجمالها . .

ورد سعيد يصف المرأة التى تزوجها . بيضاء . . مديدة القامة . حسنة اللسان . معروفة النسب . . وكتب عثمان إليه . إن كان لها أخت فزوجنيها . وكانت الأخت هى نائلة بنت الفرافصة خطبها سعيد وحملتها القافلة . وجلست أمامه مبهورة . ترقبه حاسر الرأس . لامع الصلعة . لم تصدق أن يشع كل هذا الصفاء من إنسان واحد . كان وديعاً متعباً . أضنته أشواك الحكم . ومتاعب الدولة التى تتسع مثل اخطبوط وتلتهم كل أجزاء العالم القديم . احست أنها لم تأت من الكوفة عبثاً . إنه فى حاجة إليها كما أنها فى حاجة إلى ظله . حاول أن يبتسم رغم كل ما يشعر به من مرارة . . قال :

- أما أن تقومى إلى . . أو أقوم إليك . . .

قالت :

– والله ما تجشمت إليك من المسافة أبعد مما بيني وبينك . بل أقوم أنا إليك . . . .

جلست بجانبه . مسح رأسها ودعا لها بالبركة .

لكن أيام نائلة لم تكن سهلة . . . .

في الماضي كانت تعيش في بيتها الصغير بالكوفة . لا تهتم إلا لفتات الاحـاديث ، تخضع حياتها لناموس الحياة اليومية المتكرر . لكنها أصبحت الآن في قلب الدولة . تسمع في غرفتها وشيش الأقطار البعيدة . وتدخل أخبار الحروب والهزائم والانتصارات مع ملح طعامها . . .

كان الامام شيخاً عجوزاً . والدولة فتية تموج بالمحاربين الأشداء . وسط عالم متآكل . يختلط الطموح فيه بنزعة الاستشهاد والقداسة الدينية بالعصبية . وعندما تفتقت بذور الفتنة لونت النجوم البعيدة بلون الدم . كان إبن سرح والى مصر يواصل فتح الريقية ومعاوية يجهز الأساطيل لغزو قبرص . وسعيد بن العاص يجهز على ما بقى من دولة الفرس . وكان عثمان ينسى أنه قد أصبح خليفة . يستيقظ داخله الرجل الموسر القديم الذي يهب أي شيء وكل شيء عن طيب خاطر . وتحولت هذه الهبات إلى أخطاء قاتله . كان بنو أمية بشراهتهم المعهودة قد أحاطوا به كديدان العلق . يريدون مـالاً وولاية وأرضـاً . . كان الاسلام قد أصبح ارثهم . . وهو يهب . يصل أرحامه كما يعتقد . لا يعلم أن الزمن قد تغير وأن لكل شيء حساباً . . حتى سماحته وكرمه . .

توالت الاحداث الصغيرة وتراكمت . إختلف مع خازن بيت المال حول مبلغ كبير كان يريد أن يهبه لمروان بن الحكم . قال للخازن غاضباً : أنت خازن عندنا . قال له الرجل بهدوء : إنما أنا خازن المسلمين . وعلق المفاتيح على منبر الرسول وإعتكف في بيته . وبدأت المظالم ترد على الخليفة كل يوم . تشكو الولاة والعصبيات . وتعودت نائلة أكوام الخطابات المكتوبة على أرقاق الجلد يظل الخليفة يقرأ فيها حتى الصباح ، ثم يكتب للولاة يحذرهم ويهددهم ويطلب منهم أن يعدلوا . لكنه ورغماً عنه كانت هناك طبقة جديدة تنمو وتشتد وتملي شروطها . كلما مات شهيد في غزوة قبضوا هم الثمن دنانير . منذ أن استن قانوناً يبيح لمن يملك أرضاً في الأقاليم المفتوحة أن يستبدلها بأرض في الحجاز برز كبار الملاك كالغربان . يهمهمون الأرض للأرض . ويشترون العبد للعبد واختل ميزان العدالة الدقيق . . أفاقت نائلة مذعورة على صوت أبي ذر الغفاري وهو في طريقه للمنفى . وحيداً كما قدر له . يعيش وحيداً . ويموت وحيداً . ويبعث يوم القيامة وحيداً .

وعندما أصر عثمان على نفيه لم يقبله أي من الولاة . تحول الصحابي القديم إلى لعنة يخشاها الجميع . ولذا اعتكف في قرية صغيرة حتى مات منسيا ودفن في قبر مهجور . وقال عثمان لنائلة حائراً :

- لماذا يفعلون ذلك !

لقد وسع للناس فى أرزاقهم وضيق فى رزقه . أقام المآدب للجوعى . دفع ديات القتلى . وسعى جاهداً فى جمع نسخ القرآن ليصنع نسخة واحدة يتفق عليها كل المسلمين . لكن بنى أمية ظلوا دائماً نقطة ضعفه . لم يهذب الاسلام شيئاً من شراهتهم للحكم . ومن الكوفة بلدها البعيد جاءت أنباء أخرى .. اختلف الوالى سعيد بن العاص وزوج أختها مع بعض وجهاء الكوفة حول فضل قريش على غيرها من القبائل . لكنهم ردوه عن ذلك بشدة . قالوا ليس لمسلم فضل على آخر . وتطور الأمر حتى اشتبكوا مع صاحب الشرطة وبعض الخدم . وبعث سعيد إلى الامام يطلب منه أن يسمح بنفيهم من الكوفة . وكانت هى المرة الأولى التى ينفى فيها مسلم عن أرض الاسلام . نفاهم إلى دمشق حيث سجنهم معاوية وعاملهم أسوأ معاملة . ثم ردهم للكوفة . ثم أعيد نفيهم للجزيرة . وتواصلت حلقة الاهانات . وعندما عادوا إلى وطنهم كانت جروحهم قد أصبحت جروحاً فى جسد الدولة . قال لها معاوية معاتباً :

- أرأيت ما فعل أهل الكوفة . . . !

قالت مهونة :

- أنا أعلم الناس بهم . . لا تأخذهم بالشدة وأنت على العفو أقدر . . .

جاءت أختها هند مع زوجها لزيارة المدينة . جلس سعيد مع الأمام يقدم له آخر تقارير الفتنة والحرب . وجلست الأختان معاً تستعيدان ذكريات الطفولة فى طرقات الكوفة . سألتها . . .

- ماذا يحدث هناك . . !

قالت الأخت فى خوف ·

- كأن الموتى يستيقظون وكل الأحقاد القديمة تزدهر . .

وقال عثمان لسعيد :

- عد إلى الكوفة وخذهم بالموادة . . ما جدوى زيادة المنفيين والقتل !

وبعد أيام رحلا . لكنهما لم يستطيعا العودة للكوفة . كانت سيوف المنشقين فى انتظارهم . قالوا له . لقد عزلناك واخترنا والياً غيرك . . وعاد سعيد مقهوراً . وخضع عثمان لما طلبوا وولى أبا موسى الأشعرى . لكنهم صنعوا سابقة خطيرة . أصبح من المخيف تصور الأيام المقبلة . عندما تأخذ كل ولاية خليفة المسلمين قسراً وتفرض عليه رأيها . . لقد تبددت القدسية الدينية التى كانت تحيط بالخلافة وأخذ الصراع طابعه السياسى والاجتماعى واضحاً .

وامتد حبل الفتنة إلى مصر . وقال عثمان فى أسى :

حتى ابن ابى بكر يقف ضدى !

رأت نائلة الشيخ وقد تضاعفت آثار السنين على وجهه . تحول الصفاء إلى تجاهيد غائرة والسلام الذى كان يكسبه من المدينة ، إلى هذيان ورؤى مؤرقة . أصبح يعتزل الناس ويترك الصلاة ليقوم بها على بن أبى طالب . وترتفع درجة حرارته ويهذى . ونائلة ساهرة تضع خرقاً مبللة فوق جبينه . . يرفع أصبعه نحوها ويهتف متأسياً :

– ليتنى ما فقدت الخاتم . . كأنه سلبنى شرعيتى .

كان محمد بن أبى بكر قد إتجه إلى مصر غاضباً . . كان يطمع فى أحدى الولايات لكن الامام الشيخ لم يستجب له . . ومما ضاعف غضبه أن رأى بنى أمية ومن هم أقل منه ومن أبيه سبقاً للاسلام يظفرون بأرفع المناصب . وعثمان يضن عليه . وهكذا أخذ يؤلب المصريين ضد الوالى والخليفة وكل بنى أمية . وضج ابن سرح بالشكوى . لكن ماذا يفعل عثمان مع ابن أبى بكر الخليفة الأول وشقيق عائشة زوجة الرسول . . قال له على بن أبى طالب :

– إعتزل . . .

قال فى حسم :

– ما كنت لأخلع قميصاً ألبسنيه الله . . .

وبدأت حركة محمومة من المجادلات . جاء الولاة من كل الأقطار وتناقشوا . وجاءت وفود المسلمين تعرض مطالبها . وإختلف الصحابة كما لم يختلفوا من قبل . . كل إنسان له مطالب وكل المطالب متعارضة . وعرض معاويةُ على الخليفة أن يصحبه إلى دمشق حيث يبقى فى حماية جنده . . لكنه رفض . .

– ما كنت لأستبدل دار الهجرة بدار أخرى . . .

وأطلق معاوية عدة تهديدات جوفاء لكل من يتعرض لحياة الخليفة ثم وعده أن يرسل له النجدة والمداد عند تعرضه للخطر . . لكنه كان أذكى من أن يفعل ذلك فى الوقت المناسب . .

وكالعادة وافق الخليفة على شروط الثائرين . ومر العام ولم يتغير شىء . واستشرى بنو أمية . وضم معاوية بقية ولايات الشام . إنتشر المحرضون فى طول الدولة وعرضها . الصحابة القدامى مثل ياسر بن عمار وأبناء الصحابة مثل محمد بن أبى بكر . والموالى والداخلين حديثاً فى الاسلام مثل اليهودى إبن سبأ وحتى عبد الرحمن بن عوف وكان على فراش الموت قال لعلى :

– إحمل سيفك وأحمل سيفى وتعال نجاهده . .

ثم عاود الثائرون زحفهم على المدينة . من مصر والكوفة والبصرة واليمن . كل من

يحمل شكوى أو مظلمة أو حقدا قديما جاءوا هذه المرة لا ليتناقشوا . ولكن ليستولوا على المدينة عنوة . تبدد السلام السماوى الذى شعرت به نائلة فى يومها الأول . فرت الطيور وهى تطلق صيحات الفزع . وخرج أهل المدينة المهاجرين والانصار . ليقفوا أمامهم . لن تسقط مدينة الرسول تحت السيوف أبداً . رغم معارضة البعض منهم لعثمان . وتعاطف البعض مع الثائرين . إلا أنهم ظلوا واقفين أمامهم حتى إضطروهم للتراجع . . أو تظاهروا بذلك .

لكن أهل المدينة ما لبثوا أن استيقظوا والتكبيرات تملأ الشوارع . . فوجئوا بالثوار وسطهم . إحتلوا مدينتهم دون أى مقاومة . وهتف المنادى :

- من لزم بيته فهو امن . . .

وبدأت أيام الحصار الخمسون حول بيت امام المسلمين وخليفتهم عثمان بن عفان . . .

كان الحصار هو اليقظة اليومية على صور الأحجار ترتطم بالنوافذ والأبواب . . وكان الحصار هو وجوه الغوغاء وهى ترمى الخليفة بأقذع الكلمات وتدوس بيته تحت النعال . وكان الحصار هو الخطر كل لحظة من سهم طائش أو عدو مترصد . . وكان الحصار هو إحساس الغربة العميق والخوف الغريزى حتى من عيون الأصدقاء . . وكان عثمان هادئاً . . هدوء من أعد نفسه لهذا المصير . ظلت نائلة تتوسل إليه . . الأمر مازال فى يدك . أنت الامام . إبعث للأمصار حتى تأتى بالنجدات . وفى فناء الدار توفز بنو أمية وأيديهم على مقابض السيوف . قالوا : نخرج إليهم . قال عثمان عاتباً : كيف يسيل دم الأخوة على أرض النبوة . . ! سوف أخرج إليهم توسلوا إليه ألا يخرج قالت نائلة :

يا سيدى أنت عجوز وهم قطيع أعماه الغضب . وكانت دمدمات المحاصرين مثل حيوان شرس . زحف عبر جوع الصحارى . لكن عثمان خرج . وقف هادئاً أمام البيت كأنه إزاء يوم عادى من أيام الحكم . صمتوا ، هبطت أيديهم بالسيوف . سار إلى المسجد فساروا خلفه . إعتلى المنبر . أحس بزفراتهم تبدد كل ما فى المكان قدسية . هتف بهم . . .

- امحوا الخطأ بالصواب وعودوا إلى عقولكم . إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . .

إنساب صوته مؤثرا . يهدد ويلين . يحاول أن يوقظ فيهم عهود الولاء التى نسيوها لكن الصحابى الجليل كان قد تحول إلى شيخ . والشيخ إلى حاكم . والحاكم قد أخطأ . نهض أحدهم وزعق :

- يا عثمان إنزل لنحملك على الابل ونسيرك إلى جبل الدخان كما سيرت خيار الناس . .

ادرك عثمان أنه قد فشل . هتف بحنق :

- قبحك الله . . . . .

إمتلأ المسجد بالتهديد والتوعد . والامام صامد حتى فى وجوه الاعتراضات غير اللائقة . قال . . أنا خليفة الله . ورفيق الرسول وزوج ابنتيه . لكن شيئاً لم يشفع له . نهض جهجاه بن سعيد الغفارى ونزع العصا التى كانت فى يده . كانت عصا الرسول . أخذها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان . لم يبال . كسرها على ركبتيه . حاول البعض الدفاع عن الخليفة . لكن الثوار أمسكوا الاحجار وأخذوا يتقاذفون . شهد المسجد معركة غريبة أهدر فيها كل شيء . هوى حجر ضخم على رأس عثمان . غمر الدم وجهه وسقط مغشياً عليه من فوق المنبر .

شاهدته نائلة من النافذة محمولاً على أيدى الرجال . صرخت : لقد قتلوه فى المسجد . لكنه كان مازال يتنفس . مسحت الدم من على وجهه . رأتهم يتقاطرون خلفه . ويعاودون محاصرة المنزل . . صرخت فيهم :

- يا قتلة . . . . لو كان رسول الله حيا لقتلتموه . . .

هرع على بن أبى طالب . أخذ يعنف المحاصرين دون جدوى . كلف الحسن والحسين أن يقفا داخل البيت للمشاركة فى حمايته . تطوع أيضاً عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة وقفوا يحمون جسد الامام المثخن بالجراح . أصبح الجرح كبيراً فى جسد الدولة ولأنها كانت فتنة كان النزيف غزيراً .

أفاق فى المساء . بدأ يتمالك قواه . توسلت نائلة . .

- نهرب يا سيدى . لقد تركك أهل المدينة فريسة سهلة لهم .

ابتسم وربت على رأسها :

- إن لم يكن هناك مفر من الموت فيا أحقه بجوار رسول الله .

ثم سرت شائعة بين الحاضرين أن الامام يراسل الأقطار حتى يطلب النجدة . . ازدادت قبضة الحصار . منعوا الخليفة من الدخول والخروج . كلفوا من يؤدى الصلاة بدلاً منه . وكانت المدينة تسبح فى جو غريب من اللامبالاة . الصحابة القدامى لزموا بيوتهم ولم يبدوا أى رأى . الأنصار كل من مر منهم بالمنزل أدار وجهه للناحية الأخرى . كأنه لا يرى . حتى عندما حان موسم الحج . وتقاطر الحجيج . . طافوا البيت وزاروا المسجد وتطلعوا لما يحدث فى بلاهة شديدة أشبه بالتواطؤ . . لم يخرج الخليفة للحج كالعادة المتبعة ، كلف إبن عباس وحمله رسالة يقص فيها ما حدث ويتهدده . . لكنهم سمعوا الرسالة وهم يمضغون التمر . وأكملوا المناسك وانصرفوا كأن لم يسمعوا شيئاً .

ثم منعوا عنه الماء والطعام . وظل والى مكة أقرب الولاة إلى المدينة يستمع إلى هذه التفاصيل اليومية ويبدى دهشته من تقلب الدهر . وابن سرح والى مصر الذى خرج معظم الثائرين من عنده لم يكلف خاطره بالاستفسار عن غايتهم . . ومعاوية «هادىء» ينتظر الفرصة أن تواتيه حتى يبكى ويثار فينال ثمن البكاء والثأر . . كأن هناك تواطؤ جماعىٌ لاغتيال الامام العجوز . .

وعندما اشتد به العطش . توكأ على كتف نائلة وصعد إلى سطح المنزل . شاهد الوجوه الغاضبة تترصد أنفاسه . قال فى أسى :

– لقد اشتريت بئر رومة من مالى وجعلته سقاية للمسلمين وها أنا أحرم من مياهه واشتريت أرضاً ضممتها لمسجد الرسول حين ضاق بالمصلين وأنا أول مسلم يمنع من الصلاة فيه . . .

كان يرثى نفسه . شعرت نائلة بالحزن يعتصر قلبها . هذه الجنة التى بشر بها . . كم عليه أن يتحمل فى الطريق إليها من العذابات الأرضية . عطشاً وجوعاً وقهراً . حاولت أم حبيبه زوجة الرسول أن تحمل لهم بعضاً من الطعام . لكن الثوار ضربوا بغلتها وأوشكوا أن يسقطوها على الأرض . جاء على غاضباً صرخ فيهم :

– إن الروم يأسرون فيطعمون ويسقون .

وراحت صرخاته هباء . تحولت نزوات الحقد إلى اصرار وحشى للتدمير . وظلت الأحجار والسهام تهمى عليهم كأنها حقيقة أزليه . وجاء صباح اليوم الخمسين . شاحباً . بلا شمس . وهو حدث نادر فى الصحراء . حتى أن لون الرمل كان رمادياً . واستيقظ عثمان وقد نذر أن يصوم يومه . ابتسم فى وجه نائلة وقال فى وداعه . . . .

– انى مقتول اليوم . . . . .

قالت بفزع : بل يقتل عدوك يا أمير المؤمنين .

– جاء رسول الله وأبو بكر إلى فى المنام . قالا لى . . افطر معنا اليوم يا عثمان . . فى الأرض صومى وفى الجنة سيكون افطارى إن شاء الله . . . .

تعالت ضجة فى الخارج . استأذن أحد المدافعين فى الدخول قال بفرح :

– يا مولاى . الامدادات على مشارف المدينة .

لكن عثمان كان يشعر بالمرارة العميقة :

– قضى الأمر . هل تذكروا أخيرا أن لهم اماما مهدور الدم . .

إزدادت حركة الثوار العصبية . نفثوا عن حنقهم بالاحجار والسهام ومحاولات تسلق

جدران البيت . كانت الأنباء قد وصلتهم أيضاً وبدت رغبتهم المحمومة فى الاجهاز على الفريسة . قالت نائلة :

- ابعث إلى ابن أبى طالب لعله يتفاهم معهم . .

لكنهم كانوا معزولين . المدينة والأمصار وكل من فى العالم ليس له وجود . والدم يخلق جوعاً لا يشبعه إلا نهش اللحم الحى . صرخت وهى تشاهد أجسادهم تتلوى صاعدة على جدار البيت . أسرع ابن الزبير وأخذ يقطع الحبال . إندفعت موجة محمومة لترتطم بالباب . أنحنوا على جسد عبد الحكم بن مروان وبدا على وشك الموت ، وكانت الصحراء والمدن والأقطار المفتوحة والولايات والقصور هادئة ساكنة . . . قال عثمان بمرارة النبوءة الآتية :

- لئن قتلونى لم يصلوا بعدى جيماً أبداً . . ولم يقاتلوا عدوا جيعاً أبداً . . .

وظلت حركات المهاجين كالموج المتلاطم . تود لو تقتلع البيت من أساسه . تساءلت نائلة . . هل نستطيع الصمود حتى تأتى النجدات . فوجئت بالدخان يتسلل ويملأ الفناء . صرخت :

- إنهم يحرقوننا . .

أشعل المهاجون النار فى كل الأبواب الخشبية . أتت عليها بسرعة عنيفة . أصبحت كل النوافذ عارية . تلاحم الجميع فى قتال وحشى زاد من ضراوته أن الدخان كان يخفى كل شىء وعثمان يصرخ أن يكفوا . فتح المصحف وأخذ يقرأ لعل هناك منفذاً . رقية تبعد نذر الكارثة . جلست نائلة عند قدميه وهى تبكى . ثم حدثت المفاجأة من الخلف . فتح عمرو بن حزم باب خوخه كانت تصل بينه وبين بيت عثمان وتدفق الثائرون . داهمتهم الأقدام مثل دبيب القدر وصراخ الظفر الوحشى . نثرت نائلة شعرها فزعاً . صرخ فيها عثمان :

- خذى خمارك . فلعمرى ما دخولهم على أعظم حرمة من شعرك . .

كانت السيوف مشرعة فوق رؤوسهم . قال أحدهم :

- يا عدو الله . . . .

رد عثمان بهدوء . أنا عبد الله وخليفته . .

هوى السيف . رفعت نائلة يدها تتقيه . بتر السيف أصابعها فى سرعة خاطفة . إنتفضت من الالم . . تناثر شريان الدم على وجه الخليفة ولحيته . قبل أن يتحرك هوى سيف آخر فى منتصف رأس الخليفة ، شق مقدمة الأنف . . همهم بكلمات متعثرة لعلها كلمات الاستشهاد ، انكفأ فوق المصحف المفتوح أمامه . دمدموا فى نشوة . .

- سوف نقطع رأسه ونرفعها على أسنة السيوف . .

لكن نائلة رغم النزيف والالم كونت بجسدها حاجزا فوق وجهه المشجوج ورقبته المهددة بالقطع . حاولوا ازاحتها . أخذوا يضربونها بالنعال . مزقوا ثيابها حتى تعرى ظهرها . . وفى الخارج عربدت الوجوه الشرسة . .

- قتل عثمان . . . قتل ابن عفان . .

توقفوا مبهوتين . شاهدوا الدم والحريق والقتلى . . ذنبهم وعارهم . . تبدد الدخان فكشف عن كل شىء . الرمل الرمادى المشبع بالدم . ونائلة تقف بثوبها الممزق وضفائرها المحلولة أسيرة رعب لا نهائى ، وعندما صرخت تعثر البعض وهم يفرون وأجهش البعض الآخر فى البكاء ، وكانت الجثة مسجاة أمامهم . . دم حرام وجريمة لا تحل لأحد . . . . .

كتبت نائلة إلى معاوية . . « وان أمير المؤمنين بغى عليه وقتلوه غيلة . . » .

دثروا جثته فى ثيابه القديمة . وخلعت قميصه الملوث بالدم وكتبت . . «فوطئنا وطئا شديداً . وعرينا من ثيابنا وحرمة أمير المؤمنين أعظم . فقتلوه فى بيته وعلى فراشه» وسافر القميص إلى الشام وحين صعد معاوية إلى المنبر وفرد القميص أمام المصلين تناثرت منه أصابع نائلة المقطوعة وكتبت . . « ورحم الله عثمان ولعن من قتله وصرعهم فى الدنيا مصارع الخزى والذلة . . . » .

وكان دم الخليفة مهدرا . لا يحق لأحد أن يستحله . . لكن النبوءة تحققت منذ أن قرأ معاوية خطاب نائلة من فوق المنبر . منذ سارت الجيوش وتقاتل الأخوة . . وسال الدم بلا قضية وبلا ثمن . وامتزجت كل مشاعر الحب المضطرم بالكراهية الطاغية . . منذ هذا اليوم البعيد الموغل فى القدم ونحن لم نقاتل عدوا جميعاً أبداً .



عمر بن أبي ربيعة
محاولة .. لتشخيص حالة

هذا هو الشاعر . فتى قريش المخزومى . أشعرها وأشدها فسقا . ثمانون عاما قضاها على ظهر الصحراء . فتك منها أربعين ونسك منها أربعين . تقلب مثل رمية من رميات الزهر . تختلط عليه وفى داخله وجوه الخير والشر . إرتفع فى السماء فكان شهاباً . وهوى حجراً أصماً ذهب بددا فى الصحراء . لم يختلف حول شاعر كما اختلف من حوله . أنكروه وإستعاذوا من فسوقه وحفظوا شعره وتمثلوا به . وهو ساكن . لا تثيره الحروب والفتن . لا تجره دوامة الصراعات السياسية . لا يستشار إلا عندما يلمح امرأة جميلة . أو يسمع أوصافها . أو يذكر اسمها فقط أمامه . إن حواسه كلها تستفز . وقريحته تمور كالبحر الصاخب .

مات عمر بن الخطاب فى ليلة ميلاده . واغتيل عثمان وهو فى العاشرة . وقتل على وهو فى الثامنة عشر . وهدمت الكعبة على رأس ابن الزبير . وسار الحسين إلى قبره فى كربلاء .

قال الأقدمون . . « كانت العرب تقر لقريش بالتقدم فى كل شىء إلا فى الشعر . حتى كان عمر بن أبى ربيعة فأقرته لها ولم تنازعها فى شىء » . لكن هاشم بن عروة يحذر كل الآباء . . « لا ترووا فتياتكم شعر ابن أبى ربيعة لا يتورطن تورطاً » . وقال حماد الراوية عن شعره . . « إنه الفستق المقشر » . . وأقسم أبو القوم الأنصارى أنه « ما عصى الله بشىء كما عصى بشعر ابن أبى ربيعة » . . « وأفاض مصعب بن الزبير فى الحديث عنه كأنه جماع أشعار العرب » سهل وقول . قاسى الهوى فأربى . وأعلن الحب واسر . ويطن به وأظهر . وقنع من الرجاء بالوفاء . وأعلى قاتله . واستبكى عاذله . وأحسن التفجع . وانطلق القلب» . . ولا يكف مصعب عن اضافة النعوت . ولا يكف الأخرون عن نقده ومدحه وتبقى روح ابن أبى ربيعة قلقة لا تجد من ينصفها دون مبالغة . .

المحدثون أيضاً أشد حيرة . طه حسين لا يراه منفصلا عن عصره . ثمرة نيئة لمجتمع لم تكتمل أركانه اختلطت فيه البداوة بالبذخ . واستغلت فيه المقدسات الدينية من أجل جمع الأموال . جاءت الثروة والرفاهية والجوارى وأقامت ضياعها على الرمل فسلبت الصحراء شدتها وشظفها . وولد الفرسان الناعمون . ركبوا البغال بدلاً من الجياد . وتقاذفوا بالورد لا بالسهام . .

وحاول «العقاد» أن ينفذ خلف جلده . تعامل معه بترفع شديد كأنما يأنف من الكتابة عنه . يرجع كل ما يحيط بحياته من ملابسات إلى طبيعته . حقاً إنه يغازل الحسان . ويطلق شاربه ولحيته كما يفعل رجال عصره . لكن كل مغامراته تعويض فى الوهم . وكل أشعاره أكاذيب جذلة الكلمات . إنه فقط «يصف ويقف . يحوم ولا يرد» .

سأله سليمان بن عبد الملك :
- يا هذا . . ما يمنعك من مدحنا . . ؟ . .
قال عمر فى إيجاز . . إنى لا أمدح الرجال . . إنما أمدح النساء . .

إن العالم بغير نساء ليس هو العالم . بدونهن تصبح الصحراء مصيدة . والقصائد غير مجدية . هذا هو الشعر وفق حاجته الشخصية . ووفق قناعته أيضاً . إن مشكلته بسيطة لكن جزءاً هاماً منها أن الآخرين لا يفهمونه . إنه ليس طموحاً . فلا حاجة له بهذا الطموح . وإذا كانت حياة أى انسان تدور بين محورين : الخبز والحب فإن الخبز لم يؤرقه طوال حياته . كان من بنى مخزوم أغنى بطون قريش . وأبوه أغنى بنى مخزوم . تسميه قريش «العدل» لأنهم كانوا يتعاونون معاً ليكسوا الكعبة فى عام . ويكسوها وحده فى العام التالى . كأنه يعدلهم جميعاً . قوافله لا تكف عن السعى بين الشمال والجنوب . كلما نفق بعير أو لهث حاد انصب العرق الأنسانى فى جيبه قطعاً ذهبية . هذا غير جيش ضخم من الأحباش يقومون على حراسة هذه الثروة . .

لم تكن حالته فردية . لكنه كان الملخص لكل تناقضات عصره الاجتماعية . منذ أن تولى عثمان بن عفان الخلافة وقد تنفست الارستقراطية القريشية الصعداء . ذهب عمر بشدته وشظفه . كان يعرف أن الفتنة حين تولد سوف تولد من قريش . يساعدها إحساسها بالاعتداد والتفوق على كل ما عداها من قبائل العرب . من قبل الاسلام وهم رابضون حول الكعبة . وقد استثمروا هذا الموقع تجارياً حتى جاء الاسلام فأضافت القدسية الدينية ونسبهم للرسول قوة اضافية . يقول طه حسين ببلاغة . . «إن النبى قد وعد «قريشاً» حين دعاها إلى الدين الجديد ملك الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ؛ ففكروا جميعاً فى ملك الدنيا وفكر بعضهم فى ثواب الآخرة . .» من أجل ذلك شدد عليهم عمر ومنع الصحابة من مغادرة مكة لأى سبب خوفاً من أن ينتشروا فى الأقطار المفتوحة . لكن عثمان جاء وأطلق كل شىء من عقاله وأعطى لقريش فوق ما كانت تحلم به . سن قانونا جديدا يتيح لمن يملك

أموالا وأرضا فى الامصار المفتوحة أن ينقلها أو يتبدلها بأرض وأموال فى الحجاز . وهكذا تدفقت ثروة العالم القديم لتلك المنطقة الضيقة المحصورة بين الجبال القفر . وأقيمت الضياع ولم تقم الحضارة . جاءت النعومة والثروة ولم تأت قيمة العمل . . جاء الخمول . . وتبعه السأم . .

وأشتعلت الفتنة . قتل عثمان وعلى والحسين وابن الزبير وعدد لا يحصى من الصحابة والخوارج والشيعة والأمويين والعلويين وأصبحت أطلال الشعراء مواقع للحرب . وينابيع المحبين ملوثة بالدم . أنتقل مركز الخلافة والحكم إلى الشام . أنتزعت السلطة من أرضهم أنتزاعاً . وأستفاد الامويون من أخطاء عثمان . وأغلقوا باب الحكم فى وجه قريش . زادوا فى أعطياتهم من المال والعبيد والضياع وكل وسائل الاغراء الا التفكير فى السياسة أو التحدث فيها . قلموا أظافرهم بما يكفى حتى لا يعاودوا إنشابها فى جسد الدولة . هكذا ظهر جيل ابن أبى ربيعة . معفيا من كل الروابط . كل الأهداف النبيلة قد تلوثت بالدم . وبالغ عمر فأعفى نفسه من كل الاهداف المحددة التى يرسمها العدد الاكبر من الناس ، ومن أعتبارات الحياء والاحتشام . إنه أكثر خفة من أفراد جيله . أقدر على السرعة والحركة والاقدام . لا يكبله الوزاع الاخلاقى الذى يرهب غيره . . لقد أفزعت مغامراته كثيرا من معاصريه . . يحكى أبو سمره . .

« إنى لأ طوف بالكعبة فاذا بشيخ فى الطواف فقيل لى هذا ابن أبى ربيعة . فقبضت على يده . قلت له . يا ابن أبى ربيعة . قال : قل ما تشاء . . قلت . . أكل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ . قال : اليك عنى . . قلت : أسألك بالله . قال . نعم . كل ما قلته فعلته واستغفر الله . . » .

والدولة تتسع . يرفع الشهداء راياتهم المخضبة فوق الروابى البعيدة . وشعراء الغزل يتفانون فى الوجد والبكاء على أعتاب المحبوبة . كان عمر يمر بالخوارج فى ثيابهم الداكنة وهم مشغولون بتغير العالم وأنتظار المهدى المنتظر . وهو موزع النفس لان زينب قد أخلفت وعدها . كان يرى أن الخوارج عبيد طموحاتهم الشخصية ورغبتهم أن يعلو حقهم وباطلهم فوق كل حق وباطل . كان هو عبد لا مبالاته . لا يبالى بالمكسب والخسارة . عبد للمصادفة . المصادفة التى تعامله بغاية القسوة والخشونة فى بعض الاحيان ولكنها فى الغالب تحنو عليه وتقف فى صفه . .

كان عمر جالسا فى فناء مضربه وحوله غلمانه . أقبلت عليه جارية جميلة عليها آثار النعمة . سألت وحيته ثم قالت :

ـ حياك الله . . هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خلقا وأكملهم أدبا وأشرفهم حسبا . .

وافق على الفور . . اضافت المرأة :

ـ ولى شرط . تمكننى من عينيك أعصبهما وأقودك ثم أفعل بك ذلك حين تعود . . وافق أيضا . عصبت عينيه مقاوته . لم يعرف إن كان قد سار كثيرا أم قليلا . لكن رائحة العطر والبخور ملأت أنفه . رفعت العصابة . رأى أمامه امرأة لم ير مثل جمالها . نظر اليها مبهورا وقابلت نظرته بازادراء : قالت :

ـ أنت الفاضح للحرائر . . ؟ . .
قال عمر : وماذاك جعلنى الله فداك ؟ . .
ـ ألست القائل . .
فلثمت فاها آخذا بقرونها
شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
قال عمر . . أجل قلت ذلك . .
صرخت فيه :

ـ قم فاخرج عنى يا فاسق . .
فوجىء عمر بعبيد لم يدر من أين جاءوا . أنهالوا عليه ضربا بالعصى . تركته الفتاة دون أن تبالى بصرخاته . جاءت المرأة وعصبت عينيه وقادته إلى مضربه .

فى اليوم التالى جاءت نفس المرأة . . كان كل جزء من جسمه يتألم . . قالت :

ـ هل لك فى العود . . ؟ . .

وافقها على الفور . اختلطت عليه لمه الظفر بالانثى بـالالم الذى يتكبده فى سبيل ذلك . الأنثى البعيدة تظل دائما مشتهاه . عصبت المرأة عينيه حتى أنتهى لموضع الليلة السابقة . هاجته رائحة العطر والبخور . رفعت العصابة فرآها أشد جمالا وبهاء .

قالت :

ـ ايه يا فاضح الحرائر . . ؟ . .
قال عمر : بماذا جعلنى الله فداك . . ؟
ـ ألست القائل . .
وناهدة الثديين قلت لها : إتكى .
على الرمل من جبانه لم توسد .
وصرخت صرختها المعهودة : قم فاخرج عنى يا فاسق . .

وجاء العبيد . وتركت العصى اثارها الحمراء فوق جسده . كانت الضربات تبعث داخله نشوة سادية . كأنها بديل عن الرغبة المستحيلة التحقيق . لكنه إستطاع أن يغمس

كفه فى اناء صغير فيه طيب . وعندما عصبت المرأة عينيه أخذ يتسند حتى طبع كفه الملوث بالطيب على باب الخيمة .

وعندما عاد جمع غلمانه بسرعة . قال لهم :

- أيكم يدلنى على باب خيمة عليه أثر طيب كأنه كف ، فهو حر وله خمسمائة درهم .

انتشر غلمانه . لم يلبثوا أن عثروا على الخيمة . سار معهم فإذا الكف مازالت طرية . . وإذا الخيمة لفاطمة بنت عبد الملك ابن مروان . .

وجاء الصباح . رحل الركب . لكنه إمتطى جواده وتبعهم . فزعت فاطمة . إرسلت إليه الجارية . . قالت . . .

- ويحك ما شأنك وماذا تريد . . ؟ انصرف ولا تهدر دمك . .

لم يخف من التهديد . . قال . .

- لست بمنصرف حتى تبعث لى قميصها . .

ولم تجد المرأة بدا من العودة وإحضار القميص الذى طلبه . نفس الرائحة التى كان يشمها كلما توجه معصوب العينين إلى خيمتها . وزاد هذا من حدة شغفه . حتى الرغبات «الفتشية» لم تتركه . لا يعرف العار ولا الخجل ولا الخزى . إنه صريح فى مواجهة نفسه والآخرين . يقف على الشعرة الفاصلة بين الوله والشذوذ . يتحمل الضرب والاهانة ويقتنع من الغنيمة بأقل الأنصبة . لعل هذا كان هو الأسلوب الوحيد المتاح أمامه . إن احساسه الشديد بالخواء والسأم يدفعه للحديث أو للحركة لأن إحتكاكه بالكائنات الحية هو الوسيلة الوحيدة لأبقاء حيويته . . إن السأم وسط الصحراء هو الجحيم . .

أما المرأة فهى الجزء الآخر . مناقضا ومكملا له . هى الأكثر احساسا به . لأن الرجال لا يفهمونه . يشعرون بالاشمئزاز من تصرفاته . يقيمونه وفقاً لكل القيم التى يؤمنون بها والتى يعتقدون بالطبع أنها أفضل ما فى الوجود . إنه يختلف عن بقية الرجال . لا يعنيه فى هذا العالم الواسع المليىء بالمشاغل إلا المرأة . لا يشبه الرجال المنغمسين فى هموم الحياة اليومية : ولعل هذا هو الرجل الأمثل لكل منشغل بها ودائما . . باحثاً عنها إلى آخر العمر . .

إنه يختلف عن الفرزدق . كلاهما مولع بالنساء . لكن مدخل كل منهما للمرأة مختلف . . الفرزدق مخادع . عندما شب اكتشف أنه فقير . ضيع جده وأبوه ثروتيهما فى كرم أحمق . وتعود هو أن يلجأ للخديعة ليأخذ ما يريده . كان يرى أن النساء مخلوقات أقل منه . لذا فإنه يخدعهن بلا هوادة . حتى النوار إبنة عمه . والجوارى اللاتى وعدهن بالزواج . والقابلة التى خدعها على طريق مكة . مع كل واحدة لبس ثوباً مختلفاً . وحين يأخذ ما يريد

يمضى دون أن يلتفت . كل امرأة عرفته شعرت بمرارة الخديعة . شعرت بالخوف منه والحقد عليه . لكن إحساس المرأة تجاه عمر يختلف . إنها تعرف منذ البداية أنه يستحيل أن يكون زوجاً أو عشيراً وفياً . إنه عابر سبيل . رفيق لا يخاطب عواطفها ولا يطلب عشقاً وسهاداً . يعطى نفسه حتى آخر قطرة من دمه وينفق كيسه لآخر دينار ويعطى . حريص على أن تكون القسمة عادلة بينه وبين المرأة التى يعشقها . إن أعظم مصدر لسعادته حين يراهن سعيدات . ناسيات فى نشوة سرورهن هموم الحياة الرتيبة خارج الصحراء .

ثم كان أن قابل «الثريا» . إمرأة مختلفة . جذوة لا تخمد . وحشية الجمال ، نموذج للجمال الصحراوى . يجرى فى عروقها دم نزق مجنون توارثته من جدتها عبلة بنت عبيد التى أرسلها زوجها إلى سوق عكاظ لتبيع أواق السمن ، ومعها ابن أخيه ، فباعت السمن والناقتين ورهنت إبن الأخ وصرفت المال على هواها . . وهربت . . تدفق هذا الدم فى عروق «الثريا» فنزعت الأحجبة والقت بكل النواهى وتعرضت للرجال بجمالها . لا يقدر أحد أن يتجاهلها . ولا يستطيع أحد أن يمتلكها . وعندما تقابلت هى وعمر أدرك كل منهما أنه قد قابل صنوه . ورغم كل التقلبات ظل الرباط بينهما قائماً . كانت تعرف أنه لا يصلح زوجاً . وكان يعرف أنها لا تصلح زوجة . إن كمية النزوات بداخل كل منهما لا تستقيم معها أى حياة زوجية . .

كان سائرا فقابل بعض الرعاة قادمين من ناحية الطائف . سألهم عن الأخبار . قالوا انهم سمعوا بوفاة امرأة اسمها نجم من السماء . جن . حث جواده للطائف من أخشن الطرق وأقصرها . وصل لاهثاً فوجدها سليمة تقول ضاحكة . .

- أنا أمرتهم بذلك لاختبر مالى عندك . .

كانت تعرف كيف تسوسه . كان معها يفتقد حذقه المعهود . يرسل إليها الرسل فتردهم بتمال . .

- إن إبن ربيعة فارغ ونحن فى شغل . .

كانت تعطيه أحاسيس متناقضة . روضت كل عواطفه الجامحة . أعطته فقط الاحساس بأنها امرأة فيها كل النساء . حنونة مثل ريح الصبا . عنيفة مثل ريح السموم . لا يعرف الحد الفاصل بين رضاها وغضبها . يذكر عمر حين أتاها ومعه صديق له . ولما كشفت الستر وأرادت الخروج إليه رأت صاحبه فرجعت . قال عمر ببلاهة . .

- هذا صديقى . لا أحتشمه ولا أخفى عنه شيئاً .

واستلقى وهو يضحك . خرجت الثريا وضربته بظاهر كفها . كانت تلبس خواتم فى أصابعها العشرة . صرخ والدم ينزف من فمه . تكسرت أسنانه الأمامية . ورغم أنه سافر إلى البصرة لمداواتها بالذهب فقد اسودت . وظل اللون فى فمه كالذكرى المؤلمة . لقد تركت

«الثريا» فى نفسه كثيراً من الجروح . وحين فكرت بطريقة عملية فإختارت الوقت والزوج . فقبلت أن ترحل مع زوجها إلى مصر بعيداً عن موطن الذكريات والفضائح القديمة . وعرف عمر بموعد رحيلها . سافر حتى لحقها فى منتصف الطريق . جلس يعاتبها ويبكى . لكنها قالت فى بساطة عملية . .

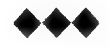
- ما جدوى العتاب وهذا وقت الرحيل . .

هكذا خرجت «الثريا» مثلما دخلت حياته بإرادتها . حينها شاءت . وظل عمر أسير الصحراء الواسعة . أسير الرمل والهضاب والصبار . مرت سنوات طويلة . وذاب الشباب من بين أصابعه . . أصبح شيخاً . لكنه لم يكف عن السعى . لعل هناك مغامرة لم يصبها بعد . .

رأى امرأة جميلة . سعى خلفها يلح كالذبابة . . لم تجبه . ظل يتبعها ويصف ثيابها . .
الريح تسحب أذيالاً وترفعها .
يا ليتنى كنت مما تسحب الريح . .
وظل يهتف بالابيات . قالوا لها أذكريه لزوجك . قالت كلا . لا أشكوه إلا الله . ثم هتفت . .

- اللهم إن كان نوه باسمى ظالما . . فاجعله طعاما للريح . .

وضرب الدهر ضربته كما يقول أبو الفرج . . كان يعدو فوق جواده فهبت ريح قوية . نفس الريح التى كانت تقوده فى شبابه . لكنها دفعته . سقط من فوق الجواد . ألقته على شجرة من أشجار «العضاة» يابسة . أشواكها حادة ومسنونة . انغرست فى جسده . قيدته إلى أرض الصحراء . ذهب جسده بددا فى الرمل الشاسع . لم تبق الريح لجسده من أثر . .



قيس بن الملوح
والموت فى الحب

قبل أن يبدأ أبو الفرج رحلته . سأل نفسه :

– هل كان لقيس بن الملوح وجوداً حقيقى . . ؟

تلفتت ظبية الوادى فرأته فى أيامه الأخيرة . فى لحظاته الأخيرة . يسعى فوق الرمل لا يستر جسده غير خرق باليه . زائغ العينين يداوم البحث عن شىء لا وجود له . . يسأل من يقابله . .

– أين أنا من ديار بنى عامر . . ؟ . .

ويأتيه الجواب هازئاً . . أنت على حدود العراق . . اتبع هذا النجم وسر للجنوب . . ويمضى . فوق الرمل الخادع . تحت الشمس المعادية . تتفتح جراح قلبه كأخاديد الصخور . ويمتد الصبار حتى عظامه . يصل إلى أول الأحياء فيسأل من يقابله :

– أين أنا من ديار بنى عامر . . ؟ . .

يأتيه الجواب مستغرباً . . أنت فى اليمن . . اتبع هذا النجم وامض للشمال . .

تشابهت الصحراء علينا . والليل والنهار . والموت والحياة . تشابهت الشمس ووجهها . كلاهما قاس وبعيد المنال . طاب مسلؤك أيتها النجوم يا مضللتى . يا جبل التوباد يا ذاكرتى الصخرية . يا كل الطلول والمراعى والعيون . طاب مسلؤك أيتها الجراح التى استعذب نزيفها . ويا أيها الجنون ، يا بلسمى الشافى حين عز الدواء وحان الموت . . وطاب صباحك . . يا ليلى . .

بعد سير طويل عاد أبو الفرج خائب المسعى . . هتف يائساً :

– سألت بنى عامر بطناً . . بطناً عن مجنون بنى عامر ، فما وجدت أحداً يعرفه .

كل من سألهم ضللوه . أنكروا أشعاره وكذبوا أخباره . تنصلوا من كل ما يربطهم

به . وسار أبو الفرج لهاث أنفاسه التى أضناها القنوط . ودبيب أقدام روحه التائهة . خلف العيون اللا مبالية . ذهب إلى راوية القبيلة . فى ذاكرته كل الشعر والانساب . . سأله . .

- أتعرف المجنون . . أتروى شيئاً من شعره . .

قال الرجل باشمئزاز واضح :

- أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى شعر المجانين . .

وعاد أبو الفرج . حمل أوراقه الممزقة فواجهته الخيام . وجذوات النار الخابية . . رماد . . رماد . . كل أحاديث الحب وأشعار الصبابات . ذهب إلى شيخ القبيلة ، استحلفه بمكانته أن يقص عليه أخبار مجنون بنى عامر الذى قتله العشق . وهتف الرجل فى سخرية حقيقية . .

- هيهات . بنو عامر اغلظ اكباداً من هذا . إنما يكون هذا فى القبائل الضعاف قلوبها . . السخيفة عقولها . الصلعة رؤوسها . .

ورفض أبو الفرج أن يتناول القهوة . واحتج بأن التمر يهيج معدته . وخرج يائساً . . وأصطحبه رجل عجوز كان يعرف كل أسرار القبائل ويجيد التحدث فى شئون الدولة . . قال له بجدية :

- إن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بنى أمية كان يهوى ابنة عم له . وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون . وإختلق الأشعار التى يرويها الناس ونسبها للمجنون أيضاً . .

والتبس الأمر فى ذهن أبى الفرج . أكان يسعى خلف وهم اذن . . ؟ . . أسماء كاذبة وأشعار منحولة . لم يكن هناك قيس . لم تكن هناك ليلى . أو يعجز البشر عن صنع هذا العشق الغريب المدمر فينتحلون له الوقائع . حتى الأعرابى الأخير الذى قابله وسأله . . رد عليه باهتمام بالغ : عن أيهم تسأل . . ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون . . فعن أيهم تسألنى ؟ . . وشعر أبو الفرج ببادرة الأمل . . فسأل بلهفة : عن ذلك الذى كان يشبب بليلى . . هز الأعرابى كتفه : كلهم كان يشبب بليلى . وانطلق يقص الأخبار ويروى القصائد . وتداخل كل شىء فلم يستطيع أبو الفرج التدوين . . وفى النهاية إكتشف أن الرجل كان يكذب أيضاً . . ألقى الريشة والورق وصرخ فى حنق :

- يا قيس . . هل أنت موجود . . ؟ . .

وحملت الريح صدى النداء . عبر فيافى الصحراء . والربوع المهجورة . كان قيس وحيداً وسط سرب من الظباء . يقص عليهم قصته ويروى أشعاره . والظباء تهز قرونها

الصغيرة . لا تفهمه لكنها لا تنفر منه . يؤكد لها ان ليلى تشبهها تمام الشبه . ظبية حزينة ألقى الصائدون لها الشباك . خيروها فى العار مع الحب . . أو الحياة بقلب ميت . وهل تملك الظباء الأختيار وهى تتخبط فى الشرك . . كان جسده العارى قد تلون بلون الصخر الداكن . وإستطال شعره حتى غمر وجهه . لم يبق غير عينين تتألقان بفيض غريب من الوهج حين يهفو ذكر ليلى . كم هى نائية . . لكنها آخر ما يربطه مع العالم من خيوط . . يعدو مع الظباء . ينام فى أوكارها . ويشرب من مناهلها . ويختبىء خوفاً من الصيادين . .

فى اللقاء الأخير تسللت أمه دون أن تخبره وذهبت إليها . . وقالت وهى تبكى :

– إن قيساً ذهب حبك بعقله . . ترك النوم والطعام . . فلو جئته هنيهة من الزمن . . ربما ثاب إليه بعض من عقله . .

تغير وجه ليلى . كانت أوامر المنع مشددة . . والسيوف مشرعة . . لكنها قالت :

– أما نهارا فلا . . لأننى لا آمن من قومى على نفسى . . ولكن . . قد أقدر على ذلك ليلاً . .

وحل الظلام فسارت إليه . إرتجفت الأيدى وهى تتلامس . وامتلأ الليل بحفيف الأنفاس الغامضة . . قال مبهوراً : إنى لأخشى أن أموت فجاءةً . . وفى النفس حاجات إليك . . كما هى . . وإنى لينسينى لقاؤك كلما لقيتك يوماً . . أن ابثك ما بيا . . كان جائعاً للمسة حنون . وتكورت النجوم على سفح «التوباد» واختلطت مع الحصى وبقايا الأغنام . حيث كانا صغيرين يرعيان معاً . والسماء تصب زرقتها الصافية داخل قلبيهما . كانت أمامه . ترفع طرف الخيمة وتدخل قلبه مثل أمنية مستحيلة . بكت أمه فى خبائها دون صوت . . لم تشأ أن تخبره بما فعلت خوفاً من أن يتبدد الموعد وتزداد مرارة الحرمان . نظر لليلى . . ابتعد يتأملها . تأوهت النار وتطاير شررها . أسئلة حائرة . ظل يتمتم بحروف أسمها كأنما يردده للمرة الأولى . يخطها بيد رقيقة على قلبه . مثلما ينقر عصفور صغير . . تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة . . صغيرين نرعى البهم . . يا ليت أننا إلى اليوم لم نكبر . . ولم تكبر البهم . .

وضعت يدها على فمه . . قالت :

– هذه ليلتنا الأخيرة . . وهذا آخر عهدى بك . .

تطلع إليها غير فاهم . . واصلت القول برفق :

– وافق أبى على رحيلى مع ورد . وفى الغد سوف يحملنى إلى ثقيف . .

ظل يتطلع إلى شفتيها وهى تتحرك . . كأن الكلمات تقولها شفاه أخرى . ما جدوى الحياة . . اذن . . أن تضىء النجوم وتدفع الشمس داخله بالقيظ والمرارة . . هى له . . رغم معاداة الأهل . . ورغم دمه المهدر . . هى له . . منذ تلك اللحظة التى رآها فيها

جالسة وسط نسوة من قومها . . نزل على مضاربهن وجلس يتحدث ويروى الشعر . . كان هذا شيئاً عادياً . لكن فتى آخر يدعى «منازل» جاء . . تركته النسوة وانصرفن إلى الوافد الجديد . . ولم يبق معه إلا هى . . تتسرب كلماته . تعطيه أهمية مضاعفة . قرأ فى عينيها أنها تريده وتوقف الزمن . واستيقظت القبرات من نومها . . كلما هبت الخزامى رددت إسمها . . وكلما سرى أقحوان الرمل التقيا معاً . . فما جدوى أن تحمل إلى ثقيف ولا يحملان معاً إلى قبر واحد . . واصلت التوسل إليه :

- لا تذهب إلى قومى . لا تسأل أحدا عنى . لقد أهدر السلطان دمك إذا اقتربت من ديارنا .

صرخ فيها . . الموت أروح لى . فليتهم قتلونى . .

كانت هى التى تقتله . تعطيه الجنون مخدراً قبل أن تجهز عليه . قد ترحل . . وتتعزى . . وقد تنسى أيضاً . . قد تكتشف أن زوجها ليس بالسوء الذى تصورته . وأن الحب لا يحتاج لكل هذا القدر من المرارة . لعلها لم تكن تريد انقاذ حياته بقدر ما تريد ألا تزيد من احساسها بالذنب . كان هو يحترق . يترك يده وسط اللهب دون أن يحس بلسعتها . يختلط الحب بالاعتذار . والوداع بالخوف . . قالت . . سوف أمضى . . غارت النجوم وتولى الليل . لكنها لم تفعل . هبط القمر . والقى التوباد بظله الكثيف عليها . وخمدت النيران . حاول احتضانها . لكن لحظة الوداع الأخيرة كانت مليئة بالخوف والارتباك . .

الظباء ترحل وتعود . لكن ليلى رحلت دون عودة . ذهب إلى حيها فلم يجد أحدا . دخل منزلها الخاوى . رأى مكان نومها . . وبقية آثارها . . جزء من الحياة لم يمت بعد . ألصق صدره بالتراب وأخذ يمرغ وجهه ويبكى . أصبح وحيداً فى الخلاء الواسع . فى داخله إفتقاد مرير . لم يخدعه أحد . وحدد أبوها موقفه منه بصراحة . . اعترض مستنكراً :

- أفضح نفسى وعشيرتى وآت بما لم يأته أحد من العرب وأسم ابنتى بميسم الفضيحة والعار .

تمتم قيس . ليتنى خرست ولم أقل الشعر . ليت النخل يكف عن الارتحال . وأن تتبدد زرقة السماء وتحل بدلاً منها صفرة قاتمة . ندم قاتم . ما أوحش الخلاء . وتعاويذ أمه . وسخط أبيه . وإستهزاء قومه . وفقدان ليلى . .

حين أراد التعزى خرج مع بعض من فتيان قومه . مروا فى طريقهم بجبل النعمان قالوا : يعابثونه . . قد كانت ليلى تنزل بهما . . توقف ملهوفاً . . فأى الريح يأتى من ناحيتها . . قالوا : الصبا . . قال : فوالله أريم على هذا الموضع حتى تهب الصبا . مضوا

وتركوه مشرئباً خمسة أيام كاملة . وهبت الريح فإذا جسد ليلى يتضوع عطرا . وهتف قيس :

فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت
على نفس محزون تجلت همومه . .
فليوقفوا هبوب الريح اذن . .
التفتت حوله نسوة الحى . . هتفن به :

- ما الذى فعلته بنفسك من هوى ليلى . . إنما هى امرأة من النساء . اصرف هواك إلى إحدانا فنساعدك ونجزيك بهواك . ونرجع إليك ما ذهب من عقلك وجسمك . .

اجتمع أهل الحى إلى أبيه . . قالوا له :

- لحجج به إلى مكة . ادع الله له . مره أن يتعلق باستار الكعبة فيسأل الله أن يعافيه من حبه ويبغض ليلى إليه . .

وألح عليه أبوه . توسل إليه واستحلفه باسمها حتى سار معه إلى مكة . ثم عاود التوسل :

- يا بنى . تعلق بأستار الكعبة سل الله أن يعافيك من حبها . .
تعلق قيس بأستار الكعبة وهتف بكل ما فى قلبه من وجد . .

- اللهم زدنى لليلى حباً . . وبها كلفاً . . لا تنسنى ذكرها أبداً . .

شعر أبوه باليأس . اقتاده إلى «منى» ليقضيا الليل مع بقية الحجيج . وحين هجع كل شىء . وخفت الابتهالات . دوى صوت من أسفل الجبل . ينادى اسمها . لم يسمعه سواه . لم يرتعد له سواه . صوت جياش باللهفة الجائعة . . استيقظ صارخاً : لبيك يا ليلى . . واستيقظ بقية الحجيج . . لبيك اللهم لبيك . . لكنه هرول وسط الصخور : لبيك يا ليلى . . تعثر فى الأجساد النائمة . والصوت يجذبه . يهوى به . حاولوا منعه وامساكه . واصل الصراخ والصدى يبدو الصرخات ويرجع النداء . . افلت منهم ومضى بعيداً . . حيث ينتظره الموت فى مكان مجهول .

انهك أبو الفرج من التعب . أوراقه ممزقة لا تحمل إلا أخبارا مبتورة وأحاديث كاذبة . ذهب إلى علامة بغداد «الجاحظ» . . كان منكباً يؤلف كتابه الضخم عن «الحيوان» . هتف به :

- أتوسل إليك يا سيدى الجاحظ : حدثنى عن مجنون بنى عامر . أهو موجود . أم مختلق

إبتسم الجاحظ ابتسامة زادت من دمامة وجهه قال :

- تعني ذلك الانسان الذى أصبح حيوانا . .

ودمدم أبو الفرج فى غيظ . . ليكن ما يكون . إنسان . حيوان . نبات . . هل كان له رجود . . ؟ . . وأجاب الجاحظ فى غموض :

- كان موجودا . ولم يكن موجوداً . .

وأوشك أبو الفرج أن يبكى .

يعشق أو لا يعشق . تلك المسألة . لقد كان سيد قومه . وسيط النسب . معروفا بثقته الشديدة بنفسه . كان مهيئاً لأن يصنع الكثير . أن يغدو أعظم وأرق ما شاهدته العرب من شعراء . لكنه فجر فى الحب كل طاقته . سخر له الكلمات والقصائد ولحظات العمر . تمزقت ثقته بنفسه مثل ثوب قديم فصار عاشقاً ضعيفاً عارياً .

لم يسخط أبدا على ليلى . رغم كل التقلبات . فى أول العشق اكتشف أن له منافسا يدعى « معاذ » هتف معزياً نفسه : كلانا يا معاذ يحب ليلى .

وعندما وعدته قبل أن يجن أن تزوره وظلت تماطله . واجراءات زواجها من « ورد » تتم كالقدر المحتوم . ذهب إلى ديارها وجلس مع نسوة يحدثهن عنها ويبكى وهى تسمعه . أطعته وعصيت الناس كلهم فى أمره وهواه وهو يعصينى . . لم تف بوعدها رغم ذلك . وعندما اشتهر أمره بها . وتناقل الناس أشعاره فيها . وذهب يخطبها . بذل خمسين نـاقة حمراء . . ولم يبذل لها « ورد » سوى عشر نوق فقط . . قال أهلها . . نحن نخيروها بينكما فمن إختارته تزوجته . . ودخلوا إليها وأيديهم على مقابض السيوف . صاحوا بها . والله لئن لم تختارى ورداً لنمثلن بك . واختارت ورداً . تركت لقيس الخلاء والجنون . وقف يرقب رحيلها إلى ثقيف عـاجزاً عن السخط . عـاجزاً شعـور بالحنق يخفف من مـدى مرارته . . كان حبها نوعاً من القضاء والقدر لا مرد له . . ثابت لا يتزعزع . لا يملك إلا أن يهتف . لقد ثبتت فى القلب منك مودة . . كما ثبتت فى الراحتين الأصابع . تحول العشق إلى تسليم لا إرادى عاجز . . واستبدل الحرمان فى الحياة بنوال كامل فى العالم الأخر حين يحشران سوياً فى يوم القيامة . .

لم يكن لليلى العامرية شكل محدد . حين سألوه عنها وصفها بكل ما هو جميل وصعب

تكاد يدى ، تندى إذا ما لمستها . .

وينبت فى أطرافها الورق النضر . .

إنها القمر حين الظلام والمطر وقت العطش والنجم فى ...ته وهى كل شىء ...لا ...ن تكون إمرأة .

من لحم ودم . . عندما يمر برجلين قد اصطادا ظبية وربطاها بحبل نظر إليها وهى تركض مقيدة . . كانت تشبه ليلى . لحظة ودعته . أن وضعت أناملها على جبينه وابتسمت دامعة . قال للرجلين :

- خلياها وخذا مكانها واحدة من أبلى . .

ورضى الرجلان بالصفقة . . وتركا الظبية تفر منهما ومنه . . همهم . . ياشبه ليلى لا تراعى . لكن ليلى بعيدة . . تفر مثل ظبية . .

وعندما تعذر مناها أصبحت بالنسبة إليه شيئا مثاليا لا يمس . . ولا يتصور أن يمسه أحد غيره . اكتسبت من بعدها لا واقعية غير محددة . . وبلغ الأمر غايته من الألم حين قابل ورداً ذات مرة . سأله مباشرة .

- بربك هل ضممت إليك ليلى . .
قبيل الصبح . . أو قبلت فاها
وأجابه «ورد» ببساطة : اللهم إذ حلفتنى فنعم .

وقبض قيس بكلتا يديه على قبضتين من الجمر . . ما فارقهما حتى سقط مغشيا عليه وسقط مع الجمر لحم راحتيه . . ولم يفعل ورد أكثر من أنه هز كتفيه . . ومضى . .

وظل أبو الفرج سائراً . أوقفوه أمام باب «التكية» . . قالوا له : إن «نظامى» شاعر فارس الكبير فى الخلوة ولا يقدر أحد على ازعاجه . سألهم عن ميعاد انتهاء الخلوة فابتسموا فى رثاء . .

- وهل يتبدد الوجد . . وينسل المحب من محبوبه . .

لم يفهم شيئاً . أقعى جالساً جنب السور وامتلأ الجو بتمتمات الدراويش وهى تصوغ أدعية التبتل بلهجة غريبة وغامضة . مر به موكب للصوفية ، لابسى الخرق محنى الظهر . . هتف فى حيرة . .

- يا نظامى أجب مسائلى . . وخفف من حيرتى . .

رأى نظامى أمامه . خارجاً من التكية فى ثوبه الأبيض . وشعر رأسه الاشيب منسدلٌ على كتفيه . يتطلع إليه فى تساؤ ل . قال أبو الفرج بسرعة .

- جئت أسألك عن قيس بن الملوح الذى أحب ليلى العامرية . . هل كان موجوداً ؟ .

ابتسم نظامى . تخلل لحيته بأصبعه . . ثم قال مؤكداً . .

- أجل قيس كان موجودا . . لكن ليلى لم تكن موجودة بطبيعة الحال .

وألقى أبو الفرج الورق والاقلام . . أخذ يضرب الأرض بقدميه مثل طفل غاضب . .

- يا لها من مسألة . . يا لها من حيرة . .

لم تكن ليلى امرأة . كانت رمزاً لكل الصبوات ما من شاعر عشق إلا وهتف باسمها . من من أحد حلم بامرأة إلا وكانت هى . لكن «قيساً» هو الذى أكمل الرحلة للنهاية . وختم بموته دائرة العشق . هناك فى بلاد بعيدة اسمها اليونان . . امرأة اسمها «هيلانه» . . اشعلت الحب والحرب . . وكل شرار الشهوة والموت . . هذه المرأة تشبه ليلى عند العرب . ولو أنها لم توجد لابتدعوها .

لم يصب قيس بالجنون . إنما طغى شعوره على سلطان عقله . فاضت عاطفته من القلب فملكت حياته لقد دخل أول درجات الوجد . وارتقى بالتأمل الجسمانى المحدد . لم يقف عند صفات ليلى المادية . خلقت العين كمرآة . فيها آلامنا . وفيها جمالنا . وفيها قبورنا . . والعين ترى ما تريد أن تراه . والروح تهفو للارتقاء . . لم تكن ليلى جسداً يحتضنه قيس ، بل كانت مداراً يدور حوله كالنجم التائه .

ولم يفهم أبو الفرج أى كلمة . لم يحس بالحيرة وهو يتتبع أخبارا كما أحسها الآن . . ودلو يلقى بالأمر كله وينساه . لكنه نظر فى حيرة إلى نظامى . أكبر شعراء فارس واحد اقطاب الصوفية . وهو يجزم أن ليلى عاشت عذراء . لم يمسها بشر . لا قيس ولا زوجها . . وظلت حتى ماتت عذراء . وفكر أبو الفرج : هذا مستحيل . هذا غير بشرى . إن الأخبار التى جمعها تؤكد أن الأمور لم تكن كما يعتقد نظامى أبداً . .

ماذا يعنى هذا ؟ غير أن نظامى قد أطال مقامه داخل «التكية» فأنساه ذلك كثيراً من الطبائع البشرية . .

أقبل على أبى الفرج اعرابى من بنى عامر وهمس فى اذنه :

- اليوم يشيع جسد قيس . .

تمتم مدهوشاً . . أو قد عثروا على جثته . . ؟ . . وهرع إلى مضارب القبيلة . . رأى أباه يبكى ويشير إلى الجسد :

- والله ما كانت تطمع فى مثله . .

حين لحقه الخبل . هام فى الفيافى وجداً عليها . حبسوه وقيدوه . فأخذ يعض لسانه حتى خشى الجميع أن يقطعه . خلوا سبيله . وهكذا انطلق . اختلطت آثار اقدامه بحوافر الوحوش والظباء . وتعودت أمه أن تخرج كل يوم فتضع طعاماً على حافة التل . لعله يأتى ويأكل . . وفى أيام لم يمس الطعام تقريباً . فى أيام أخرى كان يؤكل عن آخره . لم تكن

تدرى . أهو الذى يأكله حقاً أم أنهم رفاقه من الوحوش . لكن ذلك كان يعطيها بعضا من العزاء . . إنه مازال حياً . . يربطه بأمه شيء ما . .

ثم مرت خمسة أيام والطعام بحاله لم يمس . لا تقربه يد : ولا تقترب منه أى آثار . وكلما أبدلته عادت وأخذته كما هو . وفى صباح اليوم السادس . قالت لأبيه قلبى يحدثنى أنه مات . . همهم الأب . . وكيف يموت وقد كان ميتاً ؟ ألحت الأم عليه . أذهب وابحث عنه . . إئتنى به أو بجثته . وخرج الأب . قرأ الجميع ما على وجهه فساروا خلفه صامتين . تتبعوا أثره . . حاولوا تمييزه عن آثار بقية الحيوانات . تلالاً صعودها ووديانا هبطوها . حتى وصلوا إلى وادى الحجارة المسنونة . حاصرتهم الطيور السوداء وهى تتدافع بعرض الفضاء . تصرخ بصوت حاد متواصل كنعيب النسوة . نظروا أسفل الوادى فرأوا جثته . . قطعتها الأحجار مزقاً . . وهشمت الرأس الذى لم يكف لحظة عن الهذيان بالحب . . وأوقفت القلب المضنى أخيراً . .

ضموا جسده فى عباءة وعادوا به . استيقظوا كلهم . أفاقوا على موته القاسى . لم تبق امرأة . لم يبق رجل . . إلا خرج وتذكر وبكى . وقف أبو الفرج ذاهلاً وسط مظاهر الحزن الفاجع . هدم الرجال خيام كل القبيلة فأصبحت فى العراء . . ووقفت النسوة حاسرات الرؤوس . . . وجاء بنو عامر . جثا أبو ليلى أمام الجثمان الممزق وهتف فى حرقة . .

- ما علمت أن الأمر يبلغ هذا . . لكننى كنت امرأ عربيا أخاف العار . . زوجتها وخرجت من يدى . .

نهض . . نظر إلى صفوف الباكين . . توسل إلى أبى قيس . .

- لو علمت أن أمره يجرى هكذا ما أخرجتها من يدى .

ورأى أبو الفرج الجسد المكفن بالثوب الممزق وهو ينزلق بطيئاً فى الهوة الرملية الفاغرة وتمتم محزوماً . .

- كان موجودا اذن . .

وتعالت الصرخات . أخذت النسوة يرثينه بكل أشعار الحب العذبة . . واقتربت الظباء النافرة . . وقفت على أنقاض الخيام تتأمل رفيقها الوحيد وهو يغيب فى جوف القبر . . مكان راحته الوحيد الممكن . . ثم ولت هاربة . .



ديك الجن
الشراك منصوبة للشعراء

يا طلعة طلع الحمام عليها . الشمس تذهب بدداً . تنحدر خلف نهر «بردى» الصحل ورسول السلطان يطوف بالمدينة .

- الأمان . . الأمان يا ديك الجن . .

فى يده راية بيضاء . وغرة الجواد بيضاء . لكنها شمس تموت ويأتى الصباح بشمس أخرى مخادعة . هذا المخبأ رطب . قبو أسود . والوحدة بالغة المرارة . يا ديك الجن ذهبت الصبوات العذاب واحترقت الشهب . . يا طلعة طلع الحمام عليها . وجنى لها ثمر الردى بيديها . . تدق الطبول فوق أبراج دمشق .

- الأمان . . الأمان يا ديك الجن . .

لا البيوت الشهباء . ولا الحدائق الوفيرة الخضرة . ولا السلطان الذى يترامى ملكه من البحر حتى الصحراء يعطوننى الأمان . إنكسر المثلث وضاع طعم الأمان . . ما جدوى الهرب اذن والتخفى . . نوافير الحرس تدوى .

- الأمان . . الأمان يا ديك الجن . .

خرج ديك الجن من مخبئه . إزداد عمره وتضاعف . إمتدت الغضون من أعلى الوجه حتى اللحية الكثة . سيفه فى الغمد لم يزل ملوثاً بالدم ، وطوال شهور الهرب لم يجرؤ على غسله . آخر ما تعلق به من آثارهما . هى وهو . . رفيقته فى البيت ، ورفيقه فى الصيد . . زوجه وغلامه . إنكسر المثلث . رويت من دمها الثرى ولطالما روى شفق من شفتيها . وقف ديك الجن أمام حاكم دمشق . أمرهم أن يحلوا عنه وثاق السيف . قال . .

- عفا السلطان عنك . . لكنه حرم عليك حمل السيف مدى الحياة .

أخرجوه من غمده وألقوه فى أحد الأركان . . رأى الدم الجاف على نصله وقد أصبح «إكناً . رأى صوراً غريبة تذيل فى حمص . وأمطاراً صافية تتحول إلى سيول . ورآها تبسم من خلف الخمار . هتف أحبك . قالت . لا تنس نفسك أنت مسلم وأنا نصرانية . كان أسمها «ورد» وكانت سماء حمص لا زوردية ناعمة وكانت السحب قريبة المنال

فلماذا أنا وحدى أحببت ثم قتلت . . ؟ . .
الحاكم يتكلم . .

– كان السلطان قد أقام الحد عليك . لكن أحمد بن على الهاشمى تشفع لك .
وأشار للحراس أمراً . إطلقوه .
فأطلقوه . ومضى . .

وهاد الطريق المهجورة تعرف عبد السلام بن رغبان الشهير بديك الجن تعرف أن سكان العوالم الخفية يصبون الشعر فى فمه فيتحدث عنوا بأعذب الكلمات ترحل الجنيات إليه من وادى عبقر إلى الشام . مثلما رحل جده الأول من قبيلة تميم مع الفتوحات الاسلامية الأولى واستوطن حمصاً وابناؤه من بعده تعرف أن ديك الجن متشيعاً . شديد العصبية على العرب . يقول قولة جده . .

– ما للعرب علينا فضل . جمعتنا واياهم ولادة ابراهيم وأسلمنا كما أسلموا . ولم نجد أن الله فضلهم علينا إذ جمعنا فى الدين .

تعرف الوهاد مراثيه الطويلة . عندما يتذكر الحسين ودم كربلاء . وعندما يستدير قمر عاشوراء وتبدأ طقوس الندم ومواكب التفكير . . من أجل الشهداء الذين اغتيلوا بلا ثمن يقول عبد السلام أشعاره فتغدو مراثى عامة يحفظها الرجال وتنوح بها النساء . . لكن الوهاد لم تعرف أن الراثى لم يعد يرثى إلا نفسه . . وأن حمل الندم قد ناء به . .

توقف أمام خيمة يجلس عليها رجل عجوز سأله : أهذا الطريق إلى حمص . . ؟ . تأمله الرجل ملياً . قال . أنت ديك الجن . إنما تعرف حمص بك . وأى الطرق سرت إليها تحمل حمصا حيث تحل . إبتلع مرارته وسار . يا شيخ الطرق متشابهة . والأقاويل متشابهة . ما قاله ابن عمه أبو الطيب هو نفس ما قاله رفاق السحر وخلان الليالى . . إبتعد عنها . . إنها لعوب . . إن فيها نهايتك . كان الغلام يقف بين يديه . يرتحلان تحت الشمس . يصيح به : شد قوسك يا مولاى حتى لا يذهب الصيد بعيداً . . وطار الصقر ثم حط على جيفه . . قال لها : ارفعى نقابك . . رفضت فى المرة الأولى . الح عليها فرفعته . رأى وشم الصليب . قالت . أما قلت لك . . الآن تمضى مبتعداً . الآن تموت احدى قصص الحب فى ليل حمص . . لكنه كان يحبها . . أدرك هذا وهو يهتف متوسلاً .

– لو أنك تحبينى لتركت دينك وتزوجتينى . .

إبتسمت وأسدلت النقاب . صاح الغلام «بكرة» يا مولاى لو أننا سرنا ثلاثة أيام وثلاث ليالى فسوف نصل إلى وادى الظباء . وكان ديك الجن يحب غلامه . يربط بينهما عشق الصحراء الواسعة وإنطلاقة الجياد فى هدأة الصباح والليل الدامس . خيمة صغيرة ونار موقدة وسهم لا يخيب . وظبى طازج لا يكاد يلفظ الروح حتى يتحول إلى شواء . وعند الينابيع البالغة البرودة – فى الفجر – يخلعان ثيابهما ويغوصان سوياً . رجلان حقيقيان . لا مولى وغلامه . .

قابلا عرافا تائها . قال ساخرا : إنه يتنبأ للاحجار عما سيكون المستقبل . سأله ديك الجن عن طالعه . قال العراف . مثلما يتلوث سهمك بدم الظباء ، يتلوث سيفك بدم الآدميين . . سأله الغلام عن طالعه . . قال العراف : الموت معلق على كتفيك . الموت ظلك . ولم يدفعا له أجراً . ولم يبال هو بأن يأخذ أجراً . . يا طلعة طلع الحمام عليها . .

أعلنت ورد إسلامها . كانت تعلم شدة حبه . إن صياد القوافى والقلوب قد إستكان عند حافة نبعها . قال أبو الطيب ابن عمه فى حنق . .

– هذا دأب عبد السلام . . يصاحب الفسقة . . . ويتزوج النصارى ثم الزواج وامتلأت أرصفة حمص بالنجوم الملونة . ورفع ديك الجن نقاب عروسه فتوهجت الشموع وذابت الثلوج فوق الجبال البعيدة . . يا ورد صفا الزمان .

كان ديك الجن يتساءل . . أهذا هو الطريق إلى حمص حقا . . ؟ . .
هذه القرى ما كانت مهجورة هكذا . ولا الأرض مغطاة بالرمل والنباتات مريضة والشمس معادية . . كيف اختل ميزان زماننا ومالت كفتنا للنقصان . . ؟ . .
صرخ الغلام . إقتل فريستك يا مولاى . كانت الفريسة ظبياً صغيراً وقع فى الشرك وجثم الصقر عليه . يتطلع نحوهما – السيد والغلام – بعينيه المستديرتين اللامعتين . . يسألهما عن السبب . . لماذا يكون القتل دائماً نهاية اللعبة . هتف الغلام . . لا تتردد يا مولاى حتى لا يفلت الصيد . والعينان تدوران فى محجريهما . تومض ومضات التساؤ ل الحارة والأمل الواهى فى النجاة . . أكان هذا البريق فى عين ورد . . نفس الدهشة ونفس السؤ ال :

لماذا يكون القتل دائما نهاية اللعبة . . ؟ . .

أبو الطيب يسعى فى المدينة خلفه . يهبط كالبومة على مجلس الخلان فيذهب نشوة الخمر ويعنفه دائماً يعنفه . يا عبد السلام لا تفعل كذا وكذا . إترك أصحابك ومتعتك . . كف عن قرض الشعر . . طلق المرأة النضرانية . افعل كذا . وكذا . . كانا أولاد عم . شاهدت حوارى حمص المتربة طفولتهما ورضعا سوياً من شمس الطرقات . لكن الجنيات

هن السبب . لما رحلت من وادى عبقر اعطين عبد السلام كل شيء وتركن أبا الطيب أسير الظل والحرف الباهت . كانت المدينة تروى أشعار عبد السلام في لهوه ومراثيه وهو منزو بعيداً عاجزاً عن إيصال حاجته الملحة . وحتى الجوارى أيضاً ــ عليهن اللعنة ــ عندما كن يحملن رسائل سيداتهن لعبد السلام لم تبالى احداهن بالقاء نظرة واحدة على أبي الطيب . لكنه ظل يطارده . . يفرض حوله حصاراً ووصايا محنقة . . وعندما تزوج عبد السلام ملأ المدينة بالاشاعات . . الزواج كان ورطة . . هل رأى أحدكن ورداً . . كل الذين حضروا الزواج شاهدوا ارتفاع بطنها الغريب . و . . . و . . . وفى عرض الطريق وعلى الملأ قابله ديك الجن وصفعه على وجهه . . .

هذه أول مشارف حمص . البيوت البيضاء تبرز مثل جبال الثلج . الشوارع المرصوفة بالاحجار مغطاه بالورق الأصفر . كهول ونسوة يلبسن السواد مقعيات جنب الجدران . والجواد ينقل الخطى منهكاً . وقع سنابكه لا يكاد يسمع . . يا طلعة طلع الحمام عليها . . كانا ــ هو والغلام ــ يدقان احجار الطريق بالسنابك فتستيقظ المدينة كلها . أمس واليوم وغداً . نهار واحد متصل . . مثلث هو الضلع الرئيسى فيه . . ورد الضلع الثانى وبكر الضلع الثالث . كان هو يتواصل مع الضلعين الآخرين فهل تواصل الضلعان بعيداً عنه عند القمة . . ؟ . . أليست هذه طبيعة الأمور . . مادام هناك عبد السلام ــ ورد ، وهناك عبد السلام ــ بكر فلماذا لا يكون هناك ورد ــ بكر ؟ أتراه كان يدرك هذا من البداية ويتغاضى . لقد سارت حياته رخية هكذا وسط نظام محكم الأتصال . وعندما تدخل الوشاة وثار السيف تفككت أضلاع المثلث وأصبح الضلع الثالث وحيداً . مجرد خط باهت فى الفضاء لا يصل ولا يتصل . . لو أنه عرف دون تدخل أبى الطيب والآخرين . . هل كان الأمر يصل إلى نفس النتيجة . . ؟ .

كان قد أصابه عسر وطالت به الأيام الضنك فقرر الرحيل . «سليمة» احدى البلاد التى يحكمها صديقه الأمير أحمد الهاشمى وابتعد عن البيت . . أكانت هذه مرتها الأولى أم مرتها الأخيرة . . ؟ . . قالوا أنها تهمس له إذ تريد . . وإنه يأتيها من خلف الحديقة . . والجوارى يتحدثن عن فحولته . . قال الجميع . . إنهم شاهدوهما . . وإستعاد فى ذهنه عشرات الكلمات والاشارات والحوادث والنظرات الخفية والأشياء التى بدت لحظتها غامضة فسل السيف وسال الدم وبدا أبو الطيب أقرب إليه منها . يشد على عضديه ويهمس له بكلمات عسلية مسمومة .

هذه حمص أخيرا . . طيور مذبوحة وأبواب مغلقة . يا طلعة طلع الحمام عليها . قد بات سيفى فى مجال وشاحها . ومدامعى تجرى على خديها فوحق نعليها وما وطىء الحصى . شىء أعز على من نعليها . ما كان قتليها لأنى لم أكد أبكى إذا سقط الذباب عليها . لكن ضننت على العيون بحسنها . وأنفت من نظر الحسود إليها . . هذه حمص أخيراً . . منفى جديد . . والأصدقاء القدامى كم أصبحوا غرباء . .

دخل حديقة داره.. لا أشجار تظل . مجرد فروع يابسة . كأنها اذرع فزعة . الدار قفر لا يسكنها سوى العناكب والنباتات تمد أشواكها . . قديماً كانت الأحجار تعرف سيدها ، لكن الفراغ يجهل الجميع ، لكنه وجد شخصاً ؛ كله كتلة سوداء مكومة جنب الحائط ؛ فاطمة مربيته وخادمته منذ أن شب ووعى . تتأمله بهدوء مثلما تتطلع أم إلى ابنها وقد عاد لتوه من اللعب فى الخارج . قالت : هل عدت يا سيدى . . . قال بمرارة .

– أين كنت عندما خانانى سويا . .

لطمت المرأة وجهها . قالت : سبق السيف العزل يا سيدى . . لكننى لم أغادر فراشها فى أى ليلة من ليالى غيابك . هتف مبهوتاً . . كان يعرف صدقها . وأوصلت المرأة القول : ليتك سألت قبل أن تهوى بسيفك . أننى لم افارقها لحظة ولم يقربها بكر لحظة . . قال هل كنت أنا على خطأ ؟ . . عاودت النواح . . لو سألت قبل أن تأتى غاضباً وقبل أن تفر نادماً . . تركها . هرول عبر البهو الخالى والحديقة المهجورة والشوارع الموحشة . . البيوت ثكلى والأصدقاء يرتدون الأقنعة . . أكانت مؤامرة . . ؟ . . تضاعف إحساسه بالخديعة . . كلهم كانوا يعرفون إلا هو . . لكنهم ابرياء من الدم إلا هو . . ومثل المرّة الأولى أقسم الجميع أن أبا الطيب هو الذى فعل هذا . . كل الأمر من تدبيره . . صرخ وسط الشوارع . .

– هل كانا بريئين . . ؟ . .

كانت تنثر الزهر حول فراشه وكلما ضم جسدها تضوع برائحة الطيب . . كان بكر يدعك جسده بكريات الثلج فتبعث داخله رعدة من النشاط . . صرخ وسط البيوت . . هل كانا بريئين ؟ . هرع إلى دار أبى الطيب وجده قد لاذ بالفرار والأثاث يبتسم ابتسامة صفراء . . لم ينس أننى صفعته وسط الناس . . أننى قلت أشعاراً أهجوه فيها . . كانت تقبل أطراف أنامله وتقول .

– دين المرء حيث يحب . .

صرخ : لن يفلت من يدى . قال الحاكم : يجب أن توقف حمام الدم الذى تغرق فيه . . هتف : لقد خدعونى . حمص كلها تآمرت ضدى . صعد فوق أعلى مكان ورأى المدينة مثل قوارير فارغة قبيحة . لقد حولونى إلى قاتل ياحمص يا شراك الصياد . ما جدوى المراثى يرددها المخادعون . جاء أبناء العمومة من «مزينة» وجاء الأباء من تميم وهبت ريح الموت من الجبال . ونبت الحب من ظهر المقابر . وماتت الغزلان فى المنافى البعيدة . وتبلد الزبد على حوافى الجزر الغرقى وأصبح الشاعر وحيداً . . لا يعرف ماذا يفعل ولا إلى أين يذهب . . يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيدها . . رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتى من شفتيها . .

كثيـر عـزة
نصيب الشعراء من العالم

كان «كثير» ينتظر قدوم الحوت . وكان الحوت يتثاءب فى جوف المحيط . وكان المحيط متخماً بالمحار الفارغ . . فكيف انشق الموج عن قريش . وامتلأت الخيام بالطحالب وسار الحوت فوق الرمال . . وكيف جاء الموت بكل هذه الأحلام العذبة . . ؟ . .

يا عزة . . ملأ الشوق عروقى بالملح . . ودفن الرمال واحات قلبى . . وعز الطبيب والدواء . . وأنت ترياقى ومولى . . .

كان أبو الفرج الاصفهانى متنكراً فى هيئة «نطاسى» مغربى . يرتدى ملفحة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة مدببة . . واقفاً يتخلل أصابعه بلحيته . كأنما يفكر بعمق ثم هتف :

– لا فائدة ، لابد من إعادة كيه بالنار . .

وجسد «كثير» ملقى على الفراش . فرع يابس جاف . لا أثر للحياة فيه إلا هـذه الأنفاس التى ينتزعها . والنيران تركت بقعاً ملتهبة فى بطنه . وظهره . وجنبيـه . ورغم تعدد مرات الكى إلا أنه لم يفق من غيبوبته المتصلة . يفيق ، يسعل بعنف ويبصق دماً . . ثم يعاود الغيبوبة . . .

كانت قريش كلها تنتظر موت كثير . . وكان «كثير» ينتظر قدوم الحوت . . .

منـذ الصباح والأسـواق تبيع كـل شىء . كلما زاد عدد الأمصار المفتوحـة تنوعت البضائع . . جـاريات الـروم البيضـاوات . جلد الصـين المدبـوغ . أصباغ فلسـطين . العباءات المراكشية الموشاه . فخار مصر الملون . وكانوا . . يبيعون جسد «كثير» . . . فى منتصف السوق كان رجل يهتف . . .

– من يريد أن يحفظ شعر «كثير» لقاء ثلاثين دينارا .

ازدحمت النسوة حول الرجل . اختلط صوته المؤثر بتأوهات «كثير» . . كانت قصة الحب قد أصبحت مبتذلة تماماً من طول التكـرار . . لكن النساء كن يبكـين . كلما زاد أعراض عزة . وشموخ أنفها . . ازدادت حرارة التأثر . . وتمنت النسوة لو يكف «كثير» عن التأوه قليلاً حتى يحسن الاستماع . .

وأعلن آخر عن بيع رداء «كثير» . رداء ممزق قصير . قذر . إختطفه الرجل ذات مرة من فوق كتفيه ولم يشأ «كثير» أن يلتفت تيهاً وتكبرا . وافتتح الرجل حول الرداء مزاداً صغيراً ما لبث أن رسى على أحد الخدم الذى اشتراه لحساب سيدته . . .

وكان هناك من يبيع صندله . ولفة عمامته . وقميصه . ورقا من الجلد فيه أبيات من قصيدته ومكحلة وقنينة . . ونجح أحد الحلاقين فى بيع لحية صغيرة مدببة وصدق الشارى أنها لحية «كثير» بالفعل . . قلب مساعد النطاسى الكرات النحـاسية فـوق الحجر حتى اكتسبت لونه المتقد . . أسرع آخر فى تعرية جسد «كثير» نهائياً . تلقف أبو الفرج الكرة النحاسية بواسطة الملقط فى مهارة فائقة . . بحث عن بقعة من الجلد لم تحرقها النار بعد . ثم ألصق بها الكرة فى حركة مباغتة . صرخ «كثير» . . أصدر اللحم المحترق صوتاً ورائحة ثقيلة . تقلصت ضلوع الصدر البارز . صرخ «كثير» من خلال الغيبوبة . . .

«يا عزة» . . .

الألم ماء نبع ينبثق من اغوار عميقة . كأنها الصحراء غضبى . وكأنها عزة معرضة . كانت تجلس على الطرف الآخر من عين الماء . صبية صغيرة بهية الحسن . تمد يدها فتهطل السماء بالمطر الغزير . ولا تجود هى بابتسامة . تهمس . . أنت أقصر مما ينبغى . . لو أحببتك لعايرتنى بك صويحباتى . . وتمضى . تغرس فى كبده سهاماً صغيرة ملونة . وتتركه يتلوى من النزيف .

« وإن آك قصراً فى الرجال فانني . .

إذا حل أمر ساحتى لطويل . . » .

وقال الطبيب مستغربا . إنه يبتسم . كأنما يستعذب الكى . كانت عزة تضع أناملها على جبهته . تهمس مدهوشة . من الذى يصدق أننى سوف أحبك مثل حبك لى . . ؟ . .

كانت فى الصحراء بئر بعيدة . إذا شرب منها عاشقان لا يفترقان . ذهباً يبحثان عنها وسط الشعاب فضلا الطريق . وعندما وصلها كان وحيداً . وكانت عزة قد تزوجت من رجل آخر ؛ لا يقول شعراً . . ولا يحلم ببئر المحبة . . لكنه طويل عريض . . فحل . . مثل كل الرجال . . .

دق النطاسى أبو الفرج الأرض بقدميه مثل طفل غاضب . . صرخ :

- لا فائدة . كل مكان فى جسده أصبح محترقاً تماماً ولا يريد أن يكف عن السعال ويبصق الدم . اللعنة على الشعراء . متعبون وهم أصحاء ومتعبون وهم مرضى . .

أحست قريش أنها سوف تفقده . ودخلت صرخته البيوت وهزت أوتاد الخيام . وجاء الموت ممتطياً غيمة سوداء . خفت الضجة فى الأسواق شعر التجار بالخجل والصبايا بالحسرة . ولم يكن «كثير» إلا حالماً . لا يعتد بوجوده المادى . كان قصيراً دميماً . يقسم الذين يعرفونه أن طوله لا يزيد عن ثلاثة أشبار . وكانت عزة إذ تحس بحبه لها يمتزج ذلك بشعور حاد من الخجل . وكان «كثير» لا يكف عن السير وحيداً فى الصحراء ، وذات مرة خرج عليه فارس مصنوع من النحاس . وقف فى مواجهته . طويل . عريض المنكبين . لكن ملامحه النحاسية هى نفس ملامح «كثير» . . قال له . . .

– أنا قرينك من الجن . . جاء أوانك حتى تقول الشعر . .

وصهل الجواد فأحس بالسنابك تدق صدره . إختلطت دقاته الهائجة مع وجيب القلب وكان الرمل ساخياً والشمس قاسية . وبهض من إغماءته وتكلم فكان الشعر . وكان حلم الحياة المتجدد وامتد النحاس داخل عروقه . . واختلط الدم بالكلمة . . يا رفيقى يا أخى الجن . . فى أى الكائنات . هب لى حب عزة دون خجل .

كان يرعى الغنم . مر بنسوة من بنى ضمره كن يتضاحكن ويشرن إلى قامته . لم تكن تتجاوز ظهور الخراف . . شعر بالحنق نحوهن . . كانت السخرية تفقده الثقة فى فارسه النحاس . . قال لهن . أين أجد الماء لأسقى غنمى . . ؟ . . أخرجن له فتاة صغيرة سارت أمامه حتى ترشده للبئر . سألها . . ما أسمك ؟ قالت : عزة . ورمقته بنظرة خجلى . فكر أنها خالية من السخرية وكان ماء البئر أزرق كوجه السماء . لم يعرف لون عينيها . كانت مجرد فتاة صغيرة . جعدة الجدائل . فمها صغير ، حين تضمه تبدو مثل الأميرات . . قال لها . . هل أقول لك شعراً ؟ قالت : لا أحب الشعر . كانت مجرد فتاة صغيرة . . قال : ما اسم أبيك ؟ قالت : لا شأن لك . هذا هو الماء فأسق غنمك . وتركته يتطلع فى أمرها . ثم عادت تحمل بعض الدراهم ، قالت : تقول لك النسوة بع لنا كبشاً وسوف نرد لك بقية الثمن فى طريق عودتك . توثب من الفرح . انتقى أجمل كبش فى قطيعه وطلب منها أن تحتفظ بالدراهم . وإن تنتظر عودته . وأخذت عزة الدراهم . وساقت الكبش دون كلمة شكر واحدة . كانت مجرد فتاة صغيرة . ورحل للتلال . كانت النجوم فى متناول اليد . والسحب قطع من الزبد المتناثر . والشمس وجه عزة . وعاد بعد ثلاثة أيام . وجد النسوة بنى ضمرة كما تركهن . قلن : خذ دراهمك . . قال لستن غريماتى .

قلن : فمن أذن . . قال كأنه يحلم : عزة غريمتى ولست أقتضى حقى إلا منها ضحكن فى صوت عال . قلن : ويحك . عزة جارية صغيرة وليس فيها وفاء لحقك أحله إلى احدانا ونحن أقدر على الوفاء . لكنه كان يريد عزة . فقط عزة . مثل حاجته لشعاع من قمر بعيد . . .

قضى كل ذى دين فوفى غريمه . .
وحين عزة ممطول معنى غريمها . . .

ظل يروح ويجيء أمام خبائهن . وهن يتضاحكن على قامته التى تطاول الأغنام . وهو يقول شعراً . والنحاس يتمدد داخل عروقه . كففن عن الضحك . أخلدن ينصتن فى إنبهار حقيقى . ذهبن إلى خباء عزة وأخرجنها . كانت مجرد فتاة صغيرة غضبى . تسبه وتسبهم . لا تريد أن تخرج ولا تحمل أدنى فهم لأشعاره . حتى أن نجومه المتوهجة أصبحت أحجاراً . ومضى الشاعر القصير البالغ الدمامة مفرداً . ولكن كان مقدراً لها أن تنمو وتكبر وتفهم الشعر . . وأن تحس بالفخر لأن كل هذه القصائد قيلت من أجلها . . ولأن الشاعر الذى تهوى الملوك مديحه يخر صريع لمسة واحدة من أناملها . وهكذا ينمو الحب . زهرة وحشية ومزيج من الخجل المؤلم والزهو الكاذب . .

توصل النطاس أبو الفرج إلى فكرة عبقرية . هتف بالمحيطين به . .

– سوف نقتطع قطعة من جسده . إن الألم الذى سيحدثه الجرح كفيل بإيقاظه من إغماءته الطويلة . .

احضر مساعده سكيناً صغيراً مدبباً . أمسكها أبو الفرج بنفس المهارة وطعنة صغيرة . فتح كثير عينيه . كانتا حراوين قانيتين . ضرب أبو الفرج الأرض بقدميه فى سرور : ألم أقل لكم . . أنا جالينوس العرب وبُعث الحركة فى أرجاء قريش وابتسمت الصبايا الصغيرات . وواصل التجار البيع والفصال فى ارتياح . وطلب «كثير» قطرة من الماء . لكن النطاسى أخبره فى حزم أن جسده مليء بالحروق وأن الماء معناه الموت . قال «كثير» . . .

– سوف أرحل . سيأخذنى الحوت الأسود فى جوفه لمدة أربعين يوما . . ثم أعود . أولد من جديد . . هكذا قدر لى . . كأننى أقرأ الآن لوحى المحفوظ .

واغمض عينيه . وعبثا وخزه النطاسى ليوقظه . أخذ يهذى عن يونس بن متى والأمام المنتظر . . وعزة ؛ كانت جالسة فى خيمة معهدة بينها صحراوات مقفرة . وحبال محبة متقطعة . كانت ترب اللبن فى زق من الجلد . وتفصل عنه السمن . وتغسل ملابس زوجها وتعانى من اضطرابات الهضم التى تصاحب الحمل . يسألونها عن الأشعار التى قالها «كثير» فيها فتكتشف أنها نسيت معظمها . كان الحب اغماءه قصيرة تبعتها يقظه قاسية . تدخل على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فيهتف مدهوشاً . أنت عزة كثير . ما الذى أعجبه منك ؟ . . ردت على الفور . أعجبه منى ما أعجب المسلمين حين صيروك خليفة . . وسكت الخليفة بعد أن أدرك سلاطة لسانها . وفى أحد مواسم الحج طلب منها زوجها أن تأتيه ببعض السمن . . طافت بين خيام الحجيج تسألهم . حتى دخلت احدى الخيام فوجدت أمامها «كثيراً» . . لم تكن تدرى أنها خيمته . ولم تكن تدرى أنه مازال على قيد الحياة . كان جالساً يبرى سهامه . وذهل حين رآها ترفع طرف الستر وتدخل . أخذ يبرى أصابعه بالسكين . والدم ينفجر شوقاً ورغبة عاجزة : جلست بجانبه تضمد جراحه . تقول له كلمة من كلمات العزاء . أى عزاء يقال للموتى . ولم تنس أن تأخذ زق

السمن الوحيد الذى كان يملكه . . وبعد أن تناول زوجها غذاء دسما . . اكتشف اثار الدم الموجود فوق الزق . وثار ثورة عارمة كما يليق بزوج شهم ، وكان الانكار مملاً فقصت عليه ما حدث . وصمم الزوج أن تمضى معه إلى خيمة «كثير» وتسبه . وكانت تعانى من صداع مستمر . وتمقت المجادلة فنهضت معه . ذهبت إلى «كثير» ، لكزها زوجها فتقدمت خطوة وصرخت فى وجهه . . .

— يا ابن الآثمة . .

وانصرفت . ونفخ الزوج صدره ومضى مختالاً كالطاوس . . كان الأمر صبيانياً . ما جدوى طعنة اضافية والقلب تكاثرت عليه الطعان . . لم يبق إلا الحلم . . المهرب الأخير . . .

— « بعد اربعين يوما من موتى . . سأعود على فرس عتيق » .

كان الحلم هو التعويض عن كل الآلام . والجراح التى لا تكف عن النزيف . والسخريات اليومية . . كان يحلم بالبعث . بالرجعة فى صورة أكثر بهاء وشبابا . يكون فيها فارعا عنيدا كفارس . قويا جوادا كسيد . مهيبا شديد الرهبة كملك . لن تكون عزة ذلك الحبيب الخجل البعيد المنال . سوف تفخر بين أصحابها . وسيقف الملوك كالشعراء الفقراء يتلقون عطاياه . . وسوف يصبح العالم أكثر جمالا وبهجة . لا يكون فيه شىء قبيح أو مثير للسخرية . .

دخول على عمته العجوز فطرحت له وسادة يجلس عليها . . قال لها . .

— أنت لا تعرفيننى . . ولا تكرميننى حق كرامتى . .

دهشت عمته . . أخذت تذكر اسمه . ونسبه . . لكنه قال فى ايجاز . .

— أنت لا تعرفيننى . . أنا يونس بن متى . .

لم يكن مجنوناً . ولكن لم يكن هناك بد من انتظار الحوت . حين يصل حب عزة لهذه الدرجة من القسوة والتباعد ، فلابد أن يبتلعه الحوت ويلفظه من جديد . لعل هناك أملاً ما . وحين يعجز الأمويون عن إقامة العدل على الأرض . فإن الشيعة هى حلم الخلاص . ودم أولاد الأنبياء الذى سال فوق سهل كربلاء هو قربان العدل المفتقد . سوف يلتهم الحوت كل شىء . زوج عزة أولاً . وقصور الأمويين . والشعراء الذين يسخرون من قصر قامته . ويترك العالم خالياً ليبشر الأنبياء الصغار بدعواهم . . لعل عزة تحمل له ولو قليلاً من الحب . . تعطيه قبلة واحدة . . كانت عزة تستأذن فى الدخول على زوجة الخليفة أم البنين . . سألتها . . .

— يقول «كثير» فيك . . .

قضى كل ذى دين فوفى غريمه . . . .

وعزة ممطول معنى غريمها . . .
ماذا يقصد بتلك المماطلة ؟ . . .
قالت عزة . كنت وعدته بقبلة . . .

قالت أم البنين . . إعطينها وعليّ اثمها يوم القيامة . .

كانت قبلة الموت أشد برودة واصل النطاسى المتشح بالسواد نخزه . لكن الجسد كف عن الاستجابة . تكررت الجروح دون تقلص . أخذ حلمه وانطوى عليه . صعدت امرأة إلى سطح البيت وناحت بصوت عال :

- يا ولداه . . مات «كثير» . . .

وتلون الجسد بالزرقة . . بدا مليئاً بالثقوب والدم الجاف والدوائر المحترقة .

بكت البنات الصغيرات فى صوت خافت خوفاً من آبائهن . إرتعدت الأغنام . وإستيقظ الحوت مفزوعاً من أعماق المحيط . لكنه لم يكن يعرف الطريق للصحراء . توقفت أصوات الفصال . وخرجت قريش كلها من المضارب والبيوت . توجهت إلى داره حيث يرقد الجسد المتهرىء . هز الطبيب كتفه بلا مبالاة . كانت عزة بعيدة . كأنها لم توجد أبداً . . كيف توجد وهى لم تعط سوى المزيد من الألم . وكأنما تضاعف عدد الناس . وإختلطت صيحات الاستغراب والتكبيرات . وللم الشيعة أطراف عباءاتهم . وأخذوا يدفعون الباكين :

- اذهبوا بعيدا يا أنصار أمية . . بالامس قتلتم الأنبياء . . واليوم تقتلون الشعراء .

ونهنه شيخ عجوز من الكيسانية

- سوف يعود . ستسمع قريش وقع جواده . . سيعود مع الأمام المنتظر . .

وكانت النسوة المتشحات بالسواد يحتشدن فى الطرق . رغم أنوف أهلهن . وارادة أزواجهن ويجتمعن فى رثاء متصل . ياولداه . . يا ولداه

جاء أولاد حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . . يحملون رغم صغر سنهم سمات آل البيت . حيث تختلط القداسة بالعذوبة . جلسوا أمام بيته فى صمت . هل كانو ينتظرون نهضته ؟ . . أن يقف بين أيديهم ويلقى أشعاره فى رثاء كل صرعى العدل من آل البيت ، ويضع بين أيديهم كل ما أعطاه له بنو أمية من عطايا . ويقبل أيديهم . لكن جسده مازال ملقى . جمع النطاسى أدواته ومضى . جاء الغسالون . حملوا جسده بحذر شديد حتى لا تتهشم أعضاؤه . وعندما وضعوا الماء عليه ازدادت زرقته كأنه قطعة من المحيط البعيد . وتمتم الغسال مدهوشاً لم أر جسدا ابهذه الزرقة . كأنه طفل سماوى . وواصلت عزة رب اللبن . شاهدته يتخثر ويتحول إلى قطع داكنة تذكرت بيتاً من الشعر قاله «كثير» ذات مرة . . وقد زعمت أنى تغيرت بعدها . . ومن ذا الذى يا عز لا يتغير ؟ تساءلت . ما

الذى ذكرها . بهذا البيت الغريب ؟ لم تهتم وظلت ترب اللبن . ويحث حفار القبور عن مكان لائق فلم يجد إلا تلا مفرداً عليه صبارة وحيدة . سأل زميله عن إتساع الحفرة . . قال له : أحفر ثلاثة أشبار فقط . . هذا كل نصيبه من الأرض . وامتلأت كل الساحات بالناس . وقف الأمويون والشيعة والكيسانية والخوارج ــ كل من فرقتهم الحروب الأهلية والثارات القديمة ــ جنباً لجنب ، ولف الجسد فى قمصانه القديمة . ثم فى غطاء الفراش وكان أبو جعفر محمد بن على بن أبى طالب فى طرف المدينة يحاول اختراق جمع النسوة حتى يتصدر الجنازة . وأخرج الجسد أخيراً . وصرخت النسوة ينادين عزة . لعل الصوت يعبر الفيافى المقفرة . وأخذ أبو جعفر يدفع النسوة وهن يزاحمنه . ضربهن بكمه وصرخ .

- تنحين يا صاحبات يوسف . . .

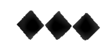
وقفت امرأة فى طريقه وقالت :

- صدقت يا ابن بنت رسول الله ــ وإنا لصواحبات يوسف . وقد كنا خيرا منكم له . . .

نظر إليها فى دهشة . . واصلت هى قولها :

- نحن دعوناه للذات من المطعم والمشرب والتمتع والتنعم   وأنتم معاشر الرجال ألقيتموه فى الجب وبعتموه بأبخس الأثمان وحبستموه فى السجن .   فأينا كان أحن عليه . . .

وإبتلعها طوفان النسوة الأسود . تاهت فى الزحام . لمس أبو جعفر النعش فأحس به حاراً كأنما يوشك أن يبعث . كان الرجال يحملونه للقبر . . والنسوة يحكين قصة حبه . عمره الحقيقى . . كان الرجال يسخرون من شكله . يخطفون عمامته   ويؤلفون فيه أشعار الهجاء . ويسفهون كل أحلامه وكانت النساء يرددن اشعاره . ويهبن قلبه نبضاته الأخيرة ويكون بملابسهن السوداء حوتاً هائلاً ينتشر على الرمل الأصفر يوشك أن يعيبه فى جوفه ويخرجه بعد أربعين يوماً . شاباً . قوياً .   لم تر قريش من هو أجمل منه . . .



وضــاح اليمــن
الموتى يكتمون السر

غفى الوليد بن عبد الملك يوما وهو جالس على العرش فحلم بصحراء جافة قاحلة وأنه يقود قافلة عطشى . كلما وجدوا بئراً كان مسموماً . كانت الحيوانات تنفق والشمس لا ترحم . وأخيراً وصلوا إلى بئر عذب . أخذ الخليفة يلهث وهو يجذب الحبال الطويلة حتى صعد الدلو والماء يتألق فيه . لكنه ما أن مد فمه ليشرب حتى فوجىء برأس مقطوعة تملأ الدلو والماء يتألق فوقها . . لم يتعرف على الوجه . لكنه ظل يصرخ حتى استيقظ .

جمع الخليفة الفقهاء والحكماء وسألهم التفسير . عبثوا فى أحلامه وبشروا الخليفة بكل أنواع الانتصارات على جميع الأعداء . لكنه عندما مضى إلى غرفته تذكر الوجه فجأة وتذكر أنه يعرفه . قال لنفسه . .

- إنه وضاح . .

لم يكف الامويون أبداً عن الحلم بهذه الأحلام الدامية . . كلما ترامت الدولة وتوالى الخلفاء وازداد الاتباع والقصور . وربت جزية الأمصار المفتوحة . إزدادت التركة المثقلة بدم أولاد الأشراف والصحابة والمنشقين والشعراء . كان هذا مخاض الدولة . مخاض قسرى فى أغلب الأحيان . ذلك الصنف من الرجال الذين بنوا الدولة كانوا بالغى القسوة وبالغى الحنكة أيضاً . أقاموا دولتهم فى مواجهة تحديات الهيمنة الدينية والروح العشائرية لأنهم كانوا الأقدر على فهم ظروف العصر . وكانت وسيلتهم الأساسية هى نقل الصراع الداخلى الذى كان يستنفدهم دون طائل إلى صراع خارجى فى مواجهة امبراطوريات العالم القديم ، حتى أن دولتهم إمتدت من سهوب أسيا حتى شطآن أفريقيا وأطراف أوروبا . من أجل ذلك ضربوا بكل قسوة على أى انشقاق داخلى . .

كان مركز الثقل قد ارتفع مع المد الجغرافى من الجنوب إلى الشمال فى دمشق . وظلت

الصحراء هى موطن البكارة الأولى . تهب عليها ريح السياسة وتنحسر وتترك خلفها الكثبان ساكنة والمضارب منصوبة وكل شىء يبدو ــ للوهلة الأولى ــ على حاله . لازال الشعراء العذريون يلفظون أنفاسهم لقاء لحظة من العشق . والقبائل تتداول قصائد التشبيب وقصص الحب بنفس الاستمتاع . فإذا اجتمعت واحتاج الأمر لموقف رسمى تقاعس الجميع ووصفو الشعراء الغزليين بأقبح الصفات . . حتى أنه لم يوجد فى الجزيرة من لم يحفظ شعر عمر بن أبى ربيعة ، ولم يمنع هذا قائل أن يقول :

- ما عصى الله قط قدر ما عصى بشعر عمر بن أبى ربيعة . .

وكان وضاح اليمن أحد هؤلاء الشعراء . .

شاعر غزل . إجتمعت فيه كل صفات العصر المتطرفة . . شعر رقيق بالغ الرقة . وحسن فائق . ونهاية مأساوية . حتى أن طه حسين يشك فى وجوده أصلاً . ويعتقد أن الخيال اليمنى هو الذى ابتكره فى مواجهة السيطرة الحجازية . .

كان مولدًا . الأب عربى والأم فارسية من أتباع جيش الفرس الذى قدم لليمن لنصره سيف بن ذى يزن فى صراعه مع الأحباش . وهو صغير ثار نزاع حول نسبة . . هل عربى أم فارسى ؟ وعندما ذهبوا إلى أحد القضاه العرب ، راعه جمال الصبى فهتف وهو يمسح على شعره . .

- أنت وضاح اليمن . . ولست من أتباع ذى يزن . .

واشتهر بهذا الاسم . .

كان اشبه بـ «أرفيوس» عربى بالغ البراعة . يحل حيث لا مكان . يهتف بالأشعار فيهتز إيقاع الزمن . ويظل يجوب الجزيرة طولاً وعرضاً مثل قطعة سحابة تخشى الذوبان . كانت الدولة تتسع والأماكن الحبيبة تفقد ألفتها . يتكاثر عدد الأمراء وقواد الحرب وملاك الأرض . والسكاكين قد أعدت ــ كما هى العادة ــ لاغتيال الشعراء . ومثلما أحاط الشك بمولده . . أحاط الشك بموته . .

أصدر الخليفة أمرا أن يرتدى وضاح اليمن واثنان كانا معه من أجمل فتيان الجزيرة العربية اقنعة فوق وجوههم حتى لا يفتنّ نساء المسلمين فى موسم الحج ويذهب حجهم باطلاً . وعندما إرتدوا الأقنعة لم يكن ظاهراً إلا العيون التى تتألق مثل جمر النار . . ولم تحجب الفتنة . .

فى بواكير الشباب . عندما كان الشعر طازجا . أحب فتاة إسمها روضة . . إشتهرت باسم روضة الوضاح . فتاة يمنية حسناء . والحب ينصب الشراك عند عيون المياه العذبة فى المضارب بعد أن ينام الأهل ذوو السيوف الحادة . لكنه مثل عادة كل الشعراء المتأججى

الشاعر أخذ يقول القصائد يشبب فيها . يصف اللقاءات المختلسة حتى طارت أنباء الغرام الجديد وعرفه الجميع . .

تقدم وضاح إلى أهل روضة يطلب يدها رسميا . لكنهم كانوا يحفظون الشعر . وكانوا غضبى . وثارت تلك المخاوف التقليدية من أن يؤكدوا بقبول الخطبة صحة ما أشيع . نفس الموقف الذى وجد فيه الشاعر التعس قيس بن الملوح نفسه . لا يستفيد العشاق أبداً من تجارب بعضهم البعض . لذلك تتكرر المآسى بنفس الصورة . . وهكذا . . رفض أهل روضة . . بل وأسرعوا بتزويجها لرجل آخر . .

كان رد فعل وضاح اليمن معاصرا فقد أغرق نفسه فى الخمر . وفى مجموعة أخرى من النساء . . يتراوحن بين بنات الأسر الشريفة وبين الجوارى الخادمات . . وكان حب روضة هو حزن وحدته الليلى . وعندما أخذها الزوج الجديد ورحل . ظل هو يتابع القافلة حتى غابت وراء الكثبان وعاد وحيداً يقول أشعاراً فى عشق الجوارى السود . .

لم تنته قصة الحب عند هذا الحد . ذات ليلة جاء رسول إلى وضاح وأخبره أن روضة تود أن تراه . لم يصدق أذنيه . وسار وراء الرسول ثلاثة أيام وثلاث ليال عبر فيافى موحشة لا تسكنها إلا الضباع . وطوال الطريق ظلت الغربان بعيونها الجائعة . تراقبها وتنتظر كان الرسول لا يتحدث كثيراً . وعبثا حاول وضاح أن يعرف منه كيف جاءت روضة إلى هذا المكان الوعر وماذا حدث لزوجها . وأخيراً توقفا عن الرحيل . . وهتف الرسول به :

- سوف تكون روضة فى إنتظارك . .

كانت هناك خيام بائسة . . وأكواخ خشبية متكسرة . . وأوان للطعام . . وبقايا عظام . . ورائحة عطنة تغمر كل شىء . . وإستدار وضاح ففوجىء بالحقيقة المرعبة . . كان فى وادى المجذومين . حيث تعزل كل القبائل المرضى الذين حلت عليهم اللعنة . . ينتظرون الموت البطىء . .

كانت روضة تقف أمامه . . تحت الشمس الساطعة . والجذام يأكل الملامح التى عشقها . البقع البنية السوداء لا ترحم . . تزحف وتنتشر . بدأ الشعر الفاحم يتحول إلى اللون الرمادى ثم يتساقط . والعضلات تتقلص . والريح إذ تلمسها تغدو مسمومة قالت باوضاح . . أنا أموت . وفى صمت وضع ما يحمله من مؤن بينه وبينها وأسرع بركوب جواده من وادى المجذومين لاحقه صوتها تنادية لكن الحب القديم كان قد تحول إلى كابوس . .

عاد للناس الأصحاء أكثر عزلة وخوفا . الحلم أكله الجذام . وبصمة الأصابع السوداء فوق كل شىء . يرثى لها ويستحم فى اليوم أكثر من مرة . . ويخاف من ملامسة الاخرين

حان موعد الحج . . وزوجة الخليفة أم البنين كانت تستعد للحج . والخليفة بعث يهدد كل الشعراء يحذرهم من أن يقولوا شعراً فى أم البنين أو فى من يصاحبها . .

كانت أم البنين فى لحظتها قبل الغروب . تقترب حثيثاً نحو الخريف النهائى . .

جاءت تحج . وتعانق الصحراء . كانت تحذيرات الخليفة تلاحقها . وذهب وضاح لموسم الحج دون رغبة أو أمل . . لكن عينا أم البنين كانت تضىء . .

ما كان أبعد هواء الشام . وما أشد برودته . بعثت إليه ذات مساء فوافاها فى خيمتها وقال شعراً فى عينيها . . وفى الأقمار التى تتألق على جبينها . ويبدو أنه نسى روضة التى كانت تلفظ أنفاسها فى وادى المجلومين . . أما أم البنين فقد اختلطت عليها صورة الأبن وصورة العشيق وهى ترى وضاحاً . كان عمرها ضعف عمره . وكان جماله هو الزهور التى ذبلت بين أيديها والولد التى فشلت أن تنجبه . . وظل الأمر مكتوماً بينهما . .

إنتهى موسم الحج . وارتفعت الجمال البأركة بأحمالها . ومضى الركب نحو الشمال . وفى اليوم الثالث إنضم للقافلة فارس جديد . . وقف أمام هودج أم البنين وقال أشعاراً عن مرارة الفرقة . . وحفظ الجميع الشعر على الفور . .

وعندما وصلت القافلة لدمشق كان الخليفة مشغولا بأنباء فتح جديد . أرسل عبدا لأم البنين حتى يهنئها بالوصول ووعد أن يزورها فى المساء ونسى الوعد . وعاش وضاح فى دمشق . .

لكن الحماقة لم تفارق وضاح فأخذ يهرف بالأشعار . وأخذت الأشعار تنتشر . ولم تكن أذن الخليفة صماء لهذه الدرجة رغم أنه كان آخر من يعلم كما هى عادة معظم الأزواج .

طلب الخليفة أن يرى وضاح . سعى أحد الشعراء الذين كانت لهم صلة بالقصر . وأوصى وضاح أن يذهب للخليفة ويمدحه فى أحد قصائده حتى يزيل الريبة من قلبه . . ذهب وضاح . وقف أمام الخليفة . وتلاقى الرجلان للمرة الأولى والأخيرة . . أدرك الخليفة أن كل ما سمعه كان حقاً . وعندما خرج وضاح من حضرته . صر من بين اسنانه . .

– سوف أقتله . .

لكن ابنه عبد العزيز بن الوليد . نهض واقفاً . .

– يا مولاى . . إن قتلته فضحتنا . سوف يقول الناس أن الشائعة صحيحة . . وأننا قتلناه انتقاماً .

قال الخليفة بحنق متزايد : سوف اقطع لسانه . .

- سوف نجعله يذهب بعيدا عندئذ تموت الشائعة . .

هدأ الخليفة بعض الشىء . لكن وضاح لم يهدأ . ظل يقول الشعر ويتخفىٰ يلبس زى إمرأة ويتسلل إلى القصر كلما حل الظلام وذات يوم وقع الذى لا مفر منه . جاء إلى القصر تاجر مجوهرات يهودى فاشترى الخليفة منه بعض الزمرد وأعطاه لغلام حتى يذهب به ويعطيه لأم البنين . حمل الغلام الجواهر ودخل الغرفة فجأة ، فقفز وضاح إلى أقرب صندوق واختبأ فيه .

وبأدب جم أعطى الغلام الجواهر . فتقبلته شاكرة فضل الخليفة . لكن الغلام ظل واقفاً . . فتطلعت إليه متسائلة . .

- ألك حاجة . . ؟ . .

قال الغلام بهدوء . .

- أريد واحدة من هذا الزمرد .

فهتفت زوجة الخليفة بغيظ . .

- لا عليك اللعنة . .

خرج الغلام من عندها وذهب للخليفة وروى له كل شىء . وكان الخليفة أكثر حنكة وتفهماً للأمور : بدا فاتهم الغلام بالكذب وأمر به فذبح . وأمر الجند فعرضوا حصاراً حول القصر لا يدخل ولا يخرج أحد . ثم سار إلى غرفة زوجته . كانت جالسة أمام المرآة تتزين فى هدوء تطلع . . حتى وجد الصندوق الذى أعطاه الغلام أوصافه فجلس عليه . سادت فترة من الصمت الثقيل . . ثم قال الخليفة . .

- هل اعجبك الزمرد . . ؟ . .

قالت : ما تعطيه هو فضل منك يا مولاى . .

- ألا تعطينى شيئا مقابله . . ؟ . .

- كل شىء ملكك يا مولاى . .

صمت قليلاً . مسح أنفه . أشار للصندوق الذى يجلس عليه . .

- اريد هذا الصندوق . .

قالت بفزع . ولكن . ثم صمتت . وبدأ وجهها بالغ الشحوب . قال الخليفة . .

- ولكن ماذا . . ؟ . .

- فيه ثياب وأشياء تخصنى . .

- سوف أعوضك عنها . .

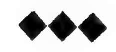
ولم يكن أمامها مهرب .. فاستسلمت : هو لك .

صفق الخليفة فجاء الخدم والأتباع . أمرهم فأزاحوا طرف السجادة . وأمرهم فحفروا فى الأرض حفرة واسعة . ونهض من فوق الصندوق . وأمرهم فحملوه . وضعوه فى الحفرة وأهالوا عليه التراب . . وسووا الأرض . . وأمرهم فارجعوا السجادة إلى مكانها . . وقف فوق السجادة وقال ببطء . .

ـ يا هذا لو كنت كذبا فما دفنا سوى الخشب . ولو كنت صدقا فقد أرحتنا واسترحت . . ومضى . .

يقولون إنه لم يناقش زوجته فى هذا الأمر أبدا . . وأنه لم يمس فراشها حتى مات . . ويقولون أن أحداً لم ير وضاح اليمن منذ هذا اليوم . .

لقد علم الموت وضاحاً أن يكتم السر . .



قيس بن ذريح
الطلاق .. أو الموت

كلفت خوض البحروالبحر زاخر يقولون لبنى فتنة . كنت بخير قبلها فلا تندم عليها وطلق . فطاوعت أعدائى . وعاصيت ناصحى وأقررت عين الشامت . كأنى أرى المحبين كلهم عصارة ماء الحنظل . وهل الحب إلا زفرة بعد وفيض دموع تستهل إذا بدأ . يالبنى قلبى فى هواك سقيم . تتوق إليك النفس وأردها . أرواحنا فى الليل تلتقى ونعلم أنه بالنهار نقيل ، إذا طلعت شمس الصباح فسلمى فآية تسليمى عليك طلوعها . تعلق روحى قبل خلقنا ومن بعد كنانطافا . وفى المهد . ومن يعلق حب لبنى فؤاده . يمت . أو يعش كما عاش سقيم . إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى . . وليل طويل الحزن غير قصير . إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم . .

هذا قيس بن ذريح . وهذه نثار قصائده . طائر صحراوى يموت . . ممتلء القلب بالحب والندامة . . رسالته الأخيرة إلى لبنى . . هذيان وبعض الأشعار . . كان العذاب شاقا على قلبه . . هو الجانى . . وهى المجنى عليها . من منهما أشد عذاباً . . ولبنى تسمع رسائله دون أن تصدق . . تقول بلا مبالاه . . ما أراه إلا كاذباً فيما يدعى . . متعللاً كعادته . لكنه لم يكن كعادته . لم تعد تجديه التعللات . . ماذا يفيد المسافر من حصى الطريق . . وكل ما ينتظره رماد بارد . . مقبرة للعصافير المحتضرة . .

يبدأ الحب زهرة سرية . تتفتح فى بطء . وتذوى سريعا . ولا تبقى سوى الذكريات . . كان قيس يتذكر لحظة التفتح الأولى . . وهو يسير عبر مضارب بنى كعب والحى خال من الرجال . . وعيون النساء ترصده من خلف خيامهن . كن جميعاً يعرفنه ويكفى أن أباه ذريح أغنى أغنياء المدينة . . وقيس سيد حقيقى كما يجب أن يكون

السادة . . فارس . . شاعر . . وبنو كعب قبيلة فقيرة . . تقع بظاهر المدينة وتعيش على غنائمها . .

أحس بالعطش . وقف بالمصادفة أمام خيمة . مجرد خيمة صغيرة لا يميزها شيء عما حولها . . وقف صامتاً . . كل ما فعله هو أنه رفع يده وأشار إلى فمه وانتظر . ثم سمع صوتا واهنا . . والتفت فراها واقفة . . ساحرة الوجه . مديدة القامة . . ولكن عينيها كانتا زرقاوين . . قطعة من زرقة السماء . . بحر حقيقى عميق الغور فيه دعوة ملحة للغرق . .

شرب قدح الماء الذى قدمته له وظل عطشان صادياً . حملت إليه كوباً آخر . وأدرك أنه لن يرتوى أبداً . . إبتسمت وقالت . .

- أتنزل فتبترد عندنا قليلا . ؟ .

نزل إليها ، سألها عن اسمها . . قالت . . لبنى بنت الحباب . هتف مبهوراً . . لم أر فى الصحراء عيناً بهذه الزرقة . . حدقت فيه بلا خوف وبادلته الكلمات . . كانت الشمس تواجه وجهها وتغير لون عينيها . . كل لحظة لون جديد . . ونظرة جديدة . . تضع أمامه طبقاً من النجوم الملونة . . وجاء المساء دون أن يشعرا . عاد الرجال إلى الحى . وإنسحبت لبنى إلى خيمتها . وعاد الحباب الكعبى فرأى جواد السيد يرعى . . ووجد السيد نفسه ذاهلاً . وحين إكتشف أنه ابن ذريح شخصياً إزدادت درجة ترحيبه . زعق فى أهل بيته أن ينحروا للضيف . وأفاق قيس ليكتشف أن الذى يحدثه هو اب . . وليس لبنى . . يتحدث عن جدب البادية . وشح الأمويين . وحق الحسين الضائع . كان الحباب يعرف جيداً أن قيساً والحسين بن على قد رضعا معاً من أم واحدة . .

عاد قيس إلى المدينة يهرف بالأشعار . يصف سماء الحب التى يحلق فيها . يجمع أشعة الشمس الغاربة ويضعها فى قلبه ليظل مضيئاً طوال الليل . يتحدث عن عيون لبنى وسفرته الطويلة فيها . وانتشر الشعر كالعطر . . وظن أصحابه أن هذه صبوة جديدة من صبوات الشاعر . . لكنه كان جاداً . . لا ينام . . ولا يسلو . . وسار إليها للمرة الثانية . وقف أمام خيمتها فخرجت إليه مبتسمة . دعته للنزول . . كانت قد سمعت كل ما قاله من شعر . أبوها كان غاضباً وأمها غاضبة . لكنها كانت راضية . ترسم الكلمات فى قلبها أخاديد رائعة من النشوة . سألها قيس . . أتقبلين الزواج منى ؟ . قالت ضاحكة . . أسرع قبل أن يزداد انتشار الشعر ويزداد غضب أبى . .

عاد إلى أبيه . كان يحصى أرباح تجارته ويدون أرقامها . . كل الجيوش كانت تتحارب . . بعضها يحارب الأعداء ومعظمها يحارب بعضه البعض . . وأيا كان الفريق الفائز فإن «ذريحاً» يربح . والتاجر الناجح لا يفرق بين القتلى والمقتولين . قال قيس . .

- إنى عاشق يا أبى . .

لم يكن الوقت مناسباً . رمى الأب أكياس نقوده وقال بسخرية خفيفة :

- العشق مفسد للقلب . . ومبدد للربح .

وكان قيس جاداً فألح على أبيه .

- لقد عزمت على الزواج . .

- أخيراً ، طالما الححت عليك . إن المصالح متداخلة والزواج هو الذى يوفق بين هذه المصالح . .

قال قيس فى سرعة . .

- سوف أتزوج لبنى بنت الحباب بن كعب .

قلب ذريح شفتيه فى إزدراء واضح وتمتم . .

- يا بنى . . عليك بإحدى بنات عمك هى أحق بك . . وأكثر ثراء . .

كان الأب يعتقد أنها نزوة . . نزوة لا تبيح له أن يهبط إلى مستوى بنى كعب . . وقيس يتحدث بلغة قلبه وهى لغة غامضة لا تجيد التعبير عن نفسها . . والأب يعرض أرقامه الصريحة ويرفض أى صفقة لا تعود عليه بكسب واضح .

ذهب قيس إلى أمه . . وكان رفضها عنيفاً وأكثر أنانية . . كيف تقبل ، وما كعب إلا قبيلة تعيش على فضل السادة ؟ . . وتطايرت أنباء الرفض . الأب سخر فى مجالس التجار . . وأبدت الأم امتعاضها فى مجالس النساء . . وكانت اهانة الحباب بالغة . . وكان رد فعله اعلانه أنه يرفض رفضاً قاطعاً زواج ابنته من قيس لعله يسترد شيئاً من كرامته . .

وسار قيس إلى الحسين بن على . . وحكى له ما حدث . . فنهض من فوره إلى بن كعب . . وفوجيء الحباب بوجوده أمام خيمته فنهض وهو يهتف . .

- يا ابن بنت رسول الله . . ما جاء بك ؟! . . ألا بعثت إلى فأتيتك . .

جلس الحسين فى مقدمة الخيمة وهو يقول مبتسماً :

- إن الذى جئت فيه يوجب قصدك وقد جئتك خاطبا إبنتك لقيس بن ذريح .

وتردد الحباب . . كان الرفض أكثر من طاقته . . قال فى تردد . .

- يا ابن بنت رسول الله ما كنا لنعصى لك أمرا ، وما بنا عن الفتى من رغبة ولكن أحب الأمرين أن يخطبها ذريح أبوه وأن يكون ذلك عن أمره فإنا نخاف إن لم يسع أبوه فى أن يكون عاراً وسبة علينا . .

كان محقا . ويتحدث من منطلق الدفاع عن نفسه . سار الحسين إلى مجلس ذريح . كـان وسط التجار ينـاقشهم أيهم أكثر مـالاً . . شيعة على أم الخـوارج عليـه . وهتف بالحسين .

- ألا بعثت إلينا فأتيناك . . ؟

وبادره الحسين قبل أن تفتر التحايا . .

- أقسمت عليك ألا خطبت لبنى على ابنك قيس ؟

صمت ذريح . تطلع إلى الحسين . إلى التجار . صفقة خاسرة ولكن كيف يمكن أن يرفضها . واعترف بينه وبين نفسه أن قيساً قد أحسن التدبير . وأصر الحسين أن يتم الأمر في الحال . وساروا جمعاً كبيراً . . الحسين والأب وقيس في المقدمة وخلفهم بقية التجار ووجهاء المدينة . وظلت الأم كئيبة في حياتها . نهض الحباب في وجل . أسرع يفترض السجاجيد والحشايا والأرائك وحتى صحاف الطعام . تضافر الجيران حتى يبدو سيداً وسط السادة . ولم يمنع كل هذا ذريحاً من أن يقلب شفتيه في ازدراء . وخرجت الكلمات بين أسنانه :

- جئتك خاطبا ابنتك لبنى . . . لابنى قيس .

وانبهر الحباب بالمفاجأة . . فقال ببلاهة . .

- قبلنا الخطبة . . وقبلنا الزواج . . وقبلنا كل شيء . .

تم الأمر في بساطة أشبه بالحلم . تزوجاً في خيمة صغيرة على حدود المدينة . على حافة الأفق . وجد قيس أخيراً مكاناً دافئاً بين ذراعي لبنى . تسطع عليهما شمس الصباح المنخفضة . وترتعش على جسديهما تجمع حول جسده عباءة الذكريات . . كل ما قاله من أشعار قبلها كان وهماً . . لكن الآن . . والعالم طوع يديه . حتى السحب تحى جبهتها له . . إنه عاشق . . يدخل عيني لبنى فتغلقهما عليه ويسبح . . وسط المحار . . وعشب البحر . . والأسماك الفضية . . وظل أبوه غاضباً . وأمه متباعدة . لم يزوراهما . ترسب بينهما ثلج الجفوة . . ذهب إليهما أكثر من مرة يرجوهما . ويتودد إليهما . . لو يمنحانه فرصة أخيرة يتعرفان فيها على لبنى . . . لعل شيئاً ما يذيب هذا الثلج . . لكنهما رفضا كل محاولاته للتقريب . .

ذهب إلى أخيه في الرضـاع . . لعله يعاود التوسط . . لكن الحسين كـان يستعد للرحيل . . حان الوقت ليسترد ملكه المضيع بين أيدى الأمويين . . أهل العراق ينادونه . والشيعة تستحثه . . كلهم يوجهونه للسير إلى بقعة صغيرة من هذا العالم اسمها كربلاء سوف يتحدد فوق ترابها كل المصائر . . وهتف قيس . .

- سوف أسير معك .

سار معا فى طرقات المدينة . . وسط أصوات التحريض والمبايعة . . وعاد قيس ليعد رمحه وسيفه . . وإمتقع وجهه لبنى . وحاول قيس أن يهون الأمر عليها . . كانت تعرف أن الحب لا يعيش وسط تحريضات القتال المتواصلة . . وفى الصباح اشتكى من بعض الصداع . . والحمى . . وألحت عليه لبنى أن يلزم الفراش لكنه أصر على الذهاب إلى أبويه ليخبرهما أنه قد قرر السير . وتلقيا النبأ بذعر واضح . همهمت الأم . . أما كان يكفى الزواج حتى تلقى بروحك إلى الحرب . . وهتف الأب وقد تخلى عن جوده . . سوف أدفع للحسين كل ما يريد . . وضحك قيس وأبوه يرفض أن يفكر إلا فى المال . . ألح عليهما أن يعوداها . . أن يقبلا زوجته . . ألا يزيدا فى هذه الجفوة المدمرة . . كان يترنح متعباً . . ولكن الأم قالت فى حده . .

- لقد شغلتك عن برى ،

وانسحب قيس . إرتمى فى أحضان لبنى وهو يهذى وفى المساء إحتقن وجهه وتفصد جبينه بالعرق . وأصبحت لبنى مجنونة . . تضع له أكياس الرمل المبلل . . وتغلى الأعشاب . وتستدعى الطبيب . . وهو غائب عن وعيه . . يهرف بأشعار الحب . . ويناشد أباه وأمه . وأصبح جسده رقيقاً كورقة شجرة ذاوية . . وجاء الحسين لزيارته . . وقال لجسده الفاقد الوعى . .

- كنت أرجو عونك . . ولكنى أسأل الله أن يعينك على شده المرض . .

وسار الحسين إلى الشمال . . وهبط الوباء السفح . وإعتلى التل . . وتناثرت الجثث . . كان الجو حاراً خانقاً وكان على لبنى أن تذهب إلى بيت الأبوين . . رغم المقابلة السيئة التى تتوقعها . . لكن الأبوين هما اللذان حضرا . إقتحما خيمتها دون استئذان . لم يلتفتا إلى وجودها . اتجها إلى جسد ابنهما المسجى . . لمسا جبينه المندى بالعرق . وبكت الأم بحرقة . والتصقت لبنى بالجدار وقد إنتابها شعور غريب بالذنب . وأشار الأب من خلال الباب إلى العبيد الذين كانوا يتبعونه . . إقتحموا المكان . . فردوا الأغطية ولفوا جسد قيس . . حملوه . . أوشكت لبنى أن تصرخ . . لكن نظرات الأم القاسية أسكتتها . . حمل العبيد الجسد وساروا وسار الأبوان . . ولم تجد لبنى بدأ من أن تسير خلفهما . . كانت تحبه كثيراً . . وقد وهبها ذلك قدرة كبيرة على المقاومة . ..

ساروا إلى البيت الكبير . . البيت الفخم الذى لم تجرؤ لبنى من قبل على دخوله . دخلته كاحدى الغريبات . . غير مدعوة . . ولولا أنشغالهم لوجدت من يمنعها . استدعى الأب كل نطاسى المدينة . انزوت هى بالقرب من سريره . . كانت هى بلسمه الأخير . . ظلت بجانبه . . قدرها أن تبقى فى هذا المكان . . معشوقة ومرفوضة فى الوقت ذاته وذات يوم دون أى قصد سمعتها يتحدثان عنها . . وعن قيس . . كانت الأم تقول فى حدة . .

- لقد خشيت أن يموت قيس ولم يترك خلفا . وقد حرم الولد من هذه المرأة وأنت ذو مال وسوف يصير مالك إلى غير أهلك . . وهذا والله لن يكون . .

وغاص قلب لبنى . . وهمهم الأب موافقاً ثم سأل . .

- وماذا تريدين . . ؟ . . .
- زوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولداً . .

وأحست لبنى كأنها تختنق . تتلوى وسط طرقات البيت المتداخلة . . يمتلىء قلبها بالسواد . والجسد المريض صامتاً . . لا يملك لها حيلة ولا مساعدة . . هتفت بحرقة . .

- لا تتركنى . . لا أدرى أهو ذنبك . . أم ذنبى . . ولكن لا تتركنى . .

ألقى عليها قيس نظرة مستغربة . لم يستطع التعرف عليها . . أهذه عين الحب التى رآها بها للمرة الأولى . .

نهض قيس من مرضه أخيراً . . نحيفاً . . رقيقا . . كأنه يستعد لدخول العالم للمرة الأولى . . وجد نفسه فى بيت أبيه فحسب أن الأمور قد عادت لطبيعتها . . وساعده هذا على سرعة الشفاء ولكنه كان واهماً . . كان كل شىء مؤجلاً فقط . وكانت لبنى تعيش مأساتها الخاصة فى داخلها . . كانت تترقب دورتها الشهرية فى رعب بالغ الحدة . . إنها تحمل لها كل شهر نذير الفرقة والعجز عن المقاومة . . وهذه المرة فشل قيس فى أن يعاود التحليق بها مرة أخرى .

وحدثت أول مواجهة صريحة بين الأب . . وبين قيس . . قال الأب :

- يا قيس لقد اعتللت هذه العلة فخفت عليك ولا ولد لى سواك . وهذه المرأة ليست بولود . . فتزوج إحدى بنات عمك لعل الله يهب لك ولداً تقر به عيناك وأعيننا . .

هتف قيس بلا تفكير ولا تردد .

- لست متزوجا غيرها أبدا . .

قال الأب :

- فإن فى مالى سعة . . فتسر عنها بالاماء والجوارى .
- ولا أسوءها والله بشىء أبدا . .

صرخ الأب فى حده . .

- فأنى أقسم عليك إلا طلقتها .
- الموت والله أهون على من ذلك . ولكنى أخيرك خصلة من ثلاث خصال . .
- وما هى . . ؟ . .

- تتزوج أنت فلعل الله يرزقك ولدا غيرى . .
- ما فى فضل لذلك . . .
- دعنى اذن أرحل عنك وأصنع ما كنت صانعاً لو مت فى على هذه . .

ـ لا والله . . ولا هذه . .
- فأدع لبنى عندك وأرتحل . . لعلى ألحق بالحسين . . أو لعلى أسلوها .
وهتف الأب فى تصميم نهائى . .

- لا أرضى أو تطلقها .

صمم كل منهما على موقفه . . ووصلت أصداء حوارهما العنيف إلى الأم وإلى لبنى . وسمعا سوياً الأب وهو يقسم بكل الايمانات المقدسة ألا يظله سقف بيت أبداً حتى يطلق لبنى . وعلى الفور خرج الأب من البيت إلى العراء الواسع . . تحت السماء الصامته . . والصحراء المترقبة . . وقف مثل صبارة عجوز والريح تزوم وتملأ أرديته . .

وعاد قيس إلى لبنى . . كانت ترتعد . . والقطرات الحمراء تتسلل . . تلوث ثيابها وروحها . . توسلت إليه . .

- لا تطع أباك . . فتهلك . . وتهلكنى . .
وقال قيس وهو يشاركها البكاء .

- ما كنت لأطيع فيك أحدا أبدا . .

كان الحسين بعيداً . . والأب بلغت به درجة العناد حتى أنه ترك تجارته وأمواله وظل فى العراء . . فى الصباح تشرق الشمس فى نعومة . . ثم تستدير فى قسوة . . تفتح كل جروح التلال والصخور . . وتسكن رأس الأب . . وتوسل إليه قيس أن يعود إلى داخل البيت . . أن يرحمه ويرحم نفسه . . لكنه لا يرد . . وجهه جامد كالصخرة . . وقف قيس بجانبه . . فرد رداءه فوق رأسه لعله يستظل قليلاً . . وانقضى اليوم وبدأ زمهرير المساء . لم يعد يجديه التوسل . . وحاول قيس أن يذهب إلى أمه . . لكنها رفضت أن تقابله . . كانت تحمله ذنباً جديداً . . عاد إلى لبنى وعانقها وبكت فبكى معها . وأشرق الصباح سريعاً يحمل لهما دورة أخرى من دورات العذاب . . الأب جالس وقيس غادر رداءه والشمس تسخر منهما معاً . لا كلام ولا تواصل . . ولبنى تترقب معجزة كل شهر . لعل القطرات تتأخر قليلاً لعله مازالت هناك بقية للأمل الضائع . . لحظتها سوف تخرج وتهتف فى قيس والأم والأب . .

- انى حامل . . سوف أنجب عشرات الأولاد . .

لكن الأيام تمر . والأب العجوز يتقوس تحت الشمس . مثل حبات العنب وهى تتحول إلى زبيب جاف داكن . تضاعف عمره . وتشابكت التجاعيد على وجهه . . وقيس

يظله بالرداء حتى يسقط إلى جواره والأم داخل خبائها تلوى فى صمت . عام كامل من العداوات المتصلة . .

وتأخرت قطرات الدم . . نهضت ليلى فى ميعادها فلم تجدها . لم تشعر بآلامها أحست بنبضات غريبة وغامضة تسرى فى بدنها . . لعلها البداية . . .لعل جسدها أصبح صالحاً لدبيب الحياة فى داخلها . . سوف يكون هذا اليوم آخر أيام العذابات . ستلبس أجمل أثوابها . . وتتزين بأطيب عطورها . . وتخبره . .

لكن الأب سقط متحشرج الأنفاس . . سال خيط من اللعاب الداكن من جانب فمه . . وصرخ قيس . حاول أن يقيمه مرة أخرى . . وسمع صرخة أمه من الخلف . . كان وجهها قاسياً صلباً وهى تقول من بين أسنانها . .

- أيها الولد العاق . . سوف تقتله .

تجمع الناس . . كل منهم يرمقه بنظرة إتهام صريحة . . يحاصرونه كقبضة يد قاسية . . وهتف فى أبيه يستحثه للنهوض . . ويعلن هزيمته على الملأ . .

- انهض يا أبى سوف أنفذ أوامرك . . سوف أطلقها من الليلة . . انهض ولا تحملنى وزرك . .

لم ينهض ولكن نظرة الانتصار بدت واضحة وجلية فى عينيه . أسرع قيس إلى ليلى . . كانت فى انتظاره متألقة كليلة عرسها . . متفتحة للحظة الحب الأولى . . . لمست وجهه الأشعث المغبر . . قبلته وهى تقول . .

- عندى لك أخبارا جديدة . .

هتف فى وهن . .

- بل أنا الذى أحمل لك الأخبار .

امتقع لونها . . تراجعت إلى الوراء . وضعت يدها على بطنها كأنما تحاول أن تحميها من خطر داهم . . وهتف قيس . .

- سامحينى . لم أستطع . . هذا أقوى مما أحتمله . . لقد طلقتك . . وأنت حرام على منذ هذه اللحظة . .



الفــرزدق ..
السائر على حد السيف

* حدثني أبو الفرج الاصفهاني عنه بحماس بالغ ..
الفرزدق لقب عليه وتفسيره الرغيف الضخم الذي تجففه النساء للفتوت . اسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية ..

* حدثتني النساء عنه باشمئزاز واضح ..
كان يعشقنا . ونحن نعشق من يعشقنا . يكمل لك في داخلنا دورة الرضى والكبرياء . ولكن خلف نظرته الشرهة كان يكن احتقاراً هائلاً لكل ما تمثله . لم نكن نخافه كما يفعل الرجال . كانت القبائل تهتز أمام لسانه . وكنا نلتقط ضعفه . إن الشره أحمق دائماً . قالت نسوة من البصرة : خرجنا يوماً إلى غدير خارج البصرة . لم يكن هناك من المخلوقات سوانا . خلعنا ثيابنا ورمينا بأجسادنا الحارة المتعبة . كانت المياه ناعمة . والشمس دافئة . ونحن لا نكف عن الضحك . فوجئنا بوجهه الكئيب المتنفخ يطل علينا من فوق بغلته . فزعنا . حاولنا أن نداري عرينا .. أن نهرب منه .. ولكنه ظل واقفاً مبحلق العينين في نهم .. طلبنا منه الأنصراف حتى نتمكن من الخروج .. ولكنه أخذ ثيابنا وطلب أن نخرج عاريات .. قال :

- سوف تفعلن معي كما فعلت النساء مع امرؤ القيس في دارة جلجل ..
ولكننا بدلاً من ذلك قذفناه بالماء والطين والحصى وبكل ما وصل إلى أيدينا حتى فر هارباً .. لقد كان أمرؤ القيس أميراً حتى وهو يعابث النساء .. ولكن معابثة مثل هذا الشرة لا تجلب سوى العار لنا جميعاً .

* وحدثتني «النوار» عنه برعب هائل ..
ـ ماذا أقول وهو ابن عمي .. ؟ .. قدري الذي قدر لي . لم أكن أتعامل معه

كرجل . كان أكبر منى . وولى أمرى . والمتصرف فى أموالى . يدخل دارى وقت يشاء . فتتدافع أمامه الجوارى ويجرى خلفهن مثل ضبع شرس . أقف بعيداً غير راضية . لا أجرؤ على الاعتراض . كنت أنمو . وأرى ذلك فى عينيه . بدأت أهرب من وجهه . أتعلل بأى شيء حتى لا أراه . . ثم وقعت فى الحب . فارس من بنى دارم . يمر أمام بيتى كل يوم ويدق الأرض بجواده . كأنما يهب قلبى نبضاته . ألمح لحيته وطرف شاربه فأتوارى خلف خمارى وأحلم باليوم الذى سيأتى فيه وينقذنى من وجه ابن عمى الدميم . كنت أخاف أن يصل الأمر إليه بطريقة ما فيشهر بى وبأحلامى . ثم سارت الرسل بينى وبين فارسى النبيل ، قال إنه يريد أن يتزوجنى . قلت إننى موافقة . ولكن الأمر الصعب والسخيف . هو أن أرسل للفرزدق حتى يأتى وأخبره لأنه ولى أمرى . وهو الذى سيزوجنى كما يقضى العرف . أرسلت إليه جارية سوداء وأنا أعرف ضعفه أمام سوادهن . جاء خلفها يتلمظ . حط على بعينيه الشرهتين . . قلت :

- خطبنى رجل من بنى دارم . . وأنت ولى أمرى فزوجنى إياه . .

ضحك بصوت خافت . لم أعرف لحظتها ماذا تعنى ضحكته :

- لا أفعل حتى تشهدين أنك قد رضيتِ بمن زوجتك .

حسست أنه يود أن يسترد اعتباره أمام القبيلة . أن أبين لهم إلى أى مدى هو واص على . كم كنت أكره هذه الوصاية . .

- إننى راضية مادام هذا أمام الناس . .

أكد أنه موافق . إن الصلات متينة بين بنى دارم وبنى مجاشع وكلاهما من أشراف تميم جاء قومى وتوثق أمامهم أننى رضيت بمن يزوجنى إياه . قال أعدى زينة العرس وسوف أذهب للمسجد لإعلان الزواج . كدت أطير فرحاً . لعلها المرة الوحيدة التى أحسست فيها بإنسانيته . ذهب القوم للمسجد . أوقدت الجوارى الشموع المعطرة وأخرجت كل أثوابى الجميلة وإمتلأ المسجد بالناس . صعد الفرزدق للمنبر . حمد الله وأثنى عليه . . قال . .

- قد علمتم أن «النوار» قد ولتنى أمرها ، وأشهدكم أنى قد زوجتها نفسى على مائة ناقة حمراء سوداء الحدقة .

وافق بنو مجاشع فى بلاهة . وحدق بنو دارم فى ذهول . وجاء العبيد بالخبر . إلتف قومه حولى يهنئوننى باختيار شاعرهم العظيم . أطفأت شموعى . مزقت أثوابى . وبكت الجوارى حولى .

جمعت مالى وثيابى . أعد العبيد لى الجياد . أقبل الظلام فتركت نفسى فى صحرائه السوداء ونجومه الشرهة كعيون الفرزدق . أصبحت غريبة . ناشزة . والليل ستار هش . قالت جارية . .

– يا مولاى . خلف هذه التلال مضارب بنى عدى . بينك وبينهم صلة قرابة . .
إتجهت إليهم . تسللت للمضارب . إرتميت تحت أقدام شيخهم . قصصت عليهم كيف خدعت . أجارنى . ظللت ثلاثة أيام . وكل صبح يحمل رعب الفرزدق . ثم دخل شيخ القبيلة حزيناً ، قال :

– الفرزدق يهجونا أقذع هجاء . وسوف ينتشر ذلك فى أحياء العرب . ولسنا أكفاء للسانه .

فزعت . على أن أرحل من جديد . شهر الفرزدق سلاحاً ماضياً . وأصبحت الصحراء أكثر قسوة . وصلات الرحم بلا قيمة . لو أنه جاء سيف لحاربوه وردوه عنى . لكنه شهر لساناً ما أشد رهبته . لجأت إلى بنى عاصم المنقرى . إستضافونى . . وعندما ردد الرواة البيت الأول طلبوا منى الرحيل فى الحال . ولم يوافق أحد من بنى معيط على إستقبالى . وزعم بنو كلب أن خلافاتهم القبلية تمنعهم من استضافة الأغراب ، وادعى بنو مزينة أنهم غير موجودين لأنهم ينوون الرحيل لأرض جديدة . . كان طعامى الرمل وخبزى الصبار . والفيافى الموحشة تمتد فى قلبى . ومياه الآبار تجرى فى عروقى بدلاً من الدم . أود أن أكف عن اللهاث . انعم بليلة واحدة خالية من الكوابيس . أن يتوقف لسانه قليلاً . . لكنه كان يتعقبنى . يقول الشعر فى كل من يأوينى أو يقدم لى شربة ماء أو كسرة خبز . أو حتى يلقى على السلام . . ثم وصلت إلى مكة . إلى خولة بنت منظور بن زبان . زوجة عبد الله بن الزبير . أمير المؤمنين على الحجاز والعراق . وحسبت واهمة أن لسان الفرزدق لن يقدر عليه . ثم شممت رائحته فى مكة بعد أيام قلائل . أدركت أنه جاء . نزل بأبناء عبد الله بن الزبير يمدحهم ويسألهم أن يتشفعوا له عند الأمير . تحقق غرضه فإستجابوا له فى البداية . لكن توسلت لزوجته وإستعطفت خولة الأمير فعاد ثانية إلى صفنا . وهجا الفرزدق الجميع كما هى العادة . .

ثم توصلنا إلى اتفاق . اقسمت أننى لن أتزوج بعده . لن أعرف أى رجل . سأترك له ما يريد من جوارى . أترك له مالى يأخذ منه ما يشاء . لقاء مطلب واحد . . الطلاق . . سال لعابه للصفقة . . وافق . قلت . . ليتم هذا أمام الحسن البصرى . .

* حدثنى الحسن البصرى عنه بعد طول تردد . .
جمعنى وإياه عصر واحد . ومدينة واحدة . قالوا علينا : خير الناس . . وشر لناس . . لم أكن خير الناس . . لكن من يعلم ماذا تخبىء الثياب . . جاء إلى . قال : إنى

هجوت ابليس فاسمع . . قلت لا حاجة لى بما تقول . قال . فلتسمع أو لأخرجن فأقول للناس أن الحسن ينهى عن هجاء ابليس . . قلت . . إسكت . فأنت تتكلم بلسانه . . ثم جاء إلى مع ابنة عمه النوار . . كان قد تزوجها رغماً عنها . . قال أمامى :

– اشهد أنها طالق

قلت لها قد شهدنا . .

قال . ولكن لمرة واحدة فقط .

صرحت النوار . لم يكن هذا اتفاقهما سويا . . وأحسست أنني محرج . كنت أود لو أملك القدرة على أن أهدر دمه . وأن أريح المسلمين من لسانه . . لقد عرفت أنه أعادها إلى عصمته . . وأخذ كل أموالها . . وأخذ يخونها مع الجوارى السيئات السمعة . . وكان كل خبر من أخباره يثير فى نفسى الرعب والحيرة . . وكنت أهتف دائماً فى صلواتى : اللهم أنقذنى من زمن يقاسمنى فيه الفرزدق .

* ثم حدثنى الفرزدق عن نفسه . .

السائر فى هذا الزمن كالسائر على حد السيف ، زمنى الذى أكرهه وأتقمصه وأطالع وجهى فى مرآته كل صباح . كيف أحتمله دون أن أكون وغداً لهذه الدرجة ؟ . .

جاء أبى إلى ابن أبى طالب . . قال :

ـ هذا إبنى من شعراء تميم فاسمع منه . .

قال على : علمه القرآن خير له . .

أثرت فى هذه الكلمات . قيدت نفسى فى أوتاد الخيمة . أقسمت ألا أحل قيدى حتى أحفظ القرآن كله . وعندما كتبت الشعر قالوا . . «لولا الفرزدق لضاع ثلث اللغة» . . لكنه كان مضنياً كالناحت فى الصخر وربما كان نزع ضرس أيسر على من أن أقول بيتا من الشعر لكنه جعلنى نداً للملوك وصديقا للأوباش . .

وأنا صغير كنت أرعى الغنم . جاء الذئب وأكل احدى غنماتى . . عاتبتنى أمى فلم آبه بالعتاب . كان الذئب حازماً وكنت راعياً فاشلاً قال لى الذئب حين قابلته بعد سنين طويلة ودعوته للطعام . كان عجوزاً وحكيماً . قال إن همتى لم تكن لتقف عند الرعى . سألته فى أسى . أكان لابد من الرحيل عن البادية : تركت ذئباً واحداً حكيماً وجئت وسط قطيع جائع فلماذا لا أكون ذئباً مثلهم . أعوى كما يعوون وأعود إلى حجرتى فى المساء ملوث الأظافر بالدم . . إنه يسيل بلا ثمن فما ضر أن الغ فيه قليلاً . .

أنا أجبن الناس . اخاف الموت والهجر والجوع . رأيت الحجاج فلم أخف منه . رأيت فيه نفسى حين أمسك السيف واستمرأ لذة القتل . نفسى الشرسة التى أخافها وإن كنت فى حاجة ماسة إليها . ومع الحسن البصرى رأيت نفسى التى فشلت فى أن أكونها . كنت أعرف أننى الجزء من نفسه الذى إستطاع أن يروضه . ماذا أفعل وقد بدأت قبيلتى تاريخها بالاعتداء على الحرم وسلبت كل ما فيه . وبدأت حياتى بخديعة «النوار» وهجاء

جرير . لم أفلت جارية ممن أتحس لى . حتى امرأة استضافتنى ذات ليلة بـاردة وقدمت لى طعاماً . فلما أن دفئت وشبعت حتى راودتها عن نفسها . أننى لست شرساً . أنا لا أجلس على عرش ولا أقود جيشاً . كل ما أفعله هو أن اتبع نزواتى الصغيرة بعد أن ماتت كـل الأشياء النبيلة فى كربلاء

. كنت ما أزال مقيداً فى أوتاد خيمتى حين جاء نسوة قومى وهن يصرخن :

- قبرت من شاعر قوم . . هتك جرير عورات نسائك وأنت ساكت . .

كنت معزولاً لا أعرف ماذا يحدث ؟ . . قالوا أن جريراً قد تهاجى مع شاعر من قومى يدعى «البعيث» وقد تفوق عليه وهجا القبيلة وأفحش فى وصف نسائها أنا أعرف أنهن أشد فحشاً مما وصف جرير . لكن العصبية أشعلت الحرب الكلامية بيننا أربعين سنة كاملة أربعون عاماً من الخصام والمناقضات والهجاء وتبادل كل ما فى قاموس اللغة من شتائم والأيدى تزكى النار . والناس يتناقلون الأشعار . يرفعون يده بالغلبة ويدى حيناً آخر . كان نسبى شريفاً وحاضرى وضيعاً . وكان هو شريف الحاضر مجهول النسب . . ولأننا نقتات الماضى البعيد فقد علوت عليه .

تلوموننى لأننى أغتصبت زيجتى من النوار . . وماذا فى ذلك . . هل كنت أترك الأعراب يأكلون مالها الذى هو مالى وأقف لأتفرج عليهم . . لقد ضيع جدى كل شىء . . كان يفتدى البنات المؤ ودات فى الجاهلية . . الأحمق كان كلما رأى رجلاً يريد أن يئد ابنته يشتريها منه ثم يهبها له . . وبمثل هذه الصفقات غير المفهومة ضاعت ثروتى وأصبحت شاعراً صعلوكاً . لم أكن لأكرر الغلطة وأهب النوار لشخص غريب . . وعندما أصبحت فى يدى اخذت أخونها مع أى جارية تصلها يدى . حدث اننى تعلقت بهوى احدى الجوارى . . وأخذت أراسلها . . واعتقـدت أنها مالت إلى وأرادت أن تجـربنى فى الفراش . وأنـا فى الفراش لا أبارى . . هذه هى كل ثروتى . . واعدتنى على أن أذهب إليها فى المساء . . ولما أقبـل الليل تسللت إلى حجرتها . . ثم إلى الفـراش . . وكانت فى انتـظارى . . كنت بارعاً . . كانت هى أيضاً بارعة ولكننى فوجئت بها تصرخ فى وجهى . .

- يا عدو الله . . يا فاسق .

كانت هى . . النوار . . لقد خدعتنى الجارية . . تآمرت هى وزوجتى ضدى . . ولم أتمالك أن هتفت فى حيرة :

- أنت هى . . يا سبحان الله . . ما أطيبك حراماً . . وأردأك حلالاً . .

وأخذت أحاذر بعدها . . ولكن . . من الذى يأمن لهذا الزمان . . لم أكن آمن إلا لبيت الشعر الذى يخرج من فمى . . أما بعد أن تتداوله افواه . . فلا أمان لشىء .

وعلى قبر «النوار» لم أقل بيتا واحدا . الموت أجدب الشعر فى داخلى . الحسن البصرى والجميع نظر إلى بحنق . النصيب الأكبر فى موتها يقع على . لكنها أيضاً قتلتنى . ضنت على بحنانها وكنت فى حاجة ماسة إليه . دون نساء الأرض كلها ظلت نائية . لا تعنى سوى رغبات مطفأة وحسرة تتجدد كل ليلة . كل النساء بعدها كن سلوى وكنت أبحث عن حياة ما خلف جلودهن ، وناحت النوائح على قبرها بأبيات من شعر جرير وقتلنى هذا من جديد . .

* حدثنى ابنه «لبطة» عنه بلا مبالاة . .

ـ قالوا أبوك على وشك الموت . لم أصدق . لعلها حيلة يسعى بها للزواج من جديد ! مللت وجوده على قيد الحياة . كرهت سعيه إلى كل صباح ليتهمنى بالعقوق . يسعل ويسير محنى الظهر فإذا رأى طرف جارية كف عن السعال . هرم وشاخ ولم تنطفىء شهواته بداخله . عمر أكثر من مائة عام . شاهد سبع خلفاء أمويين وعدداً لا يحصى من الفتن والحروب . .

آخر من تزوج كانت «ظبيه بنت حالم» كانت أصغر منى سنا . تركها فى البيت سنة كاملة . وفى النهاية فرت من وجهه كما فعلت النوار من قبل . لكنه هذه المرة لم يجرؤ على تتبعها . . وسار يدب فى شوارع البصرة يبحث عن زوجة أخرى . .

قالوا . . لابد أن تراه . . فليس أسوأ من مجافاة المحتضرين . .

ذهبت فإذا أبى حقاً طريح الفراش . وإذا السنون المائة تجاعيد خائرة ونفس متحشرج . قال الطبيب أنه يعانى من ذات الجنب وليس هناك أمل إلا فى الكى وشرب النفط الأبيض . شعرت بالحزن من أجله . كان ضعيفاً كما لم أره من قبل . أحضرت الجوارى أكواب النفط قلت له اشرب يأبى . نظر إلى كأنما يتساءل عن سر حنانى . تجرع أول كوب بسرعة ثم أخذ يسعل ويرتجف . .

– يا بنى عجلت لأبيك شراب أهل النار . .

ألقى بالدواء وطلب خمراً صافية وشواء طازجاً . . وظل يحدق لى بعينيه الجائعتين . هتف : وصيتى . . أخذ يعدد لى أنواع الجوارى والمتاع . لم تخنه ذاكرته فى أى شىء . . قال :

– سوف أعتق كل الجوارى والعبيد وأدفع لهم بعض المال . .

لقد تذكر أخيراً أنه انسان . . تجمعت حوله الاماء وقد شعرن بحزن طاغ . كن يعرفن أن موته يحمل لهن العتق والحرية لكن شرارة الحزن تولدت وطغت . أعطيته رقاً من الجلد ليكتب عليه ما يريد . . هز رأسه وهو يقول :

– أروبى من يقوم إلى مقامى . .

إذا ما الأمر جل عن الخطاب .

قالت جارية بحزن : إلى الله يا سيدى . .

فوجئنا به يثور فى عنف . . صمم أن يبيعها ويقبض الثمن لساعته . قلت يا أبت قل لا اله إلا الله . صرخ فى أن أذهب لآتى بالنخاس . قلت إنها لم تخطىء . سوف تذهب ياأبت ولا يبقى لنا إلا الله . . ظل ثائراً حتى جاء النخاس . وباع الجارية . وحين كان يسقط الدراهم الفضية فى حجره قلت : خذ دراهمك . . لم يرد على . . ولم تطرف عيناه بنظرة الجوع المعتادة حين يرى مالا . . أوجارية . .

* حدثنى جرير عنه بحزن حقيقى . .

جاء الركب من البصرة فسألت عن آخر الأنباء . قالوا مات الفرزدق . قلت :

- ليت الفرزدق عاش قليلاً . .

لم أتمالك نفسى فدمعت عيناى . قال اللذين حولى :

- يا سبحان الله . . أتبكى على الفرزدق . .

قلت : والله ما أبكى إلا على نفسى . إن بقائى بعده لقليل وما تقارب رجلان مثلنا على خير أو شر فمات أحدهما إلا أوشك صاحبه أن يتبعه . .

كانت روحنا مرتبطتين بشعرة رفيعة نتنازع حولها ولا نقطعها . قالوا إننا معا كنا أشعر أهل زماننا . . أتينا بما لم يأت به الأوائل . كنا جوادين فى حلبة رهان كلانا خاسر . نلهث ونعرق فتخرج أشعارنا زبداً أجوف . نجرى فى أوطار لعبة لم نفهمها أبداً . هجانى بـأبى فهجوته بأمه . هجانى بتاريخى ونسبى وهجوته بحاضره وفعاله . واحتار الناس بيننا طويلاً وكل منا لا يكف عن فتح جراح الآخر الشخصية . كم تغدو الحياة كريهة وأنت تنام وفى فمك دم الآخرين . قالوا إنه كان لعنة قومه وكنت أنا شهابا من نار . وقلت إننا فى قيد واحد . وضع على رداء لعنته واحترقت أنا بداخله . . وما بقى منا سوى قطعة من الأحجار يسمونها شاهد قبر . . قالوا مات الفرزدق . . قلت .

- فلا ولدت بعد الفرزدق حامل . .

وأتخيله فى قبره يشد لحيته ويضحك بصوته الأجش قائلاً : ابن المراغة يـرثينى . . ! فتضحك الملائكة . . وتضحك الزبانية . . !



عبد الله بن الزبير
مقتل المستجير بالبيت

ظباء مكة صيدهن حرام . . فمن الذى أحل دمى . . ؟ . .

اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى العام الثالث والسبعون من الهجرة . والهواء عبق برماد الحريق والرمل مشبع من الدم . وعبد الله بن الزبير قد بلغ عامه الثانى والستين ، سارت الجيوش إليه من الشام مرتين حاصرته فى مكة مرتين . نصبوا المجانيق وقذفوا رؤوس الحجيج بالحجارة . قتلوا نداءات التلبية وأشعلوا النار فى أستار الكعبة . وردموا كل الآبار المقاسة . . كان عبد الله فى الداخل . والحجاج فى الخارج يحكم حصاره الطويل القاسى . . تقلصت دولة ابن الزبير . . أصبحت مجرد قطعة من الصحراء حول الكعبة . . مليئة بالقتلى . . والخرائب . .

وقف أمامه ولداه «حمزة» و «حبيب» ، ووقف ابنه الثالث «الزبير» خلفه . . كانا يطلبان الاذن منه . . أى اذن ؟ . . هل بقيت له سلطة . . حتى السلطة الأبوية ؟ . . حمزة هو الذى يتكلم . . أقرب أولاده إلى قلبه . . منذ أن ولاه على الكوفة رغم أنف الجميع وكان يود أن يجعله قائداً للجيوش ووليا للعهد . حمزة . . هو الذى يتكلم .

– يا أبى . . نطلب منك الاذن بالخروج إلى الحجاج .

غاصت الكلمات مثل نصل مسموم ، رام «الزبير» وحين إلتفت إليه رأى أصابعه وهى على مقبض السيف أشار له أن يهدأ . وظل وجهه جامداً قال حمزة .

– سوف يعطينا الأمان إذا خرجنا إليه . لا يوجد هنا إلا الهلاك . (تردد قليلاً ثم همس) إذا أذنت لنا . .

ما جدوى الرفض . . ؟ . . سوف يتسللان كما تسلل عشرة آلاف من إنصاره

قبلهما . . مثلما خلع المختار بيعته وأعلن الولاية لنفسه . مثلما غدر الأمويون . . وقتلوا مصعباً أخاه . . كل شيء ينهار والفئران هي أول من يسرع بالهرب . . وظل وجه الابن الثاني «حبيب» صامتاً . . وأشار عبد الله بيده . إشارة لا تعني الموافقة أو الرفض . . لكن الولدين انصرفا مبتعدين . . سيذهبان حيث يقفان بعيداً يطلان على تفاصيل المذبحة الأخيرة . . والصمت ثقيل كالموت . والتفت عبد الله إلى الولدالثالث وهو يتساءل . .

- وأنت . . ؟ . .

هتف «الزبير» في قوة . .

- كلا يا أبي . . سوف أبقى معك .

وفكر عبد الله . . أيها الأحمق . . سوف تموت معي . . في البدء . . كانت البيعة وكانت الخلافة . . وجاء معاوية كالقدر فأخذ البيعة بحد السيف . . وورث الخلافة لأبنائه . وترك عبد الله في ذل الانتظار . . في البدء كان معاوية . . وكان عبد الله . يبكيان معاً نفس القتيل . يبكيان «عثمان» ويتوعدن قتلته . ويحلمان ذات الحلم . لكن معاوية صعد إلى ما يريد . . وتردد عبد الله قليلاً فضاعت كل الفرص . وظلا يتساجلان وسط جموع المسلمين الصامتة المتفرقة في وهم الامام المنتظر . أيهما احق . . قتلى الكوفة . . أم قتلى الحجاز . . ؟ . . قال معاوية . . أنا أول الملوك . . ورد عليه عبد الله . . امك هند آكلة الأكباد . . وأمي اسماء ذات النطاقين . . أبوك سفيان بن حرب . . وأبي الزبير بن العوام . . ومعاذ الله أن يكون أبواك خيراً من أبوي . . أما الدنيا فلك . . وأما الآخرة فلي إن شاء الله . .

ولكن عين عبد الله كانت على الدنيا . على عرش القرشيين الذى ضاع . منذ أن قتل أبواه في حربه ضد على . وخرج الخوارج وتشرذمت الأحزاب . وتاهت الحقيقة . وبدأت كل الحروب دون سبب واضح . . لذا لم يكن هناك مبرر لانتهائها . وعبد الله ينتظر الفرصة حتى يسقط معاوية ويتبدد شمل بني امية . لكن المشكلة أن معاوية على العرش . والحسين بن على في القلوب وابن الزبير يلعب لعبته الخاصة في حذر بالغ . . يعد يومه الآتي من كل لحظات الانتظار . ومن كل اخطاء بني أمية عندما حاول معاوية أن ينقل منبر النبي من مسجد المدينة إلى دمشق وهو يصرخ في الانصار . . لا أترك المنبر بينكم وأنتم قتلة عثمان . وحرك المنبر فإنكسفت الشمس وشوهدت النجوم في الظهيرة . وأدرك ابن الزبير أن هذه علامة السماء . . بشارتها له . .

كان هو أول مولود في المدينة بعد الهجرة . زعم اليهود أنهم قد سحروا المسلمين فلا يولد لهم . . ومرت أيام الجدب بطيئة . ولم تكن بطن أسماء بالإرتفاع الكافي . لكنه جاء . صرخ أولى صرخاته وسط تكبيرات المسلمين وحملته أمه إلى الرسول ووضعته في حجره .

وابتسم الرسول وهو يمسح على رأسه . . ووضع فى فمه تمرة كانت هى أول شىء دخل جوفه . . وأوصى اسماء قائلاً . .

- أرضعيه ولو بماء عينيك . .

وأرضعته . بدأ خطواته الأولى مع نداء الفتح . وأشتد ساعداه فى شمال أفريقية . وحوصر فى بيت عثمان أربعين يوماً . وبدأ الحلم يترسب فى داخله . مجرد وصية غامضة أوصاه بها عثمان قبل أن يموت . . زرعت فى داخله كل هذه الطموحات . . وقادته إلى تلك النهاية . .

سار عبد الله يتفقد مملكته . إنكمشت الصحراء حوله كالطوق . وامتلأ حرم الكعبة بالحمائم والجثث الغريبة . الحجيج اللذين جاءوا يسعون من أقصى الأرض ففاجأهم الحصار . واحترقت الكعبة فوق رؤ وسهم ، كانت مظاهر المجاعة فى كل مكان . لا يوجد حيوان داخل مكة إلا ذبح وأكل . . حتى جواد ابن الزبير نفسه قدمه لانصاره فذبحوه وأكلوه ثم تسللوا فى المساء إلى الحجاج . .

تقابل مع إبن قيس الرقيات . شاعر قريش اللذى وهب شعره من أجل بيعته . مدحه كما لم يمدحه أحد . . وهجا الأمويين كما لم يهجهم أحد . . كان مشعثاً . . ذاهلاً . . يجوس خلال الحرائق والجثث . كأنما يبحث عن الشىء اللذى آمن به ، وقف كلاهما أمام الآخر . الخليفة والشاعر اللذى آمن به . . كلاهما يحس بنذير النهاية ويشعر بمرارتها . قال عبد الله :

- لم يعد الشاعر يخشى من منظر الموتى . .

قال ابن قيس الرقيات :

- بعد موت مصعب . . فكل الموتى سواء . .

حتى ابن قيس يفتح الجروح القديمة النازفة . . ترك أشعار الغزل والصبابات وكل الرقيات التى شبب بهن وتبع الحركة الزبيرية . وعندما تولى مصعب ولاية العراق نائباً عن أخيه ذهب معه ابن قيس . شاهد حروبه مع الأمويين ومع الأزارقة . ومع التوابيين . حتى تولى الخلافة صديقه القديم عبد الملك ابن مروان . كانا صنوين . ولذا كان صراعهما مريراً . وبموت مصعب اتسع الثقب فى جسد الدول . ضاعت العراق . وضاعت مصر . وحمصا وحلب . والاردن . وتدفقت الجيوش عبر الصحراء : هدفها رأس ابن الزبير نفسه .

عاد يقول فى حزن . .

- انظر . . ماذا فعل بنا الحصار . . حاصرنا الأمويون قبل ذلك . . بنفس الجيوش . وفى نفس المكان وانتصرنا عليهم . ماذا تغير هذه المرة . . ؟ . .

تطلع إليه قيس فى دهشة ممزجة بالسخرية ثم قال :

- ألم تدر بعد . . فى المرة الأولى لم تكن قد أصبحت خليفة . . كنت فكرة . . رمزاً . . والسلطة لا تستطيع حصار الفكرة أو الرمز . لكن السلطة تعرف جيداً كيف تقهر سلطة مثلها . .

كانت نبرات صوته باردة تجب كل أبيات الشعر الحماسية التى قالها . بدا معا عندما جمع معاوية أولاد الصحابة ووضع السيوف على رقابهم ليأخذ بيعة يزيد إبنه . يزيد السكير سوف يصعد على العرش . ويحكم جموع المسلمين . . ها هو عبد الله عليه أن يعطى البيعة قسراً كما أعطاها من قبل لمعاوية . . ومات معاوية . . وشدد حاكم المدينة حسب أوامر الخليفة الجديد على عبد الله أن يبايع أو يوضع فى السجن . وهو يماطل ويسوف . . وسار إليه الحرس لكنه إستطاع أن يهرب من المدينة إلى مكة . . يحتمى فى حرمها ويلوذ ببيتها . يعلن رفضه لخلافة السكير . . يعلنها عالية ونهائية . . وأقام فى البيت ليلاً ونهاراً يصلى . . ويهز الصحراء المستسلمة . . ومات الحسين فى كربلاء . . نزع خليفة القلوب وبقى خليفة السيوف . وأخذ عبد الله يجمع حوله كل بقايا الرافضين والغاضبين والذين يؤمنون بالعدل المطلق . . وغضب يزيد . . وجه إليه جيشاً كبيراً يقوده الحصين بن نمير . . حسبوه صيداً سهلاً . لكن المستجير بالبيت لم يعد وحده . . جاءت إليه النجدات من كل مكان . . دون أن يطلب شيئاً . . جاء أهل المدينة وعلى رأسهم قدامى الصحابة وأولادهم . . وجاء عامر الحنفى من اليمامة يقود ثواره ضد الحكم الأموى . وجاء الخوارج الأزارقة وجاء المختار الثقفى . حتى النجاشى أرسل بعضاً من الأحباش . كانو يدافعون عن الكعبة وعن حرمة المستجير بها . لكنهم الآن يرحلون فى عكس الاتجاه . . واحداً . . وراء الآخر . .

سار عبد الله إلى بيت أمه . . أسماء بنت أبى بكر . كانت جالسة فى إنتظار زيارته اليومية . بلغت المائة من عمرها ولم تقع لها سن ولم تبيض من رأسها شعرها واحدة . وكانت تحدق فيه بنظراتها الصلبة . . لا يعرف فيها الشفقة من اللوم . أحس عبد الله كأنما ارتد طفلاً صغيراً يعانى من الوحشة . . قال :

ـ يا أمى . . خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى . لم يبق من عمرى إلا ساعة والحجاج فى الخارج يعطينى أمن الدنيا والعيش . ما هو رأيك . ؟

قالت أمه فى سخرية مرة :

- أنت أعلم بنفسك . إن كنت على حق أو على باطل . . فيم قتل هؤلاء إذا كنت تبتغى الدنيا . فيما قتلهم وأنت تمكن رقبتك لغلمان بنى امية . . إن اردت الدنيا فبئس الناس أنت . أهلكت نفسك وأهلكت من حولك . . وإن كنت على حق . . فما الخير فى حياتك واصرارك على العيش . . ؟ . .

أحنى عبد الله رأسه كانت هذه لحظة ضعف طفولية لا يجرؤ على اظهارها إلا امام أمه . . قال :

- ما ركنت إلى الدنيا ولا أملت الحياة فيها . فإنظرى يا أمى إنى مقتول من يومى هذا فلا يزيد هذا من حزنك . أننى لم أجر فى حكم ، ولم أغدر فى أمان . ولم أتعمد الظلم . وكنت صواماً . . قواماً . . أحكم بالعدل . . لا أقول تزكيه لنفسى ولكنى أقوله تعزية لك . . ليسلو قلبك عنى . .

قالت أسماء :

- يا بنى . . تُقتل حين تقتل على حق

ساكنة تتلقى النهاية عرفت نهاية اللعبة بعد أن شاهدت بدايتها . وتساقط أولادها كأوراق شجرة ذاوية . . صورة مصغرة لكل ما حدث حولها دم بلا ثمن ، وقضية ضائعة ، كل طرف فيها يعتقد أنه المحق . .

خرج عبد الله إلى جولته الأخيرة . . تطلع إلى كل من بقوا معه . ما أقلهم . أهى الشجاعة أم نوع من حماقة الانتحار . بعد إنتهاء الحصار الأول . بايعه الخوارج على أن يذم عثمان ويثأر من قتلة على . . ورفض عبد الله . وتقدم إليه قائد الجيش الأموى يبايعه ويطلب منه أن يصطحبه إلى دمشق . ورفض عبد الله . . وعرض عليه المختار الثقفى أن يشاركه فى الأمر بعد أن يقتل الأزارقة . . والتوابين . ورفض عبد الله كان ينتزع خلافته من بين أنياب الجميع . هو وحده القادر على أن يملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت جوراً . وإستدار الزمن فى دورته المفجعة . حين أعلن خلافته قبلها الجميع وإنتشر عماله فى كل ارجاء العالم الاسلامى إلا بقعة ضئيلة فى الشام . واختار الأمويون اختيارهم اليائس الأخير . اختاروا شيخهم الفانى مروان بن الحكم . . وكان أول شىء فكر فيه أن يرحل إلى الحجاز ويبايع عبد الله ويخلع نفسه . لكنهم منعوه . وأصبح فى الأرض خليفتان وحربان ، ودماء كثيرة . ومات مروان ليأتى إبنه عبد الملك . وفجأة إنقلبت الأمور . سارت جيوش عبد الملك تحت قيادة الحجاج بن يوسف الثقفى تجتاح كل شىء كالطاعون يقتل دون رحمة . ويثيب دون حساب . فى الوقت الذى تخاذلت فيه جيوش عبد الله ومات مصعب وظهر المختار الثقفى بوجهه الحقيقى . . فخلع بيعه عبد الله وأخذ يدعو لنفسه وأصبح فى الأرض ثلاثة خلفاء . . وانقلب الزمن المزدوج الوجه الملىء بالطموحات القاتلة . .

آه . . ما أطول ذلك اليوم الرابع عشر من جمادى الأولى . العام الثالث والسبعون من الهجرة . . وعبد الله وسط مكة . . أسد عجوز محطم الأنياب . والحجاج يعد العدة للاجهاز عليه . . لا يريد أن ينفرد أحد بقتله . . مثلما جمع حوله كل العرب يجب أن يقتله كل العرب . . وضع أهل حمص على الباب المواجه للكعبة . وأهل دمشق على باب شيبة .

وأهل الاردن على باب الصفا . وأهل فلسطين على باب جمح . وأهل قنسرين على باب تميم . ووقف الحجاج على باب المروة . . وعبد الله فى الوسط . . يصرخ فى أصحابه . .

– صونوا سيوفكم تصونوا وجوهكم . لا تسألوا عنى . فمن كان سائلا فإنى فى الرعيل الأول . .

لكن أنصاره تراجعوا . تركوه لأحجار المنجانيق ولجند الشام والدباب . هبط على رأسه حجر ضخم وتدفقت السيوف داخل جسده . كل الذين بايعوه ، وخدعوه . . ومن بعيد كانت الكعبة تطل عليه . . عالية . . أعاد بناءها بعد الحصار الأول . . كانت تقل بمقدار سبعة اذرع عما بناها ابراهيم الخليل وظلت هكذا حتى أعاد عبد الله بناءها وأضاف إليها الأذرع الناقصة . . هوى على رمل الأرض الحرام . . وحوله وجوه غريبة . . ملطخة بالدم والسواد . . قال أبيات شعره الأخيرة . .

يا رب أن جنود الشام قد كثروا
وهتكوا من حجاب البيت استاراً

وغرق فى ظلام الموت الكثيف . وهلل الجند لعل تهليلهم يصل إلى الخليفة البعيد فى الشام . ووقف الحجاج على رأسه . أشار أن تصلب جثته فى ساحة الكعبة . صنم جديد . . ميت . . مستنزف الدماء . . يرقد محنى الرأس . مقوس الجسد . غائر العينين . . كان الحمام الذى يعيش فى حمى المسجد الحرام قد طار أو قتل فى أيام الحصار . وأمتلأت السماء بطيور سوداء جائعة تصرخ فى نهم حتى أن صرخاتها غطت على صوت الأذان . .

وخرجت أسماء تحمل على كتفيها أحزان سنواتها المائة . وقفت أمام جسد ابنها المصلوب والحجاج يرقبها فى تشفـ . . لم تسأله شيئاً . . لكنه هو الذى صرخ كأنما يدفع نظراتها .

– لن يدفن حتى تأكله طيور الصحراء . .
وقالت أسماء :

– سمعت رسول الله يقول : يخرج من ثقيف كذاب . . سفاح . . الكذاب فهو المختار . . وأما السفاح . . فهو أنت . .

وظل الجسد المصلوب معلقاً يرقب بعيونه الغائرة المعاول وهى تهوى على الكعبة تنقض البناء الذى بناه . . البيت الذى إستجار به . . لعلها تمحو دمه . . وأثره . . وخلافته . .



أشعـــب

العيش على فتات الآخرين

* حدثتني عنه مدينته . . قالت .

كلما ذكرته ــ بجسده الضخم وهيئته الدميمة ــ إقشعرت أرض الحوارى . واصطكت أبواب المنازل وغاضت الينابيع . كان لحوحاً كذابة . . شرهاً كضبع يجوس خلال المقابر . . طماع مثل . . مثل . . وهل هناك أطمع من أشعب ؟ . . قال دينار ضائع . . وجدني أشعب في أحدى الطرقات . وبدلاً من يسأل عن صاحبي . إشترى بي قصعة من الفخار ووقف على باب المسجد وهو يهتف . . من يتعرف على هذه القصعة . . ؟ . . وقال باب بيته . . كان في أخشابي فتحة . حين ينام أشعب كان يخرج يده منها لعل إنساناً يمر ويطرح في يده شيئاً . . وقالت امرأة تجدل البوص . . وقف أشعب أمام دكاني وأنا أجدل طبقاً فقال . لتكبريه . . فقلت . ولم أتريد أن تشتريه ؟ . . قال . لا ولكن عسى أن يشتريه شخص فيهدى إلي فيه . . فيكون كبيراً خير من أن يكون صغيراً . .

لم يكن يكف عن السير والتسكع . . الدروب مرسومة في باطن قدميه . وأنفه الكلبية تتبع آثار الطعام والدنانير . كلما رأى تهامس إثنين اعتقد أنهما يوصيان له بشيء . لا يترك نافذة إلا ونظر من خصاصها . لا يجد باباً إلا ودس عينيه في ثقبه . كلماته مبللة باللعاب . ولعابه ملون بالشراهة . . وشراهته بئر بلا قاع . قال صبيان المدينة : كنا نسير وراء أشعب . وضاق بنا فزعم أن عمرو بن عثمان يقسم أموالاً بين الناس . وحين صدقناه وانصرفنا نبحث عن هذه الأموال . فوجئنا به خلفنا يسعى إلى عمرو بن عثمان وقد صدق

كذبته : وقالت جارية : كان أشعب يجيء للحديث معي . فقالت لي جاراتي : لو سألته شيئاً فإنه موسر . فلما زارني كعادته قلت له : يقلن لي جاراتي ما يصلك أشعب بشيء . . فخرج نافراً من المنزل ولم أره لمدة شهرين حتى جاء ذات يوم وجلس أمام الباب فأخرجت

إليه قدحا من الماء وأنا أقول . . إشرب هذا من الفزع . . فقال . . إشربيه أنت من الطمع .

كان يريد العالم كله بلا ثمن . يريده شيئا محسوسا بين أصابعه . لا مانع من أن يمر عليه بلسانه بين الحين والآخر . فاسداً . نيئاً . جيفة . لا يهم مادام بين أصابعه . كل لحظة هى لحظته الأخيرة . . من يستطيع أن يطفىء آلة الشراهة المتوقدة فى داخله .

* حدثتنى عنه أمه . . قالت . .

أشعب ابنى وليس ابن أحد غيرى ، لا أعرف من هو أبوه بالضبط . . إنه يحسب نفسه أشعب بن جبير . وأنا متأكدة أن جبيراً لم يعرف أبداً أن له إبناً على قيد الحياة . المسألة أن الليالى متشابهة والرجال فى الظلام متشابهون . ولكن الأطفال يلحون فى السؤال بلا مناسبة . فليكن أبناً لهذا العالم الملىء بالجوعى والمتخمين . . ليختر أى لقب يشاء . . ولكن عليه ألاّ يبيت الليلة دون عشاء .

بعد ولادته جف اللبن فى صدرى ولم أجد له غذاء . وظللت أطوف على سيدات المدينة . لم أكن أملك مالا أخصصه لمرضعة . فجعلت أستوهب له كل وجبة من وجباته . . ما كان أجدر بى أن أتركه للموت جوعاً كما مات غيره حتى لا يكبر ويلقى على هذه الأسئلة السخيفة . الطفل الأحمق تشبث بالحياة . كلما وافقت امرأة على إرضاعه أنشب فمه بنهم غير عادى . كان يتلمظ فى حضنى . ويبدو مصغياً شديد الاصغاء وأنا أتوسل لأى امرأة أن تجود عليه برضعة . . لا يبكى يظل هادئاً حتى يثب إليها . . الوغد الصغير . لقد تعلم أن يرضع من كل الصدور . ويأكل على كل الموائد . وينافق كل السادة . . ويحفظ كل فتات الشعر ويلح فى السؤال . ويبالغ فى التذلل . ويبكى خشية الرفض . ويكون ممتنا دوماً . شاكراً أبداً . مطيعاً للأصاغر . ملبياً لأشارات الأصابع . يحكى النكات إذا حضر المدام ويجود القرآن إذا سحر الليل

حين علمت أنه تعلق بأستار الكعبة ودعا الله قائلا . .

- اللهم اذهب عنى الحرص والسؤال والطلب . .

ثم مر بالقرشيين فلم يعطه أحدهم شيئاً وجاء إلى خائباً خالى اليدين . صحت فيه .

- لا والله . . لا تدخل من الباب حتى ترجع فتستقيل ربك . .

ولم أدخله حتى عاد إلى أستار الكعبة وتعلق بها وهو يهتف .

- يا رب أقلنى . .

فلم يمر بمجلس من المجالس إلا وهبه أحدهم شيئاً . .

ثم يأتى هذا الأحمق ليسألنى من هو أبى . . كأنه يعتقد أن لهذا السؤال أهمية . قلت له

على الفور . . إنه جبير . . وكان مصعب بن الزبير قد ذبحه . وسار أشعب يبكى أباه . وقلت فى نفسى . . ولعله زيد . أو تبع . . أو عمرو . . أو أى كائن من كان . . الأرض واسعة والسماء شاهقة . . ولماذا تطالبنى وحدى بالأجابة على كل الأسئلة . .

* حدثنى أشعب عن نفسه . . قال . .

عليكم اللعنة جميعاً . .

تتحدثون عن أخبار جشعى . ونوادر طمعى . وأنتم أكثر نهماً منى . لا أتطلع إلا للطعام . وأنتم لا تكفون عن نهش جسدى . تتحدثون عن كيف مررت بقوم يأكلون . فلما سلمت ردوا سلامى بجفاء . سألتهم ماذا تأكلون . . قالوا سماً . فجلست بينهم وأنا أهتف . الحياة بعدكم حرام . تتحدثون عن أنى أكلت فالوذجة . وجدياً مشوياً . ورغم المغص الشديد لم أتوقف حتى لا تحسب سابقة على أننى ابقيت شيئاً . تتحدثون أنه لا تزف عروسة فى المدينة إلا وتوقعت أن تهدى إلى . وحين طلبت منى امرأة هويتها خاتمى لتذكرنى به فقلت لها : أذكرى أنى ما منحتك إياه فهو أحب إلى . .

إننى الجزء الأسود الذى تجاهدون فى إخفائه . أعلن نزواتى الصغيرة . . واطالب بحق معدتى . ولا أكتم رغبة مهما سفلت . أنتم أشد جبناً وخجلاً . . تجاهدون كل عمركم لخنق رغبة . تقطعون جسدى سيوراً لنبالكم العمياء . . وسهامكم الصدئة . .

عليكم اللعنة جميعاً . .

كنت صغيراً عندما اقتحم الحرس دارنا . وحضر الوالى والقاضى والشيوخ . وصعاليك المدينة . أخرجوا أمى محلولة الشعر . ممزقة الثياب . والنساء الفاضلات يصرخن . .

- ارجموها . .

لم يكن ينقصن سوءاً عنها حتى القاضى برقت عيناه فى نهم وهو ينظر إلى جسدها العارى الممزق الثياب وأنا أعض أيدى الحرس التى تقيدنى . وأحاول التملص . وحين تقابل وجهانا . لم تكن تبكى . كانت مدهوشة لأن زبائنها القدامى تحولوا إلى ذئاب . صاح فيها الوالى . .

- ضبطت متلبسة . وشهد عليك شهود عدول . . وتبرأ منك أهلك وعشيرتك . . فلم تطلب الرحمة . ولطالما سألت الكثير وعلمتنى حرفة السؤال وذل الألحاف فلم تطلب بضعاً من الحياة . ونظر الوالى إلى القاضى . ونظر القاضى إلى أمى . ونظرت أمى إلى . وخصتنى بنظرتها الأخيرة وقال القاضى . .

- تحلق . . ويطاف بها . . ثم تجلد .

وكان الموسى مثلوما ، يقلع ولا يحلق جدائلها الطويلة ، ليلى الصغير حين أخبىء وجهى وأحلم . أرضع طعامى من صدور النساء ثم تعطيني شعرها لأتسلقه ونادراً ما كنت أظفر بنجمة صغيرة . أجتزت رأسها وأصبحت بيضاء صلعاء . غاية القبح يا أمى . وبدت الملامح غليظة مثل نعل قديم . ووضعوها على حمار ووجهها لمناحية الأخرى . كان الحمار هادئا تماماً . . مثل حكيم يدون أقواله . ووقف الحراس ضاحكين . تذكرت أحدهم وهو يضع قطعة فضية فى يدى ذات ليلة . . مضى الموكب . والجلاد يمسك السوط ويهوى عليهما . أمى والحمار . . وأنا طفل الزحام اليتيم . أتبعك ، اشاركك عارنا المشترك . . أنت أبى الذى لم يرنى وذكرياتى المفضوحة . والسوط يهوى على ظهرى . . شربت مهانتها قطرة فقطرة . خطوت على شوك عارها خطوة بخطوة . وحين كان السوط يهوى ثم يصعد ناثراً قطرات الدم لم أدر . . دمها . . أم دمى . . . . . وحيدين ، جلست إليها وفى يدى قارورة الزيت أدهن ظهرها الممزق . لم تكلمنى . كان وجهها أبيض مائلاً للزرقة . كانت ميتة ولن تعيدها زيوت الدنيا إلى الحياة . وفى صباح يوم لا أذكره وجدتها متيبسة . متكومة الأعضاء . جلدها أزرق . . والدم المتجلط على ظهرها تحول إلى اللون الأسود . .

لم يبكها أحد . تولت تربيتى وكفالتى عائشة بنت عثمان بن عفان . وإبتعدت عن الطريق . وعن مذلة السؤال . دخلت إلى عالم واسع . . عالم بيت الحكم فى ظل أمير المؤمنين عثمان . . حتى أننى ذات لحظة . . فكرت أنه من الخير أنها قد ماتت . . لقد أتاحت لى بموتها هذه الفرصة الوحيدة لكى يكون لى هذا البيت . . وهذا الأب . .

لكنى إستيقظت صباحاً . لأجد المئات من الناس يحاصرون بيت الخلافة ، كنت صبياً لا أعرف ماذا تعنى السياسة . لكنى رأيت السهام تهبط علينا كالمطر . وامتنع دخول الماء والطعام إلى البيت . والخليفة جالس فى الفناء يقرأ فى مصحفه الذى قدر له أن يقتل فوقه ، وسط عشرات المسلحين والسيوف والرماح . .

خمسون يوما وقبضة الحصار تزداد حولنا . كل يوم قتيل . وكل لحظة دم ضائع . وعندما اعتلوا سور البيت . أشعلوا النار فى الأبواب . وذبحوا الخليفة . وجدتنى وحيداً يتيماً مرة أخرى . لقد إغتالوا كل الذين أحببتهم . فلماذا لا أطالبهم بفتات حياتى . لم لا ألحف فى السؤال وأنتزع من على وجوههم أقنعة الكرم الزائفة . . أكشف عما فى داخلهم من شح وبخل وانانية . .

حين وضع أحدهم . فالوذجه ماسخة أمامى وطلب منى رأيى . . قلت . .
- لعلها عملت قبل أن يوحى الله للنحل أن يصنع عسلاً . .
لم يكن أحد يجود بما عنده إلا خوفاً من الفضيحة . . وعلىَّ فى كل مرة أن أجرب معهم حيلة جديدة . .

كنت أربى جديا صغيرا . وجعلت زوجتى ترضعه من لبنها . تذكرت كيف كانت أمى تحملنى إلى زوجات الآخرين . وذهبت إلى اسماعيل بن جعفر وأنا أقود الجدى . .

- بالله إنه لابنى . قد رضع بلبن زوجتى وقد حبوتك به ولم أر أحدا يليق به سواك

ونظر اسماعيل إلى الجدى . أدرك أنه إزاء حيلة جديدة من حيلى . . أو لعله خشى أن تكون فتنة من الفتن . فأمر به فذبح وسمط وأقبلت عليه وهو يأكله أطلب منه المكافأة . . ففوجئت به يقول . .

- ما عندى والله شىء . . مر بنا فيما بعد . .

وظللت ألح عليه فى السؤال حتى أصابنى اليأس . فقمت وذهبت إلى أبيه جعفر بن محمد . . وأخذت أبكى فى حرقة وأنا أهتف . .

- وثب إبنك اسماعيل على إبنى فذبحه . وأنا أنظر إليه . .

وفزع جعفر وهمهم مرتبكاً . .

- ويلك . . ولم . . وتريد ماذا . . ؟

وأدخلنى منزله . وأخرج إلى مائتى دينار وهو يتوسل إلى أن أهدأ ويعدنى بالمزيد . وأقلت أنا والنقود . وذهب جعفر إلى ابنه فعرف منه القصة الحقيقية . كان كلما قابلنى يقول لى . .

- رعبتنى رعبك الله . .

فأقول له . .

- روعة ابنك والله إياى فى الجدى أكبر من روعتك أنت فى المائتى دينار .

ذات مرة وجدت من هو أبخل منى وأشح . ومن هو أقوى من أن أقاومه . حدث ذلك حين تولى على المدينة رجل من بنى عامر . . وكان من أبخل الناس وأنكدهم . وأغراه الله بى يطلبنى فى ليله ونهاره . فإذا هربت منه هجم على منزلى بالشرطة . ويطلبى أن أحدثه وأضحكه ثم لا أسكت ولا أنام ولا يطعمنى ولا يعطينى شيئاً . فلقيت منه جهداً عظيماً وبلاءً شديداً . . وحضر الحج . فقال لى يا أشعب كن معى . فقلت . بأمى أنت وأبى . أنا عليل وليست لى نيه فى الحج . قال . لئن لم تخرج معى لأودعتك فى الحبس حتى أعود . فخرجت معه مكرهاً . فلما نزلنا المنزل أظهر أنه صائم ونام حتى تشاغلت ثم أكل ما فى سفرته وأمر غلامه أن يطعمنى رغيفين بملح . وظللت أنتظر المغرب وأتوقع افطاره حتى قال لى غلامه . . قد أكل الأمير منذ زمن . . فقلت مدهوشاً . . أو لم يكن صائماً . . قال . . لا . . وقد أعد لك ما تأكله فكل . وأخرج الرغيفين والملح فأكلتهما وبت ميتاً من الجوع . وأصبحنا فسرنا حتى وصلنا إلى أطراف مكة . فقال لغلامه . . إبتع لنا لحماً بدرهم .

فإبتاعه . فقال . كبب لى قطعا . ففعل . فأكله وصب القدر فلما اغبرت . قال . إغرف لى منها قطعاً . ففعل . فأكلها . ثم قال . . اطرح فيها دوقة وأطعمنى . . ففعل . فأكلها ثم قال . إلق توابلها وأطعمنى منها . ففعل . فأكلها . وأنا جالس انظر إليه لا يدعونى فلما استوفى اللحم كله قال . يا غلام اطعم أشعب . . ورمى إلى برغيفين . فجئت إلى القدر وإذ ليس فيه إلا مرق وعظام . فأكلت الرغيفين غيظاً . وأخرج جراباً فيه فاكهة يابسة فأخذ منها حفنة فأكلها وبقى فى كفه بضع نوى . ولم يكن له فيه حيلة فرمى به وقال . كل يا أشعب . . فذهبت آكل واحدة منها فإذا بضرسى قد إنكسرت منه قطعة فسقط بين يدى . ولم أملك بعد ذلك إلا أن أعود باكياً . . وأقبل اناس بنى مصعب على وأنا فى هذه الحالة فصحت بهم الغوث . الغوث . أدركونى يا آل مصعب . . فركضوا إلى وأنا أواصل الهتاف . خذونى خذونى معكم تخلصونى من الموت . . فحملونى معهم وأنا أرفرف كالطير الذبيح وحلفت بالطلاق أنى لا أدخل المدينة مادام له بها سلطان . . فلم أدخلها حتى عزله . .

. أعرف أنى مهما قلت لن ترحمونى لقد أصبحت أنا المكان الوحيد الذى تلقون فيه نفايات رغباتكم . . ونزواتكم . .

عليكم اللعنة جميعاً . .

* وأخيرا حدثنى عنه ابنه . . قال . .

قاوم أبى السنين طويلاً . وغالط حساب عمره . وجاءت الشيخوخة كالثلج فوق قمة قيسون . . مسخت حكاياته . وفقدت نوادره مذاقها . وارتعد صوته . . وأصبح شيخاً دمياً ثرثاراً . يسعى فى أرجاء المدينة ويذهب إلى حيث لا يريده أحد .

كنت جالسا فى فناء بيتنا مع أمى . . حين رأيته يدخل مندفعا ويهتف بى . . .

– بلغنى إنك تقول النادرة . وتروى الأشعار . . وإن لك حظوة وقد مال الناس إليك . . أومأت إليه موافقاً . . فهتف . .

ـ هلم اذن حتى أخابرك لنرى من منا احق بالغلبة . .

نهضت . كل منا فى مواجهة الآخر . هذا الوعد المحرور لم يكن يريد الأعتراف أن زمنه قد ولى . إندفع يتغنى ببيت ركيك من الشعر وخرج صوته صحفا متحشراً . . وغنيت أنا بكل ما فى صوتى من نضارة حتى تخاذل أمامى ثم اندفع يقول النوادر . . نوادر قديمة فاترة لم تعد تثير ضحك الأطفال . . ولم أسكت أحرقت كل نوادره وردت عليها فى نوادرى اللاذعة . وتوقف قليلاً ثم اندفع فى الخطب يردد الكلمات المسجوعة والمعانى البائرة بصوت رتيب متحشرج . وأخذت ناصية الخطابة منه . . تلاعبت بكل ما فى الكلمات من جناس . وما فى المعانى من تورية . وفى النهاية إنحرط فى بكاء عنيف . . حتى أن اشمئزازى منه تبدد فى لحظة . فقلت فى أسف .

- لعلى أسأت إليك يا ابى
لكنه همهم من خلال دموعه .

- أنا بمنزله شجره الموز . إذا نشأ ابنها قطعتها . وأنت نشأت وحظيت . وأنا أموت . . إنما أبكى على نفسى . .

كان ضعيفاً . مترهلاً . يعبر المدينة طوال اليوم ويعود فارغ اليد ونحن صغار كان جرابه لا يخلو من طعام أو حلوى . صحيح أننا لم نكن ندرى أى طعام نأكل بالضبط . فقد كانت كل الأنواع تختلط معاً فى عجينة واحدة . . وحين يضعها أمامنا يسرع كل منا بملء معدته . .

كان يبكى نفسه . ويمضى لحظاته الأخيرة ذاهلا . رثا . كريه الرائحة لكن كل هذه الأشياء تبدلت فجأة وهو راقد على فراش الموت . وهو يمد يده ويمسك بيد أختى ويقول .

- يا بنيه . . إذا مت فلا تندبينى والناس يسمعونك فتقولين واأبتاه اندبك للصوم والصلاة . . واأبتاه اندبك للفقه والقراءة فيكذبك الناس ويلعنونى . .

ولم أتمالك نفسى من الضحك المرير . وتسللت عجوز من المدينة تدعى «صريمة» كانت صفراء العين . حاسدة لا تنظر إلى شىء وتستحسنه إلا وأهلكته . التفت أبى ورآها فصرخ وهو يغطى وجهه بكمه

- يا صريميه . . بالله إن كنت قد استحسنت شيئا مما أنا فيه فصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ولا تهلكينى .
فنفضت المرأة وهتفت . .

- سخفت عيناك فى أى شىء أنت مما ستحسس . أنت فى الرمق الأخير .

قال أبى

- انى اعلم ولكن خفت ائلا تكون قد إستحسنت خفة الموت على وسهولة النزع فيشتد على ما أنا فيه
وأخذت العجوز نفسه وهى تتجه إلى الباب وبينما كان كل من يحيط بمرقده يضحكون كان أبى قد مات



بشـار بـن بـرد
لا عزاء للأعمى . . لا عزاء للجميع !

دخل أعرابي على جماعة وبشار جالس وسطهم وعليه طيلسان الشعراء . . تساءل الأعرابي من الرجل ؟ . . قالوا : رجل شاعر . قال : أمولى أم أعرابي ؟ قالوا : بل مولى . قال الأعرابي في استنكار بالغ : وما للموالي وللشعر . . ؟ . .

أجل . كان مولى . وكان أعمى . وكان زنديقاً . وكان شاعراً . . وكان اسمه بشار بن برد . .

وعندما جلدوه حتى الموت . وحملت الأمواج جثته كالشاهد الأخرس . عندما سخروا من عماه . من دمامة وجهه وضيعة نسبه . أخذوا لسانه وأعطوه بدلاً منه دنانير مزيفة . مزجوا عذب مائة بالمر . وإستقراره بالمنفى . عندما حاصروا خطواته المظلمة . كسروا كل ما كان يتوكأ عليه من عصى . أكان مولى هجيناً أم كان انساناً .

أمه جارية عربية . وأبوه عبد فارسى . تزوجا ذات ليلة وعلقت فى طفلها الأول . وجاء الطفل أعمى مشوه الساقين . أسمته «بشيراً» وإنطوت تحلم مثل كل الأرقاء بطفل رائع جميل . كأطفال السادة . يحمل كل مباهج الحرية . ثم جاء الطفل الثانى . له ذراع أطول من الأخرى . اسمته «بشر» وأخذت تهذى من حمى النفاس . ثم أفاقت من المرض لتواصل حملها بالطفل الجميل . ثم جاء الثالث . ضخماً . مشوه الوجه جاحظ العينين . تام العمى . أسمته «بشراء» وعندما أقبلت سيدتها لتهنئها ولتبشرها بالعتق شفقة بها وبالمواليد الثلاثة المشوهة . وجدتها ميته . ووجدت الطفل الأعمى يبكى . يطلب بإصرار حقه فى الطعام وفى الحياة .

قال أبو الفرج الاصفهانى . .
– كان بشار ضخماً . عظيم الخلق والوجه . مجدورا . طويلا . جاحظ المقلتين .

يغشاهما لحم أحمر . فكان أقبح الناس عمى . وأفظعهم منظرا . وكان إذا أراد أن ينشد صفق بيديه ويصق على يمينه وشماله ، ثم ينشد فيأتى بالعجب . .

البصرة . مدينته وعذابه . محفورة فى داخله مثل جرح لا يندمل . فى كل مساء تتنفس الجوارى بالعطن . وتمتلىء القصور برائحة الشواء ، ويموت المبشرون على الأرصفة . تستعر شرارة الشعر فى داخله . تحدث جلبه كالآف الجياد النافرة . يسترجع تفاصيل حياته اليومية بالصوت والرائحة . تتشكل بالألوان المظلمة . وتتحول الأحلام إلى أشباح قائمة فيشعر بالكراهية نحو الجميع . . يهتف .

– الحمد لله الذى ذهب ببصرى . .
وحين يسألونه : ولم يا أبا معاذ . . ؟ . .
يجيب : لئلا أرى من أبغض . .

قال الشعر فى سن العاشرة . تعبيرا مريرا عن كل ما يحس به . لقد علموه كيف يجيد الكراهية . كل شىء بغيض . من أول شعاع الشمس الذى يحسه ولا يراه واريج النسوة حين يهدر فى أنفه . وبكاء الاطفال الجوعى . وتفاخر الرجال الاجوف . كان احتقارهم له ينفذ عبر الظلام الذى يحيطه . وكان يعرف من دبيب الأقدام أى اناس قادمون وأى اهانة سيتلقاها . . كيف يمكن أن يستقيم العالم وفيه كل هذا العدد الهائل من المبصرين ؟ إنبرى يقول الشعر . لعله يسمل كل العيون التى تكشف عوراته فى كل لحظة .

فزع قومه . انتابهم الرعب من هذا الغلام الذى لم يبلغ الحلم ويملك هذا اللسان البالغ القسوة . . كان يراهم كما يرونه . يبصر عوراتهم وسوءاتهم التى جهدوا فى اخفائها . ذهبوا إلى أبيه . تألفوا وهم يخاطبون ذلك العبد الفارسى الذى يشتغل «طيانا» يعجن التراب والتبن بالماء ويصبها فى قوالب طينية ثم يبنى بها بيوت الفقراء الواطئة . هتفوا مهددين :

– الأعمى قد جاوز حده . إن لم تردعه لتلناه .
بهت الأب . لم يتصور أن يفعل ابنه هكذا بالسادة الذى تعود على طاعهم . أسرع إلى البيت . انهال بالضرب على بشار وهو يصرخ فيه . .

– يا أعمى القلب . كيف تهجو السادة . يا أعمى اللسان .

لم يأبه الغلام بالضربات . كان سعيداً لأنه خدش جلودهم السميكة . كلت يد الأب وهو يبتسم . شرح له الأمر ببساطة متناهية : يا أبت . إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر . وأنى إن داومت عليه أغنيتك . وسائر أهلى . فإن شكونى إليك قل لهم . . الله يقول «ليس على الأعمى حرج» . وانصرف إليه الأب غير مصدق . من أين يمتلك ابنه كل هذه الفصاحة . تركه ومضى يعجن الطين ويضرب الطوب ، وأتى السادة ، فلم يلتفت

إليهم ، للمرة الأولى فى حياته عاملهم بترفع بالغ . وهتف بالآية القرآنية «ليس على الأعمى حرج» . . نظر السادة إلى بعضهم ثم انصرفوا وهم يهمهمون . .

– فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار . .

لقد قوى فقد بصره من مرارته . ودفعته المرارة إلى حافة التمرد . وكان الهجاء وسيلته لفرض قوته العاجزة . . وحين سُئِل لماذا يكثر من الهجاء قال :

– إنى وجدت الهجاء المؤلم أشد فائدة من المديح الرائع ، وإنى فى الهجاء أخاف فأُعطى .

تبرم بالناس جميعاً . وأولهم أخواه . كانا قصابين بالبصرة . لم يتركاه فى حاله . ظلا يستعيران الأثواب التى تهدى إليه فيوسخانها . أقسم الأ يعيرهما أى شىء فكانا يأخذانها دون إذن منه . وهكذا عندما كان يلبس أى ثياب يجدها متسخة . ملطخة بدم الذبائح ولا يجد بداً من الخروج للناس . وحين يسألونه عن هذه الرائحة يجيب : هذه ثمرة الرحم . . ثم يهتف فى حنق بالغ :

– اللهم إنى قد تبرمت بنفسى . وبالناس جميعا . اللهم فارحمنى منهم .

ولكن لم يكن مقدراً له أن يريح أو يستريح إلا بعد سبعين عاماً . .

قال الأصمعى :

– بشار سلك طريقاً لم يسلك . أحسن فيه وتفرد به ، فى وقت لم يتجاوز فيه الشعراء مذاهب الأوائل .

سبعون عاماً كاملة . لم يترك همسة تسللت إليه . أو لحظة عاشها . أو حلماً طاف بذهنه . إلا وترجمه إلى صورة شعرية . وكتب من القصائد عدداً لم يبلغه أى شاعر آخر . .

– لى اثنتا عشرة ألف قصيدة . لعنها الله . ولعن قائلها إنْ لم يكنْ فى كل واحدة منها بيت عين . .

لم يبق من كل هذه القصائد إلا أقل من ألف بيت فقط . تحمل فى كل شذراتها المبتورة عذابات الشاعر الأعمى . ما بين إحتقار الموالى فى أواخر أيام الأمويين ، حين كان يبذل ماء وجهه وطاقته ليختلق لنفسه نسباً مع بنى عقيل . ثم هوى نجم الأمويين وصعد الموالى إلى دست السلطة . وتعقب العباسيون وأعوانهم من الفرس الحكام القدامى . . لكن «بشار» لم ينتبه مبكراً لهذا التغير . كان يعيش نبض مدينة البصرة الخاص . مدينة الفكر والفتن والأهواء السياسية ، يسعى فى دروبها الزنادقة والمعتزلة والخوارج . تحمل عقدة ذنب العلويين . عندما خذلوا «على بن أبى طالب» وباعوا أولاده . وتشبع بشار بهذه الروح المذنبة . وعندما جاء ابراهيم بن عبد الله بن الحسن يقود آخر ثورات العلويين ، يحاول أن

يناطح العباسين وهم فى أوج قوتهم . وقفت البصرة كلها خلفه . لعله ينتصر . لعله يخفف قليلاً من عقدة الذنب . وكتب بشار القصائد يمدحه . يحرضه . يضع بين يديه حلم العدل الشامل . لا مولى . لا عبد . . لكن الثورة فشلت . وصلب ابراهيم . وتحولت القصائد إلى أدلة اتهام . .

لم يكن هناك بد من السير مع مد الريح . الوفاء للموتى بلاهة . ومادام إبراهيم بن الحسن قد قطعت أوصاله فلتقطع أوصال القصائد التى كتبت من أجله . وبدلاً من أن يحث العلويين على الثأر حرض العباسين على الانتقام . أدرك أن الموالى ـ خجله القديم ـ أصبحوا قوة الدولة الجديدة . إنقلبت كل موازينه . أظهر اشمئزازاً بالغاً من نسبة العرب . وأعلن انتسابه كاملاً وواضحاً للفرس . وضع لنفسه سلسلة من الانساب الزائفة تضم ستة وعشرين جداً اسماؤهم أعجمية . .

قال الجاحظ :

ـ وكان بشار يدين بالرجعة . ويكفر جميع الأمة . ويصوب رأى ابليس فى تقديم النار على الطين . .

كان بالبصرة خمسة من أصحاب الكلام . منهم بشار . وواصل بن عطاء وآخرون . كانوا يداومون على الاجتماع والنقاش كل ليلة . يفندون حكمة السلف وفلسفات اليونان واجتهادات الفرق الاسلامية . عقول متقدة كانت تبحث بإصرار عن نوع من الخلاص الفكرى . منهم من آثر الاعتزال مثل واصل بن عطاء . . ومنهم من رجع يائساً إلى مفاهيمه البدائية الأولى . ومنهم من آمن بالمذاهب المتطرفة . وبقى بشار . حائراً مختلطاً . يحيط به ظلام كثيف لا يجد ما يضع يده عليه ويوقن به . العالم ملىء بأرواح الموتى وأنفاسهم . الأجساد تتحول إلى تراب فى المقابر . وتتشكل الأرواح فى أجساد جديدة . لم يعد هناك سبيل آخر غير الاستمساك بكل ما تتيحه هذه الحياة القصيرة من متع .

كان لبشار نظرته الخاصة للعشق . المرأة عنده لا تخرج عن دائرة الحواس . فى الظلام لا قدرة يمتلكها على التخيل . إنها مجرد انثى . وانتشر هذا المفهوم بطول البصرة وعرضها . إنه يلح ويفرد أبيات شعره الطويلة فى وصف المتع الحسية . إنه يعوض كل ما لديه من نوازع النقص .

حاول أن يصل إلى بلاط الخليفة فى بغداد . أجهد نفسه فى قصائد المديح . لكن أبا جعفر المنصور كان شحيحاً فى معاملته للشعراء . وكان يكره العميان أيضاً . وظل بشار الأيام الطويلة أمام باب القصر دون إذن بالدخول . ولم تواته الفرصة إلا حين جاء المهدى للحكم . لكنه لم يصبح أبداً أحد الشعراء المفضلين . حقاً إن بلاغته لا ترقى إليها بلاغة . لكن من الذى يقسر نفسه على الاستماع لهذا الأعمى القبيح الذى لا يكف عن البصق . . ؟ .

إنتشرت أشعاره الحسيه . حفظها الشباب وتمثلتها الفتيات . أصبحت أخباره مثلاً يحتذى . ضج المعتزلة . الأصدقاء القدامى . إشتعل الأزواج من الغيرة . . وفارت دماء الآباء . وسار الشيطان طليقاً فى شوارع البصرة . وخرج واصل بن عطاء من عزلته وقف فى المسجد يحرض الجميع :

– أما لهذا الأعمى الملحد من يقتله . أما والله لولا أن القتل ليس من سجيق لدسست إليه من يبقر بطنه .

وتناهت الأخبار . كثرت المباذل . أوغل فيها حين عرف أن المعتزلة قد أهدروا دمه . حين أصدروا الفتاوى فى زندقته والحادة ، أصدر هو فتوى فى تكفيرهم ، بل وتكفير الأمة كلها .

وتجمع الغوغاء فرجموا منزله بالأحجار . جذبوا لحيته ومزقوا ثوبه وهو يسعى فى الطريق . تعرض للقتل ولم تنجه إلا المصادفة . واستطاع واصل بن عطاء أن يستصدر أمراً بنفيه خارج البصرة .

تتشابه البلاد فى عين الأعمى . لكن للغربة مرارة حارة . كانت قدماه قد ألفتا حصى البصرة . ومنعطفاتها . . كل حى له رائحة . وكل سوق له ضجة . لكنه الآن إذ يدب بعصاه فى أرض البلاد الغريبة يشعر بمدى كثافة الظلام . . كتب القصائد . توسل للخليفة . لكن الخليفة لم يكن ليغامر بنفوذ المعتزلة وفيهم صفوة المفكرين . . من أجل شاعر واحد . ضرير . ونصف مولى . لكن واصل مات . وألحف بشار فى الرجاء حتى سمح بعودته . . شريطة ألا يقول بيتاً واحداً فى الغزل .

عاد . وعادت معه مرارة النفى . تكاثر أعداؤه . أصبحوا مدينة بأسرها . مدينة لم يرها أبداً لكنه أحس بكل جروحها فى أعماقه . أخذ يهجوهم بحرقة . فجر كل طاقته فى الإيذاء . يحرض الموالى على سادتهم . والجوارى على سيداتهن . أصبحت أبيات الشعر سهاماً مسمومة ترمى . أخذ المعتزلة يرمونه بالزندقة والالحاد . وأخذ هو يرميهم بالكذب والنفاق بعد أن باعوا العالم بلا ثمن .

تكاثرت الشكاوى أمام الخليفة من أشراف البصرة وسادتها . لقد حول الشاعر الضرير المدينة إلى جحيم . إستدعى وزيره يعقوب بن داود . أرسله بالهدايا والهبات إلى البصرة . . وأن يستقصى ما كان من خبر بشار .

إنهالت هدايا الخليفة على كل شعراء البصرة ولم يظفر بشار بشىء . كان هذا إعلاناً بسيطاً لغضبة الخليفة . لعله يبادر بالاعتذار . بالتوسل . لكن رد فعله كان مخالفاً . خرج

من بيته . سار فى الشوارع حتى حلقة يونس النحوى . أكبر مجمعات المدينة الفكرية . . سأل فى تحد :

ــ هل هنا من يخاف . . ؟

أجابوه بالنفى . إندفع فى الهجاء المقذع . يهجو الخليفة المهدى . عرش مغتصب . ونسب محاط بالفضائح . وصفات حيوانية .

وفى بغداد دخل يعقوب بن داود على الخليفة . إرتمى تحت قدميه وهو يهتف فى فزع .

ــ يا أمير المؤمنين . . إن هذا الأعمى قد هجاك .

بوغت الخليفة . . سأل بأى شىء . . قال يعقوب مهولاً :

ــ بما لا ينطق لسانى . ولا يتوهمه فكرى . والله لو خيرتنى بين إنشادى إياه وضرب عنقى لأخترت ضرب عنقى .

وإستثاره الخليفة بما فيه الكفاية . أمره . استحلفه . وأخيرا وافق بن يعقوب على أن يكتب الأبيات على رقعة . وقرأها الخليفة . بكل ما فيها من سخونة وغضب . تطاير الشرر من عينيه . لم يصدق أن يجرؤ واحد من رعاياه . . مجرد مولى . أعمى . أن يصفه بتلك الأوصاف . وصرخ فى الجند أن يستعدوا . . وليزحف الجميع إلى البصرة . .

أصبح بشار فارا وحيدا فى مصيدة ضيقة . قطع جسوره مع الجميع ولم يعد أحد بقادر على أن يمد له يد المعونة . وضع الجنود أيديهم عليه . ساقوه مكبلاً لمجلس الخليفة وشهدوا ضده :

ــ هذا الملحد يا مولاى . كان يؤذن للصلاة فى غير موعدها وهو سكران . .

وشهق بشار فى دهشة . لقد ارتكب الكثير من الذنوب . لكن من أين أتته هذه التهمة ! ساقه الخليفة لتعديه على حرمة الدين . لم يذكر السبب المباشر لغضبته صرخ :

ــ سوف نحاكم هذا الزنديق .

وقف بشار وحيداً . وأنشبت المدينة أظفارها فى جسده . تكاثرت التهم . خرج الشهود من كل فجاج البصرة . أصوات لا يعرف معظمها . كلهم رأوا خطاياه وشهدوا ذنوبه . ولم ير لهم ذنباً ولا خطيئة . والله العظيم أقول الحق ولا شىء غير الحق . شهد الأول أنه سمع بشاراً يقول عن شعره أنه يزرى بآذان الصلاة . وقال آخر سمع بشار حمير البصرة وهى تصنع ضجة يوم السوق فزعم أن القيامة قد قامت . وشهد جمع كبير من الذين كانوا يذهبون لسماع شعره أنهم اجروا اختباراً عليه . كانوا إذا حضرت الصلاة يقومون ويبقى بشار جالساً . فوضعوا حول ثوبه تراباً ليروا إن كان ينهض أم لا . . ثم عادوا

فوجدوا التراب كما هو . وتوالت الشهادات ضده .. حتى جاءت شهادة سعيد بن القعقاع .

كان رفيق بشار فى نزواته وفسقه . وقال له ذات يوم : لقد نسبنا الناس إلى الزندقة . فهل لنا فى الذهاب للحج حتى تنفى عنا ذلك . ووافقه بشار . اشتريا بعيراً ومحملاً ومتاعاً وتزودا بالطعام وبدأت رحلتهما . ظلا يجدان فى السير حتى وصلا الكوفة وانفتحت أمامهما الصحراء وكان باقياً بينهما وبين الحجاز حوالى ثلاثمائة فرسخ . وزفر بشار وهو يقول :

- ويحك يا سعد . كيف نقطع هذه المسافة . دعنا نقيم أياما فى حانات الكوفة . نسكر ونمرح ونغازل النساء حتى إذا عاد الركب انضممنا لهم عند القادسية ..

ووافقه سعد على الفور . أخذا على بعضهما المواثيق والايمانات المغلظة ألا يفشى أحدهما سر الآخر . وقبعا فى إحدى الحانات ، حتى حان موعد عودة الحجيج فأسرعا إلى أقرب حلاق ، ثم انضما للركب عند القادسية . وصلا للبصرة . لبس بشار طيلسانه وجلس فى وقار يستقبل وفود المهنئين . ويحكى عن لحظات الخشوع .

كانت كل هذه الشهادات وبالأخص آخرها كافية لأقامة الحد عليه . ودفع المهدى بالشاعر إلى حمدون صاحب الزنادقة .. وأمره :

- إضربه ضرب التلف ..

أخذوه .. قيدوه على سطح سفينة تسير بموازاة الشاطىء . حتى فى موته كان مقدراً للجميع أن يحظوا برؤيته . عروا ظهره . أخرجوا السياط المنقوعة فى الخل . وهوى السوط الأول على ظهره فإستيقظت البصرة كلها . هرعوا للشاطىء . وسارت السفينة ببطء .. هوى السوط الثانى . فزعت طيور النهر . وتجمد السمك من الرعب . تمزق لحمه من أعلى لكتف إلى أسفل الخصر . جحظت العينان . أوشكتا أن تقفزا من وجهه . هتف :

- ويلك .. أوجعتنى ..
قال حمدون وهو يمرق بالسوط : يا زنديق .. أتضرب ولا تقول باسم الله ..
تأوه فى مرارة وهو يتلقى الثالث .. والرابع ..

رأى الجميع طرف السوط وهو ينثر دمه فى الهواء . النساء اللاتى أوقف شعره من أجلهن . والفتيان الذين تمثلوا أخباره . والموالى الذين حرضهم على الحلم بالحرية . والمعتزلة الذين جلدهم هجاء .. والسياط تهوى . والخل ينفذ خلال الجروح فيكويها من الداخل . وحمدون لا يهدأ . ستون . واحدة وستون . اثنتان وستون . إحتقن الوجه الضرير . ثم تحول إلى الأصفرار .. ثم الزرقة .. سال اللعاب مختلطاً بالدم .. أخذ يهذى . ينادى أمه التى لم يرها . وأبوه العبد . وربقة الأسر التى كبلت روحه . وحمدون

كلت يداه . ثمان وستون . تسع وستون . وهتف أهل البصرة فى صوت واحد . . سبعون . . وجاء الصوت من أعلى الصارى :

– مات الشاعر الزنديق . . مات بشار بن برد .

وانتشر الخبر المفرح فى أرجاء المدينة . هنأ الأشراف بعضهم البعض . وانكسر الموالى فى صمت . إرتفعت أصوات الغناء فى القصور . وأخرجت الصدقات التى طال تأجيلها وانهالت الهدايا على حمدون . لم يبق بيت من الأشراف إلا وأرسل له كسوة وعطاء . ولم تبق إمرأة لم يثرها طرف السوط الدامى إلا وأرسلت له جاريتها . والقيت الجثة فى مكان ضحل على جانب النهر . لكن الموج حملها . سار بها إلى الشاطىء . عكس اتجاه السفينة التى جلد فوقها . وتعطف البعض على الجثة الممزقة فإنتشلوها . لفوها فى ثوب قديم وساروا إلى مقابر الصدقة . لم يشيعه أحد إلا جارية سوداء أعجمية تصيح خلفه بلهجة غير مفهومه . .

– واسيداه . . واسيداه . .

لكن مظاهر الفرح فى البصرة كانت أكبر من أن يكدر صفوها نواح تلك الجارية السوداء التى لا تفصح .



علية بنت المهدى
الحب بعيداً عن ضوء الشمس

* هل كانت عليه بنت المهدى تحب الغلام المدعو «طل» حقا ـ أم كانت تلك مجرد نزوة حمقاء . . . . ؟ . .

الحب نبات برى فى حاجة دائمة لوحل الطريق وشمس الساحات الواسعة . وكانت هى بنت الخليفة الماضى . وأخت الخليفة الحالى . وعمة الخليفة الآتى عروق متشابكة لا يجرى فيها إلا دم أزرق نبيل . بينما يتأجج دمها بالعشق . كأنها غزالة مذبوحة كانت علية بنت المهدى . فى الليل عيون الحرس . وفى الصبح آذان الخصيان . والواشون لا يكفون عن السعى بالنميمة لهارون الرشيد . .

– يا مولانا . . أختك علية تحب خادمك وحامل كأسك «طلا» .

يهدر هارون الرشيد غاضباً . ترتجف السحابات وتمطر فى اقصى الأرض . فيأتى الخليفة خراجها . كانت الخيل تدهس الورد فى شوارع بغداد . والسمك يطفو ميتاً فى الرصافة . ولم يكن الرشيد يعرف شكل هذا الغلام المدعو «طل» ، فالعبيد جميعاً متشابهون فى الملامح ويحملون نفس الأسماء . ويعمرون عدداً متساوياً من السنين . وسوف يكون من المستغرب أن تعشق علية اخته عشب الأرض وفى مقدورها أن تدهسه بقدميها ! لكن ألسنة الوشاة لم تكف . . ومن هو هذا الطل بالضبط ؟

ثم راه ذات منتصف ليلة . كان عائدا وبصحبته مسرور السياف . رأى القصر يموج بالضوء الغريب . همس لمسرور فى خوف . .

– هل شعروا بغيابنا . . ؟ . .

ضحك مسرور وهو نصف غائب . .

– إنها اختك «علية» تغنى يا مولاى . .

إنساب صوتها كحلم مصفى . ورأى الرشيد فى سماء الحديقة أقماراً ملونة لم يرها من قبل . والحراس يبتسمون خلال نومهم . وزهور الحديقة مشرئبة . متفتحة الأوراق تنتظر الشروق . اجتاز الأروقة حتى وصل إلى جناحها . والصوت يزداد لوعة وارتفاعاً . .

. . ولا خـلا مـنـك قـلـبـى ولا جـسـدى . .
كـل . بـكـلـك مـشـغـول ومـرتـهـن . .

إرتعد هارون الرشيد ، كان الهواء يحمل عشقها للمدينة النائمة . سوف تستيقظ وتفتح نوافذها . وغدا يرددون الخبر فى الأسواق والحانات . أزاح الستائر واقتحم المخدع ورأى عليه . أخته جالسة على الأرض والعود فى يدها . بينها يجلس ذلك المدعو «طل» على أريكة مرتفعة ، يرتدى ثياب السادة ويشرب من كؤوس السادة ، وفوق رأسه عمامة حريرية ضخمة . شهق فى غضب . سقط العود من يدها . خر الغلام ساجداً . تدحرجت العمامة الحريرية فاكتشف الرشيد أنها احدى عماماته . همهمت علية . . يا سيدى . يا مولاى . . كانت شاحبة مأخوذة كأنها تحتضر . أخذ الرشيد يهدر كالبركان . . هتف مشيراً للغلام الساجد . .

– يا مسرور اقتل هذا الغلام . .

. هتف مسرور : أمر مولاى . وضع يده عند خاصرته ثم هتف مرعوباً . .

– السيف يا مولاى . لقد نسيته .

إرتبك الخليفة . نظر للمرأة الباكية . والغلام الساجد والشموع المطفأة وقال فى يأس . .

– ضعه فى السجن اذن . وغدا لنا حساب اخر . .

* ولكن . لماذا احبت علية بنت المهدى الغلام المدعو «طل» . وهل أحبها هو ؟ . .
كان السجن مظلماً مليئاً بالبراغيث والقتلة والثعابين والقادة أصحاب النهاشين ومقطرى الخمور والفئران والبصاصين والسحالى وكتاب المخطوطات . وكان جسد «طل» مدهوناً بالزعفران . وعندما رقد على الحصيرة المجدولة شعر بها تدخل فى لحمه . أحاطته أنفاس السجناء بسحابة لزجة . فشعر بكراهية عميقة لعلية بنت المهدى أكثر من كراهيته للصائد الذى أسره والنخاس الذى باعه . وكان الحارس قد لكزه بعنف وهدده إذا أحدث شغباً . وقدم له طعاماً عفناً فظل جائعاً . ولاحظ الرشيد للمرة الأولى أن العبيد مختلفى الوجوه يقدمون نفس الكأس حقاً . لكن هناك إبتسامة غريبة على وجوههم لا يقدر أحد على امتلاكها . إنهم كثيرون . تزدحم بهم الزوايا والممرات والاروقة . إن لهم لغتهم الخاصة .

رغم أنهم فرس وترك وديلم وشركس إلا أنهم يتحدثون لغة واحدة . كيف يمكن النوم ومثل هذه المخلوقات تتسكع على أبواب المخادع . .

وكانت الغصة تزداد فى قلب «علية» . كلما فشلت فى رشوة حارس . وكلما أرسلت طعاماً أكله الآخرون . وشاهدت طائراً يعبر النهر ويغيب وسط المقابر فى الضفة الأخرى . توجهت إليها . رأت زهرة الصبار الوحيدة ترتعد . هتفت . .

- يا أمى . . أنا أحب .

حملت الريح الباردة الصوت إلى «مكنونة» المروانية وهى مسجاة داخل المقبرة تلوك قطعة من الصبار . مزقت الكفن ونهضت . وجلست على حافة الشاهد . قالت علية

- يا أمى . الرشيد يكرهنى وبقية آل العباس يكرهوننى حتى أخى ابراهيم حرمونى من رؤيته . و«طل» فى السجن ماذا أفعل ؟ .

القيت مكنونة قطعة الصبار وهتفت . .

- كلهم هكذا . لا يفكرون أبعد من أنوفهم . كنت جارية المهدى . ملح طعامه وقارورة عطره ــ كما يقول ــ كنت أغنى له طوال الليل حتى يستريح صدره من الحشرجة وأجلس عند قدميه أغسلهما بماء الورد عندما إقتحمت زوجته الباب كأنها عرة جائعة تقبض على شعرى وتجرجرنى على الأرض . يومها كنت حاملاً فيك . . ولم أدر كيف نجوت من شرها . . ؟

أكدت علية ببلاهة : لكن الرشيد أخى ويحبنى ؟

- والفرس أعوانه . والبرامكة وزراؤه . والترك مواليه . لكن من يأمن له . كلهم ذئاب ينامون مفتوحى العيون . .

تناولت قطعة الصبار . وقبل أن تهبط لقبرها لمست جبين علية فأحست كأنما سهم من الثلج يخترق رأسها .

فتح «طل» عينيه فى فزع . رأى وجوه السجناء الشرهة . شم أنفاسهم اللزجة وكانت أظافرهم أشبه بالمخالب الجارحة . ضحك الحارس وهو يشاهد المنظر من كوة الباب . ما أطول ليالى السجن وما أقل التسلية بها . وكان رسل شارلمان يحركون أقدامهم وأرجلهم كما تقضى أصول اللياقة فى بلاط أوربا وحاشية الخليفة غارقة فى الضحك وكان كاسحو الأوساخ يعدون عدتهم لإضراب عام . وباتت المدينة ليلتها الثانية والقاروورات تملأ الطرق . وسعى الشعراء إلى اديرة الرهبان للحصول على اصناف الخمرة الجيدة . وإنتصرت جيوش الخليفة فى احدى المدن البعيدة فى السهوب . وإنتقلت الأنباء عبر اروقة القصر : «علية» عاشقة . عودها مقطوع الأوتار . والنجوم غرقى فى النهر . إجتاز مسرور

بهو العرش حيث كان الرشيد يعبث فى لحيته وهو يتأمل حركات رسل شارلمان المضحكة . همس فى أذنه .

- يا مولاى اختكم «علية» مريضة وعلى وشك الموت .

* لماذا غضب الرشيد هكذا . . رغم أن هذا يحدث فى أحسن العائلات . . ؟ . .

كانت علية تهذى . توقف الرشيد أمام فراشها . شاهد وجهها المحتقن . ونظرة الأسف فى عيون الأطباء . شق ثوبه . ونثر عليها اللؤلؤ . وظلت تهذى . والأطباء يحاولون فتح فمها قسراً ليدخلوا فيه شراب الأعشاب . شعر بالحنق لأنها احبت خادماً . كانت غزالة مجنونة . يسرى فى عروقها دم مضطرب . لم تبالى بقصائد التشبيب ولا بإنتصارات القادة . ولا بثروة التجار . لا تكف عن الغناء والهذيان . . كان الموت رقية مطوية تحت وسادتها . ذات مرة . إختلى الرشيد بجارية رومية جديدة . وشعرت زوجته أم جعفر بنيران الغيرة الحارقة . ذهبت إلى علية وقصت عليها الأمر . ضحكت . قالت تطمئنها . .

- لا يهولنك هذا . فوالله لأردنه إليك . وقد عزمن أن أقرض شعرا وأصوغ فيه لحنا وأطرحه على جوارى . فلا تبقى عندك جارية إلا بعثتها إلى .

وعندما جاء العصر لم يشعر الرشيد إلا و «علية» قد خرجت من حجرتها . وكذا أم جعفر ومعها زهاء ألفى جارية . كلهن فى زى مختلف . وزينة . مختلفة . يغنين لحناً واحداً صنعته علية . .

منفصل عنى وما قلبى عنه بمنفصل . .
يا قاطعى اليوم لمن نويت بعد أن تصل .
نهض الرشيد طرباً . أجلسهما واحدة عن يمينه وأخرى عن يساره . وهتف

- اطلبى منى ما تشائين . .
اغرورقت عينا علية بالدموع وهتفت .

- هب لى «طلا» يا مولاى . .
زمجر الرشيد غاضباً . .

- يا مسرور اقطع رقبة علية . .
مد مسرور يده بعنف ليمسك السيف . لكنه ركع باكياً أمام الرشيد . .

- سامحنى يا مولاى . السيف قد رهنته بالأمس .

* هل غفر الرشيد حقاً لعلية وطل والبرامكة وأدار لهم خده الأيسر . . ؟ . .

بعد عشر أيام وعشرة ليالى أخرجوه . ضحكوا فى وجهه . قالوا إنها غلطة الرشيد غضب لأنه فوجىء بالأمر . أشار طل للمسجونين . كان يريد أن يصرخ فيهم :

- لقد اغتصبونى .

إستيقظت جروح الأظافر الصغيرة . سلمه الحارس للخصيان وسلمه الخصيان للجوارى . قلن . .

- ما أشد كراهية رائحتك . علينا أن نعدك لتكون جديرا بحب علية . .

خضع الرشيد . دبت الحياة فى جسد علية . تولى أحد الصناع ترميم عودها الأثير . تجول الرشيد ورأى الأوساخ فى كل مكان فأمر باعدام كل كاسحى الأوساخ . وعاد رسل شارلمان يحكون عن عظمة بغداد وسطوتها ولكن ما أغرب رائحتها . بنى جعفر البرمكى قصره العاشر . وقالت العيون إنه بناه لإستقبال العباسة . وتمتم الرشيد . اللعنة على العباسية وعلى علية . لكنه إبتسم حين زارها . . قال . . لقد بررت بوعدى . إبتسمت كأنها طفلة تلعب معه فى الحديقة ، رأى فى جبينها ندبة غريبة لم يكن قد رآها من قبل كانت تخفيها تحت عصبة من لؤلؤ . سألها عنها قالت . .

- لمستنى أمى «مكنونة» ذات مساء . خرجت من قبرها ولمستنى .

لم يكن مستعداً لتعود للهذيان مرة أخرى ففكر فى نفسه : فلأقتل البرامكة وأهدم قصورهم لعل هذا يخفف من توترى . غسلت الجوارى «طلا» بالعطر للمرة الخامسة . لكن رائحة السجن الثقيلة ظلت تشع من كل خلاياه . نهضت علية . تزينت . وخرج الرشيد فى رحلة الصيد . وإستلقى طل على الفراش الحريرى . . قالت علية . .

- لقد أحببتك دائماً يا طل . حين غبت عنى ذات مرة . خرجت من نافذة حجرتى وسرت على حافة الافريز حتى نافذتك . يومها غنيت .

من اجلك أمشى من موت إلى موت . . ؟

وكان طل يفكر فى الحبل . حبل طويل يربط ساقه مع بقية العبيد . من أقصى السهوب الباردة . حتى أسواق بغداد . كان مؤلماً . ثم تكون تحته جرح . تحول إلى قرحة ، تداخلت اليافه مع أنسجة القدم . وظل الجرح يدمى صديداً وأطراف الحبل فى داخله . أوقفه النخاس ودهن جسمه بالزيت . أصبح غلاماً . أوهمه أن هذا امتياز له لأنه لم يصبح خصياً . مثلما أوهمته علية أن حبها امتياز له .

. . قالت له :

- هل أغنى لك . هل تتمنى شيئاً . .

كانت قريبة وبعيدة . بيضاء . شاحبة . تشبه الصائد وتشبه النخاس . وتطن . . هل

تحبنى ؟ هل . . هل . . نهض نصف نهضة . تأملها قليلا فرأى فيها بغداد . رفع يده وأهوى عليها بصفعة قوية . .

* كيف تـذكـر مسـرور أخيـراً أن يحمل سيفـه ــ ومـا تـأثـير ذلـك عـلى امـور الدولة . . ؟ . .

المأساة . إنهم يطلبون منه السيف فى غير الوقت المناسب .

كان طل ينام على الحرير ويلبس الحرير . وينسج الموت مثل عنكبوت ذو وب خيوطه الحريرية حوله . كل لمسة منها طوق جديد من أطواق العبودية . لقد أذلوه ، استنزفوه ، لم يبق إلا أن يعلن موته رسمياً .

أمسكت علية العود وغنت فخرجت من النهر عشرات الضفادع . وجاء للخليفة واش ثان . وثالث . ورأى الخليفة العلامات الحمراء وقـد أصبحت زرقاء . وازداد جسـدها نحولا . أصبح الخبر بحجم القصر واتسع فأصبح بحجم الخلافـة . وأدرك مسرور أن الوقت قد حان فلم يعد يخلع سيفه أبداً . وكان الرشيد نائماً فرأى الخصيان والعبيد يتطاولون عليه . وخرجت السحالى من بيت المال الفارغ . كون العبيد من أصابعهم حلقة واحدة أخذت تضغط على عنقه . حاول أن يصرخ ، فوجىء بشخص آخر هو الذى يصرخ . كان يحلم . وكان الصراخ حقيقة فتح باب حجرته ، كان مسرور نائماً والسيف بين ذراعيه . والصرخات تتناهى من جناح علية . إستيقظ الحرس والعبيد . إقتحموا المخدع . وأزاحوا الستائر . كانت علية ملقاه على الأرض و «طل» يمسك السوط . يهوى عليها ويضحك بتشف . لم تكن تقاوم الضرب كثيراً . رآهم طل فازدادت درجة سروره . كأنما يقف على حافة الجنون .

كان الرشيد هادئا . أشار لهم فاقتادوه . ألقى السوط . سار طيعـا وهويضحـك . امتلأت الأروقة بالغلمان . كانت عيونهم تلمع بشدة . ساروا للحديقة . أسرع آخرون فأحضروا المشاعل . تحاملت «علية» ونهضت . نظرت من النافذة ، وكانت ترى شبحه والأضواء المتراقصة . والصدى يبدد ضحكاته الغريبة . والغلمان يتكومون . لم تكن هى المرة الأولى التى يشاهدون فيها إعدام احدهم . لكن الضحك يرسل داخلهم رعدة باردة . كأنما يشاركونه نصيبه فى الموت . ربطوا يده خلف ظهره . حاول مسرور أن يجلسه محنياً ليسهل مهمته . رفض وظل واقفاً . تحول الضحك إلى ما يشبه العواء . أحس الغلمان والخصيان والجوارى بوجوه النخاسين تطل من بين الأشجار . تقتحم قشرة الليل . كان الضحك يختلط بصليل الجرس وصيحات المنادى . . رسا المزاد على الموت من يدفع أكثر . . يدفع أكثر . . أكثر . . الحبل يصنع الجرح . والجرح يعبق بالعفن . وطل يواصل العواء . لم يجد مسرور بدأ من أن يمسك السيف ويطيح برأسه وهو واقف . ويبدو أن الضربة كانت قوية بعض الشىء لأن الحراس ظلوا طوال ثلاث ليال يبحثون عن الرأس فى كل أرجاء القصر والحديقة ، فلم يجدوها .

عبيـدة الطنبـورية

الغناء من أجل الفقراء

يوم سوق بغداد الكبير ضل طفل عن أبويه . سار حتى وصل إلى مكان منعزل على نهر دجلة . كان سعيداً بهذه الحرية المؤقتة . رغم أن النهر كان غائضاً والوحل يغمر الشطآن ، كانت هناك نشوة خاصة للمراكب الراسية العارية من الأشرعة ولعقود السمك وهي تنفرط وكانت طيور الماء تحلق ببطء ما بين قصور الرصافة وأوكار الصيادين الفقيرة .

لكنه توقف أمام شيء غريب . . جسد شبه عار منبطح وسط الوحل . .

إقترب وهو لا يدرى حقيقة ما يراه . عرف أنه جسد آدمى . عرف أنها امرأة ، شعرها الطويل الفاحم كان منسدلا مختلطاً بالوحل . واليد قابضة على آله خشبية مقطوعة الأوتار . لمس الجسد فوجده بارداً . لمس وترا كان مازال مشدود فأصدر رنة غريبة ، ترددت ثم دابت ، ولم يتحمل وطأة الصمت ، بكى بصوت عال .

أقبل بعض الناس . صيادون . بحارة . عابرو طريق . . أخذوا الطفل بعيدا وقلبوا الجثة وازاحوا الوحل عن الوجه الأزرق وبهامس الجميع .

- عبيدة الطنبورية . . أجل عبيدة .

جاء أحد حراس الخليفة بزيه الأسود . فرق الجميع وأمر فأحضر غطاء والقو عليها . . وأنصرف الناس وحفظ الموضوع . .

كانت هذه جثة عبيدة الطنبورية . . والآلة الخشبية المهشمة التى مازالت قابضة عليها هى الطنبور التى كانت توقع عليه انغامها . .

هدأت الحرب الأهلية فى بغداد بعض الشيء إنهزم الأمين وإستوى المأمون ذو الأصول الفارسية فوق دست الخلافة ، وتواصلت حلقة أخرى من حلقات الدولة العباسية ظل

الأغنياء فى القصور والفقراء على ارصفة الكرخ وسط أكواخ الصيادين والأوكار المشبوهة . كان المغنون يمجدون كل العصور ويدينون بالطاعة لكل الخلفاء . والأدباء يؤلفون الكتب أو يترجمونها عن اليونانية والسريانية فيعطون مقابل وزنها ذهباً . والشيعة يطرزون الرايات ويجلون أطراف الأسنة . والعلويون ينتظرون عبثاً ذلك الأمام الذى سوف يعيد الحق لنصابه . والشعراء يقولون أشعاراً جيدة فى الخمر ورديئة فى العشق . والرهبان يقطرون الخمر فى الاديرة ويبوبونها للخارج . والبحارة يعودون متعبين من الأسفار الخاسرة يحكون عن السندباد وعن جزر الزبرجد الغارقة . . وكانت عبيدة الطنبورية تغنى . .

« كـــل شـــىء ســـوى الخـيـــانـــة . .
. . فـــى الحـــب يـتـحـمـــل »

عبيدة . . نمط غريب من الشخصيات التى ترجم لها أبو الفرج الاصفهانى . تقف وحدها شاذة وسط موكب الشعراء الفحول والفرسان والأمراء . بعيدة خارج دائرة الأنساب الشريفة . وعن هالات المجد . لكنها أكثرها قرباً للحياة . .

فى «الاغانى» تتفجر النساء بنوع غريب من النشوة . والرغبات الحارة . يرتفعن فوق حاجز الاخلاقيات المتعارف عليها ليضعن أخلاقياتهن الخاصة . وأنماط حياتهن الخاصة . وأبو الفرج يدهشنا بهذا الهدوء والموضوعية التى يتسم بها وهو يورد هذه الأخبار . يقف باسماً لا يتورط فى أى حكم اخلاقى أو أى مصادرة . متسامحاً لا يعرف التزمت . . ورغم تدخله المستمر فى تراجمه عن الشعراء وانتقاده أشعارهم بقسوة .

ما سر موقفه هذا من النساء ؟ . .

ابو الفرج يصف عبيدة بأنها رائعة الجمال . حسنة الصوت . لم يعرف فى الدنيا اعظم منها فى الطنبور ويضيف إلى صفاتها الجسمانية .

- كانت تحب الرجال . كهولا كانو أم أطفالا .

مثل أرض لا ترتوى . ارتفعت وهوت وتحول الشهاب إلى قطعة من حجر وهى ما تزال عطشى . تشترك فى هذه الصفة مع بقية شخصيات «الاغانى» النسائية .

لكن عبيدة إختلفت عن الباقيات فى أنها كانت مطربة الفقراء . لم تدخل قصورا إلا فيما ندر . ولم تعرف ترف الدمقس . وماتت دون دية ودون أن يعرف قاتلها . كان أبوها أحد الموالى الفقراء . اسمه «صباح» وكان مولاه أحد تجار بغداد الأثرياء ويدعى أبو السمراء وكانت هى صبية جميلة حسنة الصوت لا تحمل من صفات أبيها إلا الفقر . . كان أحد المغنيين يتردد على أبى السمراء ينادمه ويطربه . ويأخذ عطاياه . كان «الزبيدى» وهو اسم هذا المغنى أحسن من يضرب الطنبور فى بغداد .

هذه هي العناصر الاساسية التي شكلت بدايات عبيدة .

أحد الأيام ذهب الزبيدى ليغني لأبي السمراء ويأخذ عطيته . لكن أبا السمراء كان قد خرج مع أحد القوافل إلى بلاد فارس . وبدلاً من أن يعود الزبيدى أدراجه أخذه «صباح» والد عبيده إلى البيت يقضي الليل عنده . لم يكن البيت الفقير مستعداً دائماً لاستقبال الضيوف . لكن الصبية وأمها جهزا المكان واحضرا القليل من الطعام وبدأت ليلتهم . . الأب والضيف في القاعة . والأم وعبيدة خلف الستار ، وسرعان ما غلب النعاس الأم وظلت عبيده جالسة تستمع .

كانت أصابعه إذ توقع على الطنبور تبعث داخلها رعدة غريبة . ومعه يعيد اللحن . يرق ويعلو . ما بين الآهة والزفرة وحكايات الوجد القديم . تتولد داخلها رغبة جياشة . منذ أن ولدت وهى حبيسة البيت . حبيسة المعاش الضيق . لكن الغناء جعله أكثر اتساعاً . جعله يمتد من حد البحر إلى حافة الصحراء . والطنبور عاد يوجع قلبها . والرغبة تحولت إلى إشتهاء . .

رفعت الستار . تقدمت . جلست أمامهما . ورأى الزبيدى هذا الوجه الحسن فزاد في الغناء . وزادت نجوم السماء تألقاً . بعد برهة كان الأب نائماً والزبيدى وعبيدة يغنيان سوياً . . وكلما انتهى اللحن اعاداه . .

وإنى لمجنون بليل موكل

ولست عزوفا عن هواها ولا جلدا
إذ ذكرت ليلى بكيت صبابة
لتذكارها حتى يبل البكا الخدا .

وأجهد تهيا النشوة . . ولمست أوتار الطنبور فارتجفت قلبها . . قالت :

- علمنى الغناء . . علمنى الضرب فوق الطنبور .

وعندما أفاق الأب لم يكن أمامه إلاّ أن يوافق . أدرك بغريزته أن عبيدة لو أجادت الغناء فسوف يكون هذا انقاذاً من ورطة الفقر الدائم . وطالت رحلة أبو السمراء في بلاد فارس وطاب المقام للزبيدى يعلمها فنون كل عظماء الغناء الذين سبقوه . . معبد . . وسريح ، وطويس . بدأ صوتها يتصبح مثل نار هادئة . لكن الاضطرام تواصل . . . وقبل أن يعود أبو السمراء من بلاد فارس كانت قد اجادت الطنبور تمام الاجادة .

مات الأب ورق الحال وذهب الزبيدى في صحبة أحد الأمراء وترك لها طنبوره حتى تذكره . وهل كانت تملك أن تنسى ؟ . . ولم تكن الذكرى طعاماً ولا سلوى . فخرجت

تغنى وتقنع بالسير . وكان فى خروجها إعادة جديدة لاكتشاف العالم . فى حوارى بغداد الضيقة . بين الموالى الفقراء والحرفيين وصيادى الأسماك . . كانت تأخذ أغانيهم وتعيدها على أوتار الطنبور . . وبدأت رحلتها مع أغنيات الشقاء اليومى . إذا سارت سار الجميع خلفها . إذا جلست التفوا عليها . . كانت الفتاة الصغيرة التى أغواها مطرب قد نضجت وخبرت تشابك العالم الخارجى . وكانت أمها مديرة أعمالها تدبر لها أمر الغناء فى أول الليل .

لان الزمان قد يلين قليلا ، فقد عشقت عبيدة عشقها فتى غنى يدعى «على بن الفرج الرجى» . . وسيم ، يملك ضياعاً واسعة بأطراف بغداد ، وقوافل تصل العام ما بين اليمن والمريد كانت هذه فرحتها الأولى والأخيرة أيضاً . إصطفاها لنفسه . لا تغنى إلا له . ولكنها اراد أن تلد له ولداً . . وعندما فشلت فى ذلك هجرها دون أى أسف .

تركتها أمها وتزوجت بغلام . . وأدركت هى أنها وحيدة ، وأنه لا استقرار بعد اليوم . هذه البيوت والشوارع والنهر الممتد ضربة من وتر . . وبغداد الفقراء بلا نهاية .

أحياناً كانت القصور تطلبها . نوع من تغيير الجو . ولا مانع من التغاضى عن الخجل . . كانت النساء يختبئن تقززاً بينها يبدى الرجال نوعاً من السماحة البلهاء . بل ينفلت منهم العيار فيطربون من هذه الأغانى السوقية ، حتى أبو الحسن اسحاق بن ابراهيم مغنى الخليفة وأحد عظماء المطربين فى عصره علم أنها سوف تغنى عند أحد اصدقائه فتخفى وجلس وراء ساتر كثيف وهى تغنى وتعيد . حتى زعق طرباً وتوقفت عبيدة عن الغناء وهتفت به :

– أخرج يا أبا الحسن . فأنا أعرف سرك .
فهتف وهو يسارع بالهرب ،

ــ فضحتنى فضحك الله .
لكنه عاود التخفى والاستماع مرة أخرى . .

أناسها الحقيقين كانوا فى الأزقة . معهم لم تكن تشعر بالخجل . ومعها لم يكونوا يشعرون بالخجل . يتحدثون عن شظف العيش . والمكوس . والحرب الأهلية التى تركت أرملا فى كل بيت . وكانت أوتار الطنبور تحمل العزاء للجميع . تجلس فى الحانات الرخيصة فيحدثها البحارة عن عشق السفر . والأغانى التى تسمع من وسط الصخور ولا يعرف مصدرها ، فتسحرهم وتحطم سفنهم .

عشقها الأخير كان «أبو كرب بن أبى الخطاب» . قبيحا . مشرّط الوجه . أسود اللون . غليظاً وقحا .

لكنه لم يكن سلس القيادة . كان ينقلب عليها ويظل يصفعها ويضربها حتى تقبل أطراف أصابع قدميه .

وظلت هي تعمل طوال اليوم . . تجوب كل المدينة حاملة طنبورها وترجع له بالحصيلة . . فيأخذها منها دون كلمة . . ويتركها منزوية فى أحد أركان البيت حين يعود . كانت تغنى وآثار يده ما تزال على وجهها . تبكى حرقة الوجد والأحبة وهو يشرب ويقامر بنقودها . . حتى جاء يوم فتركها ومضى . . ولم يبق لها أحد . اللهم إلاّ غلام كان يشتغل طبالاً معها .

وكان مأواها بين المطاريد على حافة النهر وعند الجسور ؛ تغنيهم وتتقى شرهم . وقد استولى بعض الأوباش على بيتها ومنعوها من العودة إليه . فلم يعد هناك بديل عن الشارع . . حتى أخذها أبو السمراء مولى أبيها القديم إلى قصره وكانت تهرف من الحمى . وظلت ساكنة . لكن النداء الذى كان ينبعث من المراكب المسافرة تناهى إليها فقفزت من النافذة ، وتخطت السور ، ووجدت الأذرع الخشنة فى انتظارها .

كان النهر يحمل لها الخلاص . . وكانت وحوله هى قبرها الأخير . . وكانت كل عطاياه . . طنبوراً وطفلاً ميتاً وعشاقاً بلا حد .



فريـــدة

الموت فوق سرير الخلافة

قالت فريدة : «يا خل» . . أحل الترك دماءنا وأعملوا السيوف فى رقابنا . . قالت فريدة : يا «خل» كيف نغنى للحب ونحن نعيش زمن الخوف . . ومضت . كانت جثة خل «ملقاة» وسط الدار . جسدها الأبيض الجميل ملطخ بالدم وأثار سيوف جنود الترك غائرة . . كانتا معاً . . غنيتا معاً وكان الجنود سكارى ، وبغداد نائمة ، والنهر متواطىء . . «خل» هى التى قالت لها : تعالى نرحل إلى بغداد . لا جدوى من الغناء فى المدن الفقيرة والقصور فى إنتظارنا . . والدم على سرير الخلافة يا خل ، وفى خاتم السلطان ، وبغداد بلد غريبة يسكنها غرباء . . وها هى السيوف أنهت الرحلة فى مطلعها . . إذا اختلف تركيان كان الضحية بغدادى . . فامنحينى المغفرة يا خل . . لم أبكيك كما يجب . . لم اقم لك عزاء ولا سلوى .

كانت فريدة تهرب من بغداد إلى بغداد . . أصبحت أسيرة الدروب الضيقة والبيوت الطينية . وتحول حلم القصور الباذخة إلى خطوات لاهثة للهرب . . وكانت خل تنام على قطرتين من البنفسج وتمسك العود وتغنى .

ألا ايها الركب النيام ويحكمُ هبوا . .
اسائلكم . . هل يقتل الرجل الحب ؟!

بل ىمتله سيوف الديلم والغربة فى مدينة واسعة . . كان الجلوس يكون ا
يستعيدون الصوت وأنس الليالى ودفء الصحراوات البعيدة . . جئنا غ
باعونا فى سوق واحد ، واشترانا نفس النخاس ، واحيينا سوياً رجلاً ،
من الهجر والمرارة . أنت تعلمين أنك لؤلؤة داخل محارة ضائعة .

النعمان ارتقب الظل . . وكان المطر كالحلم المصفى . . وكان الدم يختلط بحمرة الخدين . . وفوق القبر يرفع عسكر الديلمة البيارق .

ظلت فريدة تجرى . تلهث وتجرى . حتى وصلت إلى شاطىء النهر . . على طوله تتناثر خيام اللاجئين ؛ ضحايا كل حركات التمرد على الدولة العباسية . . السرطان يتمطى فى شراهية ؛ يأكل القرى ، ويسلب أراضى صغار الفلاحين ، ينتزع جذورهم فلا يملكون سوى الرحيل ؛ يسيرون مع النهر الذى عبروه فى الزمن القديم ، يقودهم النهر إلى بغداد ، وتعطيهم بغداد كوخاً من الصفيح والخيش ، وتعطيهم بغداد عملاً يومياً شاقاً لا يكاد يفى إلا بالقوت الضرورى . هذه آخر أيام العباسيين بعد أن شهدت أيامهم أزهى تواريخ العرب ، والدولة تحتضر ، تحتضر ببطء قاتل حتى أن العفونة دبت فى أطرافها ، وبدأت ريح السموم تدق أبواب القصور . .

جلست فريدة بينهم ؛ لم يسألها أحد من أين جاءت . . ولا إلى أين تسير . . يكفيها أنها تجمعهم وإياها قوانين اللفظ الجماعى . هدأوا من روعها وأعدوا لها فراشاً من القش فى جانب أحد الأكواخ . . ونامت بعمق حتى أنها لم تحلم بجثة «خل» ، وظلت هكذا ثلاثة أيام متواصلة . تركت عيدان القش آثاراً صفراء بجنبها . كل صباح يجلس الجميع على جانب الطريق فى صف طويل بائس ؛ محنى الرؤوس . هذا وقت مرور السادة وأصحاب الأعمال . يمرون فى نفس المكان كل يوم ليأخذوا ما يحتاجونه من عمال بناء أو حمالين أو حجامين أو منظفى فضلات البشرية ، وكل أصناف المهن الحقيرة التى تحفل بها مدينة واسعة . .

كانت تجلس فى جانب الكوخ عندما إرتمى عليها ظل حجب الشمس عنها . . رفعت رأسها وجدت أحد السادة يتطلع إليها من فوق صهوة جواده ؛ من النظرة الأولى للماسة التى تتوسط عمامته أدركت مدى ارتفاع مركزه الاجتماعى . . سألها بغلظة .

– ما اسمك ؟ . .
قالت : فريدة . .
قال بنفس الغلظة : أى مهنة تجيدين ؟ . .
قالت : لا أجيد سوى الغناء . . قال : إتبعينى .

لم تكن تملك أن تعصى . سارت خلف الجواد . عبر صفوف الاجراء وعبر الأكواخ . قالت لها «خل» : لن نبيع أنفسنا إلا بأغلى الأسعار وها هى تمضى الآن دون ثمن . وعندما وصلت أخذها خصيان القصر ووضعوها فى غرفة منعزلة . كان القصر فخماً بالغ الاتساع . ومياه الحمام معطرة . بحر من البنفسج لم تحلم به خل . وقالت لها أحدى الجوارى :

- أنت فى قصر الأمير عمر بن بانة . .

ولم يكن الأسم يعنى شيئاً غير مأوى طيب عليها أن تحرص عليه . . وعندما اعطوا لها العود ذات ليلة أدركت أنها فرصتها حتى تبعد شبح الأكواخ نهائياً . أخذت تغنى بكل ما تعلمته من حلق .

خليلى لا والله ما أملك الذى . .
قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليا .
قضاها لغيرى وابتلانى بحبها .
فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا . .

لم يتوقع عمر بن بانة ما سمعه . . هاج طربا فشق ثوبه ، والقى بنفسه فى بركة الماء التى تتوسط القصر . أخرجه العبيد واحضروا له ثياباً أخرى . . وابدعت فريدة وهى تعيد الصوت فألقى بنفسه فى بركة . . وظل هكذا ، يلقى بنفسه والعبيد يخرجونه حتى أصابه التهاب رئوى . .

ومن اللحظة أصبحت فريدة عظيته المفضلة . ومن خلاله دخلت فريدة حياة بغداد الارستقراطية . رأت الأمراء يتوافدون . وكيف يهيمون بغنائها حباً وصبابة . . سمعت قصص الجوارى اللاتى يحكمن من فوق سرير الخلافة . وإبتعدت جثة خل وأكواخ اللاجئين ، وتجسد الحلم الذى عبرت الصحراء من أجله . . ومرغ عمر بن بانه وجهه تحت أقدام المرأة التى التقطها ذات يوم عند شاطىء النهر بلا مقابل . .

فى يوم لا تنساه . إشتعلت الحياة داخل القصر . إنهمك المئات من العبيد فى العمل غسلوا كل الأركان والساحات والغرف بماء الورد ، إزدحم المطبخ بالطباخين وكل أنواع المأكولات . . غير الخدم الستائر والحشايا ووضعوا الزيت المعطر فى القناديل . . ولما سألت عن السبب قال عمر بن بانة أن عليها ألا تغادر غرفتها الليلة والا يسمع أحد صوتاً . . وبعد أن انصرف همس أحد الخصيان فى أذنها .

- الخليفة «الواثق» سوف يشرف قصر الأمير الليلة بالزيارة . .

وفهمت السر وراء اوامر المنع الصارمة . . وأشعل هذا نيران الطموح التى سمعت من أجلها . تسللت فى الليل ، ومن خلف الستار رأت الخليفة الواثق . رجل بالغ النحول والعصبية يجلس بجانب ابن بانة ويستمع باشمئزاز واضح إلى أغانى الجوارى المبتدئات . وانتهزت احدى لحظات الصمت فإرتفع صوتها رائقاً شجياً يطغى فوق الجميع ويحجب ما عداه . وانتبه الخليفة . وضع الكأس وانتبه . وامتقع عمر بن بانة وذهب لونه . . كانت فريدة أذكى مما تصور وأكثر طموحاً . . واستعاد «الواثق» الصوت مرة . . مرة . . ومرة ثالثة . . والتفت يسأل فأجابه إبن بانة وقد أدرك أن الطير قد أفلت من يده . .

فى اليوم التالى قادوها هدية للواثق . قال لها عمر . . لقد خدعتنى يا فريدة وكنت أنوى الزواج بك . وأظهرت دهشتها . كان سرير الخلافة يناديها . . يا خل . . دانت القصور فهل يدنو الزمان ؟ . . والترك يحرسون الأبواب ويقيمون العرش على أسنة الرماح وتشبب الواثق بها ونسى صفوف الجوارى اللاتى يحتلن بين قصره . . كان يقول . أنت ملكتى وحاكمتى . . فتعربى . . لكنها تعلمت درساً آخر . . إنها تحكم من لا يحكم . . ووجوه الديلم والفرس تطل فوق الأسوار

لكنها أحبت الواثق . . أحبت حتى إحساسات القهر الخفية التى كان يعانيها تحت أبهة الخلافة . . أحبت نفوره من الترك وكرهت حاجته إليهم . . لكن سرير الخلافة كان فراشها . . والمزيد من الطموح لا يعنى سبب الجنون . ورأت ابن بانه فى مجلس الخليفة ناحلاً . . ممصوصاً . . فتذكرت أول ما غنت من أبيات وأول ما علمتها خل . .

- ألا أيها الركب النوام ويحكمُ هبوا . .
اسائلكم . . هل يقتل الرجل الحب . . ؟ !

وعندما حملتها إحدى السفن الضخمة هى والخليفة فى احدى نزهاتها فوق دجلة والعبيد يقومون بالتجديف والجوارى ينثرن الزهر حول السفينة . . رأت على الضفة خيام الفقراء المتلاصقة وأكواخهم الصفيحية . . رأت النيران التى يشعلونها لطهو طعامهم الفقراء . . سألت البحارة أن يسرعوا . . لكن صف الأكواخ ظل يلاحق النهر . . هتف :

- إنهم يتكاثرون . ؟
قال الخليفة وهو سكران : من ؟ . . أشارت إلى الظلال التى تتحرك على الشاطىء . وتتجمع لترى السفينة . . قال الخليفة : هؤلاء ناسى وشعبى . خير أمة . وأحست بفراش القش وهو يغز جنبها . . تماماً . . مثلما عملوا السيوف فى عنق خل . . ركعت أمامه . . قالت :

- يا مولاى . . هؤلاء الفقراء حول النهر ، والديلم فى القصور . يجب أن تجد حلاً . . ؟ .
هتف فى فزع :

- الفقراء . . الديلم . . ماذا أفعل ؟ . .

ومات الواثق بطريقة غامضة . . مثل بقية الميتات التى ماتها آخر الخلفاء من بنى العباس إنفض الحداد فى سرعة مريبة ، وارتجلت مراسيم البيعة ، ونصب المتوكل خليفة ، واستوت جثته الضخمة على سريراً لخلافة ، واقتحم الترك القصر والمدينة وفرضوا شروطهم النهائية . يصبح الخليفة إسماً . تحدد إقامته ويحدد راتبه . وهبطت الرايات السوداء إلى

الأبد . وارتفعت الرايات الفارسية كان الثوار يثورون والقرامطة يطالبون بحق أفضل فى الحاكم والديالمه يقتطعون من جسد الدولة . وصفق المتوكل بيده وهو يصيح : إحضرو الجوارى والمغنيات . . هذه أيام الأنس .

قالت فريدة : لن أغنى . . أمر الخليفة العبيد أن يقفوا على رأسها ويضربونها حتى تغنى كان الضرب قاسياً فغنت عن الموت . . موت خل . . وموت الواثق . . إهتزت جثة المتوكل الضخمة وأمرهم أن يضعوها فى السجن ، فعششت العناكب فى شعرها السرح الجميل . رأت فى السجن رفاق الأكواخ وأحست بفراش القش يخزها ويترك نمس العلامات .

وأحضرها الخليفة لتغنى . . لتشاركه الفراش . وقف الحراس يبيتون الحو كان الفراش هو ميدان الخليفة الأخير . . وكان جسد فريدة هو آخر الانتصارات . لكن اقدام الحرس تجوس فوق صدرها . فى أى لحظة سوف يدخلون شاهرى السيوف . كم طعنة تقود للموت وكم طعنة بعدها لا تحس بالألم . . ؟ وهتف الخليفة . . غنى عن الحب والوحد يا فريدة . وأمر العبيد أن يواصلوا الضرب على رأسها . وكانت صفوف الفقراء واللاجئين تنام فوق بلاطات القصور وفى أحواض النافورات الجارية ، فيهرع الخصيان بالعصى ويشهر الجنود السيوف ويمضى النهر كالشاهد الأخرس . صرخت فى جسد الخليفة الملقى على السرير . .

- سوف يقتلونك . . سوف يقتلوننا جميعا . .
ضحك الخليفة فى بلاهة . .

- الترك اصدقائى . . والفقراء اعدائى . . من الذى يعطينى راتبى إذا عاديت الديالمة .

وسمعت الآذان المنبثة فى كل مكان فى القصر ما تقوله فريدة . . وتلمظت السيوف ، تحول القصر إلى شرك . . وسرير الخلافة إلى مقبره . . قال الخليفة : غنى . . لكن أوتار العود كانت تلتف حول عنقها . . فى أى القبور المجهولة دفنت خل . . وفى أى القبور سوف ندفن فريدة . . يا أيها الزمن تمهل قليلاً . . .

قالت فريدة : يا خل . . احل الترك دمانا واعملوا السيوف فى رقابنا . .
قالت فريدة : يا خل . . كيف نغنى للحب ونحن نعيش فى زمن الخوف !!



ثم غنت عريب

« ألصق خلخالى بقرطى »

● حدثتنى بغداد عنها . .

عندما غنت غسلت النجوم نفسها فى النهر ، وتركته مفضضاً ناعماً كأحلام الأطفال . . تفتح الزنبق فى قصر الشتاء وتفتح السوسن فى قصر الصيف . وسارت «عريب» وحيدة . الحزن دائماً مفرد الخطى ، فأى مدينة تسع الحياة التى تضطرم داخلها ؟ . وأنا مدينة الزمن القديم . شوارعى تقود إلى دجلة . . ودجلة يصب فى الخليج . . والخليج أين يصب ؟ . . السمك يرتعد من المطاردة . والقصور تقتنص شمس الفقراء . والبيوت والحارات والأسواق والخانات تمور بالحياة . تقول بيوت النصارى فى الأطراف : كبرت الطفلة الآن ومضت أيام الخوف . وقالت المقابر على الجانب الشرقى من النهر : لم نعد نصلح مأوى للمطاردين . المخبرون لم يدعوا مكاناً آمناً . وقالت أسواق النخاسة : كسدت تجارة بيع الجوارى بعد أن اشترى المأمون «عريباً» . وقالت ساحة الخيل . كانت تهوى ركوب الخيل دون سرج . قال صانعو الاوتار : ومن الذى صنع أوتار صوتها ؟ . . وقال مقطرو النبيذ : أصابت بضاعتنا بالكساد لأن صوتها يسكر دون خمرة . وقالت امرأة نصرانية : أنا الوحيدة التى أعرف سرها . ولدت «عريب» إبنة غير شرعية لجعفر إبن يحيى البرمكى من جارية له . وعندما أدار الزمان ظهره وانقلب الرشيد على البرامكة قتلاً وتشريداً ، دفعت الأم بـ «عريب» إلىّ حتى أخفيها وسط منازل النصارى ، ولما هددنى جيرانى بالابلاغ عنى ذهبت بها للمقابر . ثم بعتها للنخاس «سنبس» بعشرين ديناراً . قال سنبس النخاس جازماً . هذا الكلام كاذب وليست لى أى علاقة بالسياسة . وقالت بيوت الفقراء : ما أسرع ما ينفد زيت المصابيح ولا يبقى سوى السناج . وقالت جواريها : كنا ننتظر يوم حمامها ، عندما تفك جدائل شعرها الطويل وتغسلها ، لم تكن تفعل ذلك إلا من الجمعة للجمعة ، وطوال أيام الاسبوع تغلفه بستين مثقالاً من المسك والعنبر فإذا غسلته اعادته وكنا نقتسم غسالة رأسها بالقوارير وما تسرحه منه بالميزان . وقال ابو الفرج . دعونى أعرف موقف الخلفاء منها لأحدد

موقفى . . وأدلت إحدى الجوارى بشهادتها : كانت «عريب» تقول ما فائدة أيام تخلو من الهجر والوصال . قالت الأرصفة : كان الشحاذون يتوسلون بإسمها . وقالت طيور الماء : كنا نرى جسدها وهى تستحم فتتلقفنا شباك الصيد . . وولى نهار . وجاء ليل وارتعد النهر . وسكن الناس . وضربت «عريب» على أوتار عودها وغنت . . بغداد . . يا بغداد . . يا مدينة الصبابة والدم المباح .

* وحدثنى عنها سرير الخلافة . .

كنت مجرد هدية من ملك الروم . لا أعرف من صنعنى ولا من امتلكنى . . لكنى عرفت جيداً «عريب» وعطرها إذ تلمسنى . توالى على خلفاء كثيرون ، شاهدت ليالى متعهم ، وتشربت دماء من ذبح منهم فوقى ، وأصابتنى كآبة دائمة . لكن «عريب» كانت تعطينى الكثير من دفئها . . كنت الحلم الدائم لكل المتسلقين والمغامرين من ترك وديلم وسلاجقة وتتار . . وعندما سكنت فى زاوية الذكريات الحزينة كانت معى ذكرى «عريب» . .

عريب . . عريب . . على أى سرير ترقدين ؟

قتل الرشيد أهلها ، وإستولى الأمين عليها من صاحبها المأمون ، وملكت عليه قلبه ، وعشقت المعتز وإستمتعت بلياليها معه . وكرهها المعتصم وبادلته الكراهية . . واشمأزت من الواثق . . واكتشف المتوكل أنها قد أصبحت عجوزاً . .

سبعة خلفاء توالوا . ودائما ينتابنى الأحساس بأنها لا تشعر بالأمان . يضنيها وسط أغطية الحرير شعور حاد بالغربة . وعندما يهجع كل الناس عند منتصف الليل تظل هى مسهرة . ووسائدى تشرب دمعها الليلى وكآبتها الصباحية . وكنت أشعر بالحنق عليها . . هذه المرأة الغريبة ، إذا لم تكن تحس بالسعادة وهى تملك كل هذا الجاه فمتى تسعد ؟ . . ثم أشفق عليها ، أى هم تحمله لا يجعلها تحس بالسعادة وثروات الدنيا تحت قدميها ؟

قالت للأمين بسخرية : تذكر إننى لست أختك . وقالت للمأمون : لقد ملكتنى بعض الوقت لكنك لم تملك قلبى لحظة واحدة . وقالت للمعتز : إننى احبك فقط لأنك تذكرنى بأحد عشاقى القدامى . وقالت للمعتصم : لماذا نعذب نفسينا . وقالت للواثق : لا أدرى من أين تنبعث هذه الرائحة الكريهة ؟ وقالت للمتوكل : ترو قليلاً يا مولاى فالتهابات المفاصل تؤلمنى . .

عريب . . عريب . . على أى سرير ترقدين ؟ . .

* وحدثنى عنها سيدها المراكبى . .

وسدت رأسى الأشيب على صدرها وحلمت أننى أبحر مع ريح مواتية . واستيقظت . قالوا هربت «عريب» . ففكرت متأسياً : من يمسك السحاب ؟ . أنا سيدها والمجنون

بها . لم يعد الموت فى المعشوق مألوفاً فى هذا الزمن . لكننى وقفت أمام الخليفة المأمون . قال لى : قد اشتريت جاريتك «عريب» بخمسة آلاف دينار وسأوليك عملاً تكسب فيه أضعافاً . . ورمى إلى بخاتمين من الياقوت الأحمر . فقلت : يا سيدى إنما ينتفع الأحياء بمثل هذا . أما أنا فميت لا محالة . لأن هذه الجارية كانت حياتى . وخرجت من حوزتى فاختلط عقلى ومت فى اليوم الأربعين .

قادها «سنبس» النخاس وهى طفلة . قالت «يا سيدى» للمرة الأولى فرأيت وميض عينيها . كنت الموكل بمراكب الرشيد . تحت إمرتى عشرات القوارب والسفن والذهبيات والملاحين والجنود . كان الجميع يعرفوننى سيداً وجيهاً . لكنها مذ قالت يا سيدى أصبحت عبداً لها . وعندما ظهر ابن حامد فى حياتنا هجرتنى دون أسف . وانتظرتها بلا ضغينة . وعادت مشعثة الشعر . ممزقة الثياب . لكن كل خلجة من خلجاتها تنبض بالسعادة وأدركت أن قدرى أن أدع القفص مفتوحاً حتى يشعر طائرى السيد بالأمان . يهجرنى ويعود . . لو أننى أحكمت قبضتى لطار دون عودة .

وظهر ابن حامد . ريح عاصف أطاح بمجلس طربى . وحطم كاساتى وأسال خمرتى . وخطف «عريب» . كان يجلس متوفزاً يسلط عليها عينيه القاسيتين . . فتصمت وتشرد حتى أحس بالذنب . وعندما تلطم الريح نوافذى فى الليل أعرف أنها قد مضت إليه ؛ كالحيوان البرى يحن لقبضة الصياد . ومع ابن حامد لم تعد . . مضى الليل وغارت النجوم وظللت أوقد الشموع وأنتظرها مثل امرأة مهجورة . سقطت صريع الحمى وسط شماتة زوجتى وسخرية إبنى . وجاء الخلان تحمل كلماتهم نبرات العزاء ولم تعد . لم تعد . ذهبت أستجير بالخليفة الأمين : يا مولاى ابن حامد أخذ جاريتى . حياتى . أنا صاحب مراكبك . . ومراكب أبيك من قبلك . واستجاب الأمين . ذهبت الشرطة وأحضرتها سوياً . . تطلع الأمين إليها متمعناً . . سألها : لماذا تركت سيدك ؟ . . أشارت لابن حامد . . قالت : هذا هو سيدى . . وجعلتنى أتضاءل وسط ابتسامات الحاشية الشامتة والأمين يلتهمها بعينيه ويقول : دعوها عندى اذن حتى يحل القضاء مشكلة ملكيتها وفتحنا نحن الثلاثة ــ عريب وابن حامد وأنا ــ أفواهنا من الدهشة . لقد وضع الخليفة يده عليها وأصبحت مشكلتى مضاعفة . وانصرفنا ــ أنا وابن حامد ــ كل منا يمقت الآخر ويسوق إليه العزاء . ظللت أتردد على القصر حتى أرى طريقاً أستعيد به جاريتى . لكنها الحرب اللعينة تدق أبواب القصور . وجنود الفرس يتخطون النهر . ينزلون رايات الأمين ويرفعون رايات المأمون . لكنها الحرب أحرقت سفنى وضيعت جاريتى وحولتنى إلى غراب عجوز انتظر سقوط الرمم . وما أن جاءت الأنباء أن الأمين قد قتل وأن بغداد أصبحت سبية لسيف المأمون ، حتى هجمت على القصر وأخذت «عريبى» . . سلبت حقى وسرقت عشقى الوحيد . . وعدت إلى بيتى فرأيت زوجتى واجمة وابنى قد خرس عن الشعر الردىء ، لكن قلبى كان ينتفض فرحاً . . ولم يطل مجلس طربى . . استوى المأمون على العرش . . وطار الطائر هذه المرة . . دون عودة .

* وحدثني عنها قاضي قضاه بغداد . .

اللهم إحفظ أمة الاسلام . القضية واضحة والأدلة بينة . والحكم معد سلفاً . قاضي مثلى . في زمن مضطرب مثل زمنى . في مدينة غريبة كمدينتى . عليه أن يكون حريصاً . يمشى على الصراط ولا يقطعه . يحكم من خلال وجوه المتقاضين وثيابهم ومراكزهم الاجتماعية لا من خلال الادلة التى كثيراً ما تكون مضللة . إن الميزان يميل والقاضي مستو على مقعده . . وأنا قاضى القضاة . ظل الخليفة . والقضية كما قلت واضحة .

المغنية «عريب» هربت من سيدها المراكبى . ليست هذه هى المرة الأولى التى تهرب فيها ، وليس هو العاشق الوحيد الذى تهرب إليه فاللهم . . احفظ أمة الاسلام . ويقولون أن فى موقف سيدها بعض الرضى على هذا الوضع الذى لا يرضى أحداً . يقولون إنه مرض مرضاً شديداً . وعندما أفاق ظل يبحث عنها ثم استغاث بالمأمون . «ملحوظة» . استغاث قبل ذلك بالأمين . وكان المأمون يحمل له ذكرى طيبة من أيام مولانا الرشيد فأمر الشرطة بالقاء القبض على ابن حامد . وسأله عنها فإنكر معرفته بها . فقال له : كذبت . وأمر صاحب الشرطة أن يجرده ويضع السياط عليه حتى يردها . وما أن بدأت عملية الجلد حتى فوجىء الجميع «بعريب» . وهى قادمة على حمار مكار مكشوفة الوجه . عالية الصوت : أنا «عريب» . ان كنت مملوكة فليبعنى وإن كنت حرة فلا سبيل له على . وهكذا رفع خبرها للمأمون فبعث إلى برسالة . يطلب منى اقامة العدل فى أمرها . وكانت الرسالة غريبة . والحاجب الذى حملها أغرب . هنا يأتى دور ذكائى ومعرفتى بتقلبات زمنى . قبلت الرسالة فإبتسم الحاجب . قلت : القضية واضحة . قال : كذلك نظر . قلت : هل رأى المأمون الجارية . قال : ومن أجل هذا عهد إليك بالقضية . إبتسمت . قلت . اطمئن .

وعندما مثلوا أمامى . تأملت الجارية فبهرنى جمالها . وأخذت أسأل عن كل التفاصيل . وأحاصر المراكبى بأسئلتى الذكية حتى إرتبك وأخذ يتحدث عن سطوته أيام الرشيد . وعن «سنبس» النخاس . ويستشهد بأصدقائه . وأنا ابتسم فى برود . ثم فاجأته بالسؤال : هل تملك البينة على ملكيتك لعريب ؟ . قال مدهوشاً : ماذا . . ؟ قلت : البينة . الدليل . الآ تملك دليلاً على ملكيتك للجارية ؟ قال : أنت تطالبنى بما لم يطالب به أحد فى رقيق ولا يوجد مثله فى يد من ابتاع عبداً أو جارية : قلت : لأنه لا يوجد أحد ينازع من يملك رقيقاً مثلك . وأفحمه جوابى فعاود الهذيان : هذه ملكى سأشكو للمأمون . سأتظلم . وصدر حكمى قاطعاً : إنها ليست ملكه وهى حق لمن يشتريها . إبتسم ابن حامد . لكن ابتسامتى كانت أوسع واضفت للحكم حاشية أخرى تقول . . ولا تجوز ملكيتها للمتنازعين عليها !

واشترى الخليفة «عريبا» . ولم يرض قلبه الرحيم فأجذل العطاء للمراكبى . بعث إلى

بإناء خسرواني عجيب الشكل لازلت احتفظ به في صدر مجلس الحكم وكلما سألني أحد عن قصته . . اكتفي بالابتسامة .

* وحدثني عنها عاشقها . .

وداعاً يا أميرى . أنا ذاهب للحرب . علت صيحات القتال ومضى زمن الحب . أعلم أن هذه غزواتي الأخيرة . ترى هل ستذكرنى «عريب» ؟ أم سوف تنشغل بمجالس الأمراء والعشاق الجدد . قلت لها : دعينا نتزوج . دعيني أشتريك . همست وهي تقبلنى : لا أريدك زوجاً طائعاً ولا سيداً شرها . أريدك فقط عاشقا لي . كان لها منطقها الخاص وكنا نعيش على حافة الخطر . تضرب هي بالمقارع وأجلد أنا بالسياط . وكانت لا تكف عن القول : لولا مرارة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل . قلت . دعينا نرحل لبلاد أخرى . قالت : أنت فقط تحلم بامتلاكي . وذهبت أنا إلى الغزو . وحبست هي في كنيف مظلم ، وكان الجنون يبلغ بنا مداه فنخرج سوياً للنهر تحت أعين طيور الماء والنخل واعوان المراكبي .

وعندما وضع المأمون يده عليها وضمها لحريمه ظلت طبيعتها الحرون كما هي . تفلت من برودة الأروقة . . وتحت وطأة الرعب كانت تأتي إلى . . لقد بدأت اقتنع بمنطقها . ذات ليلة ممطرة كانت تركب جوادها عائدة من عندي ، أحست بمن يركب جواده بجانبها . وعندما أضاء البرق وجهيهما رأت «حمدون »أحد أعوان المأمون قال : يا عريب» من أين اقبلت في هذا الوقت من الليل ؟ . . قالت : من عند محمد بن حامد . قال : وما صنعت عنده . ؟ . ردت «عريب» بسخريتها التي اعرفها جيداً : يا أبلة . «عريب» تجيء من عند ابن حامد في هذا الوقت . خارجة من قصر الخليفة وراجعة إليه . تقول لها أي شيء عملت عنده ؟ . يا أحمق تعاتبنا . وتحادثنا . . واصطلحنا . . وشربنا . . وغنينا . . وانصرفنا . وانصرف حمدون خجلاً .

وفي الصباح قصت على هذا الحوار وهي تضحك . تجمدت رعبا أمام ضحكاتها . . أي جنون أن نضع أنفسنا تحت أنياب الذئب . كنت أعرف أن المأمون مدله بها . منذ أن أصدر القاضي حكمه الغريب . ومنذ أن كف عن كل جواريه وتفرغ لها . وكنت أعرف أن لسان حمدون يصب في أذن الخليفة . وأن السياط التي تحملتها قديماً من أجلها قد تحولت إلى سيوف قاطعة . لكن دفقة العاطفة التي تغمرني بها ، وشهوة الحياة التي لا تحد ، كانت تغرقني في بحر لا نهائي . يصبح الخليفة وهما . . والعالم وهماً . .

وصل الأمر انني اكتسبت جنونها . ذهبت لمجلس المأمون وجلست وسط ندمائه في مجلس الطرب . . كنت أحاول إستشفاف مدى التهديد في نبراته . جلست «عريب» وسط جواريها كالقمر المفرد . نسيت مبادىء الحذر . ظللت أتطلع إليها . كم تبدو مثيرة وهي بعيدة وبيننا يجلس أسد كاسر على عرش من ذهب . غنت الجواري وهي صامتة . وعندما

تقابل وجهانا رأيت تألق عينيها الذى أعشقه . لم أتمالك فأومأت إليها بقبلة خاطفة . أحسست بها تتلقاها . كأنما شفتى على وجهها . . أخذت العود وغنت . . تخلط الوصل بالهجر . . ولا يدخل فى الصلح بيننا أحد . غنت بكل أعماقها وتحول المجلس إلى حلم ملون كأننا وحيدان . لم أفق إلا والخليفة يصيح . .

- كفى يا «عريب» . . اصمتى . .
وخيم الصمت . . رأيت نظراته الغضبى تكاد تقتلعنى كالعاصفة . .

- من فيكم أومأ لعريب بقبلة . . ؟ . .

عرفت أنه رآنى . . أو على الأقل فهم من طريقتها فى الغناء . . أصابنى الوجل فظللت قاعداً . . كرر . .

- من فيكم أومأ لعريب بقبلة . . والله لئن لم يصدقنى لأضربن عنقه . .
لم يكن ثمة مفر . كانت أنظاره تحاصرنى من دون أهل المجلس . نهضت . قلت . .

- أنا يا أمير المؤمنين أومأت إليها . . والعفو أقرب للتقوى . .
قال من بين أسنانه : قد عفوت . !

لكنه أسرها وانفض المجلس . ولم أر «عريبا» من يومها . كأنه قتلنى حيا . وجاء إلىّ الأمر بالخروج للغزو على حدود السند . إنتقم الخليفة بطريقته الخاصة وحملنى ذنب الحرب البعيدة القاسية . أنا ذاهب يا أميرى . لا يجدى الحب والسيوف مسلطة على أعناقنا . وسوف أموت . وتنسانى «عريب» . . ولكن هل ستمتلكها حقاً . . ؟ . .

* أخيراً حدثتنى «عريب» عن نفسها . .
لماذا يحلمون دائماً بإمتلاكى ؟ ان احداً لا يحلم بإمتلاك الشمس ولا النهر ولا السحب إن ناراً تتوهج داخل كالشمس . وعواطفى تضطرم كالموج ، وشطحات عشقى كأنها أسفار السحب . فلماذا يحلم الجميع بامتلاكى ؟ . . سنبس والمراكبى والأمين . . والمعتز والمعتصم والواثق والمتوكل والعشاق العابرون ، وحتى الشعراء الذين كنت أذوب وأنا أغنى أشعارهم . .

ولأن الخليفة المأمون لا يستطيع حبس الشمس فقد حبسنى فى كنيف مظلم . وانا ارتدى جبة من الصوف الخشن . ولا أذوق إلا الخبز والملح والماء . كل ذلك حتى أنسى ابن حامد . . لم أكن أحبه لهذه الدرجة . لكن تصرف المأمون الأحمق جعلنى أتخيل انى أموت صبابة فيه . . وعندما أفرج عنى وقفت أمامه وغنيت . . «حجبوه عن بصرى فمثل لى شخصه فى القلب» . . وتركته يتميز غضباً . . حتى ابن حامد وضع أمامى قيد الزواج

. . . وليته ما فعل . . وانحنى المأمون وقبل قدمي فقلت : مثل اليهودي يقبل كيس
. . . دعمت فيّ خمسة أكياس . وقفزت من النافذة ، ذهبت لابن حامد فلم أجده .
. . . أعرب رجل قابلته . وسألني في الصباح عن أسمي فقلت شهر راد . ومات
. . . كنت الجارية الوحيدة التي بيعت في ميراثه وإشتراني المعتصم مائة ألف درهم
. . . فأعطيته قلبي ليلة واحدة وهجرته حتى لا أكون أسيرة فتنته . إن الحب لا يمتلك
. . . الحب لا تباع . وكنت أهتف باسم حامد . «اجعل سراويلي مخنقي وألصق خلخالي
. . . على» ولقد نححت في أن أجعله يعشقني كما أريد . وفشلت مع آخرين . ومات على
. . . السند . وأحببت عيسى بن الرشيد . كان مغنياً ماشياً يتلوث . وعندما كنت في أحد
. . . س الطرب سألوني عن أي حليمه فضلته فقلت : عاشرت سبعة ما عشقت إلا المعتز فإنه
. . . عيسى بن الرشيد . سألوني إن كانت لدى قدرة على العشق فقلت في أسى .

– أما القدرة فحالها . لكن الشباب ولى .

النيران المستعرة في داخلنا تحرقنا أسرع . ولا يبقى سوى رماد الشيخوخة . لكننا توهج ويلسع وهجنا الآخرين . ويذكرنا الناس كما يذكرون الشهب . نضيء فجأة . ونحترق فجأة . ولا يعرف أحد أين مثوانا ؟ . .

لقد ظللت أعشق حتى النهاية . وعندما حاول المتوكل امتلاكي وقع في نفسي خطأ الاخرين . إنتقمت منه . عشقت خادمه صالح المنذري . دخلت عليّ احدى جواري المتوكل ، صعقت الخادمة وأنا أصحك كما صعق حمدون خادم المأمون من قبل . ونقلت الكلام للمتوكل فأبعد الخادم ، وحسب إنني استسلمت . وقفت بين يديه وغنيت . .

أما الحبيب فقد مضى . . بالرغم مني لا الرضا . طرب . وأخذ يستعيد الصوت والجواري يكتمن الضحك الشامت فيه . .

* حدثني حارس باب الخليفة

كنت واقفاً على باب الخليفة . منتصباً . يدي على مقبض السيف كما يليق بحارس رفيع القدر ، ومجلس الخليفة منعقد . كانوا منتشين وكنت اليقظان الوحيد . جلوساً على الأرض كالحيوانات الرخوة . يتحدثون عن الغناء . . واختلفوا حول أحد الأصوات : إلى من ينتسب الشعر . . هاتوا «عريباً» نسألها . !!

إنني أكره هذه المرأة . مجيئها كفيل بأن يمد السهرة حتى الصباح . وأنا منتصب أعاني من آلام التقلص . أكره طريقتها المائعة في الغناء . وأكرههم عندما يستعيدون اللحن عشرات المرات . أكاد أختنق .

عاد الخادم ليقول ان «عريباً» تعاني من الحمى . هتف الخليفة . لا حمى ولا أعذار . وهلل الندامى مطالبين بمجيئها . وبعد برهة جاءت تستند إلى خادمين والحمى تكسو وجهها

بالحمرة القانية . وصوت أنفاسها يتردد بصعوبة . كنت الوحيد فى القاعة الذى أدرك حالتها . أما هم فقد انهالوا عليها بالأسئلة وهم يتصايحون . . سألها مولانا فأجابت بكل ما تعلم . أمور لا أدعى أننى أعلم فيها كثيراً . صاح الخليفة . .

- غنى الصوت أذن . .

قالت فى صوت متوسل : مولاى . . أننى تعبة .

صرخ فى عصبية : غنى . . قالت مستسلمة : آتنى بالعود .

صرخ : غنيه دون عود . .

تركت الخادمين واعتمدت على الحائط . وللمرة الأولى لم استطع الوقوف منتصبا ؛ إرتخت عضلاتى وأحسست بالأسى تجاه هذه المرأة المحمومة . فكرت إنها لن تطيل الغناء وسرعان ما ينفض المجلس وأعود إلى بيتى . بدأت الغناء . والحمى تزداد والأنفاس تتثاقل . كانوا يهللون ويصيحون . فكرت : سوف تسقط هذه المرأة حالاً . أكرهها . لكنها لم تسقط . واصلت الغناء . وعندما إستعادوا الصوت اعادته . وخفت حمرة الحمى . وإنساب الصوت كأنفاس الليل وكالنجوم البعيدة فى نوبات الحراسة . ينطلق ويكتسح آثار الحمى وآثار الجنون . يضج بحياة جديدة كأنها تولد فى هذه اللحظة . هذه المرأة العجوز كيف أصبح صوتها بهذا الشباب . . إنها تغنى لى أنا فقط . أنا الوحيد الذى يعى هذا . .

لمحت ظلا أسود يسير على الحائط الذى تعتمد عليه بيدها . عقرب يسير نحو أصابعها . فكرت أن اترك مكانى وأجرى إليها . . لكن الخليفة قد يظن إننى أنوى إغتياله . لكن يجب أن أفعل شيئاً . و . . لدغها العقرب . . لم يبد عليها أنها احست ايما إحساس . ظلت تغنى وتجلو نبراتها وأنا مذهول . لدغها للمرة الثانية ، لم تتحرك . . أخذت تعيد الصوت كأروع ما يكون . والصمت يعم المجلس . هل شاهدوا العقرب مثلى . . أم أن تلك النبرات التى يبدو إنها ليست من عالمنا قد أسرتهم . وانصرف العقرب عائداً إلى أعلى الجدار كما جاء . وإنتهت الأغنية . . وكلهم صامتون ومولانا نائم . . ورفعت يدها إلى رأسها ببطء تمسح جبهتها من العرق . . ثم سقطت على الأرض دون أن يتحرك أحد .



فضل العبدية

الحب صفقة خاسرة

إذا أردت أن تبيع نفسك ، فليكن الثمن غاليا . كانت فضل تحلم ، قطرة من العطر باغتتها الشمس . رفعت الستر ، فرأت الخليفة ، وأخواتها الخمسة ، وسعيد بن حميد ، والنخاس الذى إشتراها . . وعصافير بغداد ميتة على الأرصفة . وكان عليها أن تعقد الصفقة . . وأن تدفع الثمن أيضاً . . لحظتها قال لها الخليفة . .

- أليس لك مطلب آخر . . ؟ . .
أومأت برأسها . . وأصل السؤال .

- وبعد ذلك . . ؟ . .
ترددت قليلاً . غاصت الكلمات فى حلقها كنصل سكين . . ثم قالت . .

- أسلم لك نفسى . . دون قيد . . أو شرط .

فضل العبدية مازالت تحلم . والخناجر تسابق حلمها . . عندما لم تكن «عبدية» ، وأخوتها الخمسة يعبرون بها الصحراء . . رحيل ، وأختطاف ، وقمر جائع يأكل من الرمل ، ونفس ممزقة . تنام الليل فى القيد ، وتصحو محاصرة بعيونهم العشرة ، وأظافرهم المتسخة تنغرس فى لحمها . . كل واحد منهم يشبه الآخر تمام الشبه . . وهى لا تشبه أحداً . . كانت أمها تموت فى خيمة منزوية . . والنجوم تتساقط . . وسألتها فضل . .

- يا أمى . . لماذا يكرهنى أخوتى لهذه الدرجة . . ؟ . .
- كنت جارية غريبة . أعتقنى أبوك لحظة ولادتك . . وهؤلاء إخوتك من زوجة أخرى لم تكف لحظة واحدة عن كراهيتى . .
مع كل ذكرى . وكل لحظة . واجهتها هذه الكراهية . كانوا أكبر منها . وأكثر

سلطة .. وماتت أمها جوعا فرفضوا أن يدفنوها بجوار روحها . ورأت الأم الأخرى وسط أولادها الخمسة تهيل الرمل على القبر . وحين رأتها تبكى صاحت فى سخرية . .

- أترتدين ثوب الحداد وأنت بهذه الجدائل الطويلة . . ؟ . .

وهجم الخمسة مثل قطيع من الذئاب . ألقوها على الأرض وجذوا جدائلها بخناجرهم أطلقوا صيحات الانتصار وهم يسلمونها إلى أمهم التى تأملتها قليلاً . ثم ألقتها إلى القبر . . وأهالت فوقها الرمال

كانت فى العاشرة من عمرها . بلا صدر ولا جدائل قالوا لها . سوف ترحلين معنا إلى الشمال وسمعت الأم وهى تؤكد عليهم آمرة . تخلصوا منها بأى ثمن . ووقف رجال القبيلة . . شهوداً صامتين . يؤكدون بصمتهم المصير الذى ينتظرها . عدا شيخ واحد أصم . . دق الأرض بعصاه وهتف بهم . .

- إلى أين تذهبون بالصبية اليتيمة . ؟ . .

وارتبك الخمسة . وأسرعت الأم تأخذ الشيخ بعيداً . . تحكى له عن زوج مزعوم فى قبيلة أخرى يطلبها للزواج . . وظل الرجل يلح فى السؤال . . ورحل الأشقاء الخمسة والشقيقة الوحيدة . جوعاً وعطشاً . والشمس غصة . وبحار الملح بلا نهاية . كانت تبكى . . يا أحوتى . يا أشقائى . ولم يجبها سوى الصدى . أنزلوها فى أول بئر قابلوها وتركوها معلقة حتى كفت عن البكاء والتساؤل . وأخرجوها ليواصلوا السير الخشن . . وكانت بغداد عالماً حزيناً رغم ألوانه الزاهية ساروا بها إلى «الكرخ» حيث يجلس حسنوية النخاسى . . عرضوها أمامه فسألهم بغتة . .

- من أين جئتم بها ؟ . .

وكالعادة إرتبكوا . نظروا إلى بعضهم كأنما يبحثون عن الأم لترد بدلاً منهم . . . ثم قال أكبرهم . .

- إنها جاريتنا . . مللناها وأردنا التخلص منها . .

ونظر حسنوية إليها فى تساؤل . . لكنها صمتت . . لماذا تنكر . . وتشكو . . ؟ . . لماذا تعود معهم ؟ فى الصحراء لا ينتظرها سوى الكراهية والملح والخناجر . . . قال حسنوية :

- عشرة دنانير . .

همهموا فى طمع :

- عبرنا كل هذه الصحراء من أجل عشرة دنانير . .

كانت فضل متأكدة أنه لو عرض عليهم أقل من هذا لقبلوا . . قال حسنوية

- خمسة عشرة دينارا . . لا يريدون دينارا واحدا .

كل واحد منهم أخذ ثلاثة دنانير . وعادوا يبكون إلى قبيلتهم «بني القيس» وهم يصيحون . .

أختنا أكلتها الذئاب . إختطفتها الذئاب منا .

وفردوا أمامهم ثوبها الملوث بالدم . الممزق بالأظافر . . وصدق الجميع حتى الشيخ الأصم . .

نظر «حسنوية» إليها . إكتشف حزنها الذى ينضج ولم يصقل بعد . من هذه اللحظة فقدت كل أنسابها . أصبحت فصيل العبدية . لم تنس شيئاً من عذاباتها . أيام الجوع وليالى الخوف . . والطرد حتى موت أمها كمداً كانت تهذى بكل هذا . . وتدفع الشعر من ينابيع هذه الآلام . . كان حسنوية يشذبها مثل يهودى يعمل بالماس . ومرت السنوات فلم تمح جرحاً أو ندبة . تعلمت أكثر مما قدر لها . ورفضت نقاب الجوارى . وجلست سافرة وسط شعراء بغداد . تسمع إليهم . وترد عليهم . تحفظ القصيدة من أول مرة . . ثم ترتجل فى التو قصيدة على نسقها . وفرك حسنوية يديه . . وهو يرى قيمتها تزداد كل يوم . .

لكن الحب . . ذلك الطائر الأبيض المقصوص الجناحين نقر جدار قلبها . ذات ليلة أقبل سعيد بن حميد إلى مجلسها . . لمحت نظرها لأول وهلة حمرة الخجل التى علت وجهه عندما طلبوا منه أن يقول شعراً . ثم قال أشعاراً حزينة عن الوحدة فى شوارع بغداد . لا تدرى لماذا لم تعارضه . لعل الشعر مس الجرح الذى جاهدت فى اخفائه . وانتصف الليل ، وأصبح القمر محاقاً . . فسمعته يتمتم فى صوت خافت . .

- هذا القمر . . يتركنا . . ويموت . .

التفتت إليه فى فزع . علت حمرة الخجل وجهه . بدأت تراقبه بإهتمام . لحيته السوداء الصغيرة . وأنفه المفلطح بعض الشىء . . هذه الكلمات الحمقاء التى تفوه بها . ماذا تعنى ؟. أخذت تسخر منه فجأة تردد الأشعار الموحية . وتترصد له . . وإنطوى هو على نفسه . . وضج المجلس بالضحكات . والجوارى يزقزقن من خلف الستر . وحسنوية خلع عمامته . . ونسى مخلة البغدادى وإنعزلت كؤوس الشراب وبالغت هى فى فسونها عليه . . وظل القمر محاقاً . .

لم يأت فى الليلة الثانية . ولا الثالثة . وبحثت عنه . وأدهشها أنها تبحث . ومال تاجر أغنام على حسنوية يعرض فيها مبلغاً كبيراً . لكنها رفضت . فرفض هو أيضاً . . وتقدم أمير جيوش الخليفة . كان قادماً من بلاد الهند والسند بعد أن قتل عدداً لا يحصى من الناس والأفيال ورفضته أيضاً . وتطلعت فى مرارة للمجلس الخالى إلا من أنصاف الرجال . وفى الليلة الرابعة كانت تقول شعراً قرأته واقفاً . .

هل لى نصيب فى فؤادك ثابت
كما لك عندى فى الفؤاد نصيب

حسنوية نائم على ظهره . وأمير الجيوش يلمع سيفه . وأقترب ابن حميد منها . كان هناك قمر مشقوق . وسوسنة . وظبى وحيد . وفضل تسرى فى داخلها رعدة غامضة . . قالت . .

- أين أنت يا بن حميد . . لقد افتقدناك . . ؟
ثم صمتت . حاول أن يبتسم ابتسامة خجلى . . ثم هتف . .

- ربما . . لأننى أحبك أكثر . .
لحظة وجيزة كخطف البرق . وأفاق السكارى . واعتدل حسنوية وقال :

- هى جاريتى . . حتى الحب . . له ثمنه المناسب . .
انعقد المزاد فجأة على غير توقع . إلتفت إليه ابن حميد . . وسأله . .

- كم تريد فيها . . ؟ . .
هتف حسنوية :

- عشرة آلاف دينار . .

وتمنت فضل لو أنه عرض ثمناً أقل . وقال ابن حميد : قد قبلت . وأضاف حسنوية . .

- أمامك ثلاثة أيام . . وإلا سوف يتضاعف المبلغ .
وخيم الصمت . ونهضت فضل . أغلقت باب حجرتها . كانت مسرورة . . إكتشفت فى هذه اللحظة ماذا يعنى إسمها . . فضل العبدية . . لا نسب . . ولا رأى . . ولا مصير . . وحين أقبل حسنوية صرخت فيه . .

- لماذا فعلت ذلك . . ؟ . .
قال فى صفاقة . . .

- ومن قال ان العشق بلا ثمن . . ؟

كانت النجوم لها لون الملح . ووقف إبن حميد أمامها فقيراً . فقر كل شعراء العالم بسيطاً وصريحاً مثلهم . لكن حسنوية على حق . . الحب كالاحلام باهظ الثمن . كم مرة تضاعفت هذه الخمسة عشر ديناراً الحقيرة منذ أن أصبحت فضل «عبدية» .

لم يحضر ابن حميد فى الأيام التالية . . بغداد ثقب ابرة . كل دينار ينفذ منها يحتاج إلى

معجزة . وإلى تلال من القصائد . مدح أمير الجيوش . وشهبندر التجار . والوزراء . وتجار الحروب . ولصوص القوافل . إستوهب ثمن عشقه من كل المتخمين . وتحول الشعر إلى أسماك بالية . ونامت فضل تحت شمس الصحراء . . ومد الأخوة أصابعهم ونزعوا قلبها . ألقوه فى قبر الدم . وهتف حسنوية . .

- وهل حسبت أنى أبيعك إلى شاعر مفلس . .

لكن هذا العاشق الشاعر المفلس جاء فى اليوم الخامس . وضع أمامه عشرة أكياس من الدنانير . . وترقب فضل كعصفورة .

وإشرأبت بغداد كلها . وضحك حسنوية فى سخرية . .

- هذا هو اليوم الخامس . . وهذا فقط نصف المبلغ . أمامك ثلاثة أيام أخرى .

وعاد ابن حميد يلهث وحيداً . وعادت فضل إلى حجرتها فإكتشفت أن حسنوية قد وضع حرساً على كل منافذ البيت . وكانت تحلم بابن حميد ، يرشق الزهر فى مفرق شعرها . . وعلى وجهها وصدرها . يغطى جسدها كله بورق الزهو . . حتى إذا نهضت تناثر حولها كالفراشات الملونة . . ومدح ابن حميد الوزراء . والقادة . . والسماسرة . ولم يعطوه شيئاً . . ظلوا يلحون عليه أن يقص عليهم قصة غرامه الأبله . واستمع الخليفة إليه ضاحكاً . . طلب منه أن يسمع أشعاره أولاً فوضع ابن حميد قلبه بين يديه . تلوى مثل شهاب يحترق . وفجر فى الكلمات كل الأمنيات المرتعدة . . وأشار الخليفة لصاحب بيت المال أن يهبه عشرة آلاف دينار أخرى . ومرة أخرى حمل ابن حميد المال . وأصطفت الأكياس تحت أقدام حسنوية فتهتف . .

- ما أضعف إحساسك بالزمن . لقد تبددت المهلة الثانية كسحب الصيف . .

كان الحراس متيقظين . حين حاولت الهرب قبضوا عليها . وضحكت بغداد فى خشونة . . ونصحه أصدقاؤه بهذا المال تستطيع شراء جيش من الجوارى الروميات والحبشيات . لكنه يريد فضلاً ولا شىء سواها . وكان أبلهاً لدرجة كافية فذهب إلى الخليفة . . وقف بين يديه يحكى عن حبه الذى تقتله أطماع حسنوية . . فسأله . . .

- أى شىء تشبه فضل . هذه التى أضنتك . .

قال ابن حميد

- تشبه حلماً غامضاً . وتشبه كل لحظات العذاب والشوق . وتشبه قطر الندى .

ووعده الخليفة وعداً غامضاً . وفوجىء حسنوية بموكب الخليفة يدق بابه . وشعر بالراحة حين لم يجد ابن حميد فى ركابه . وقال الخليفة فى لهجة محددة . .

- أخرج لنا فضل لنرى حاجة ابن حميد . .

وأسرع يصمم على وجهها اللمسات الأخيرة ... هذا الخليفة المجنون يريد أن يعطي هذه الدرة لشاعر مفلس . وعندما أقبلت فضل على موجى الخليفة بدلك التألق لم يشبع منها . وازداد التألق وهي تقول أشعارها الحريرية . كانت تحاول أن تستمر الخليفة . علم برفع أصبعه الذي فيه شارة الحكم . أمر بأن يوقف هذا اللهاث لكنه قال

- أما سعيد بن حميد فسوف يكون عامل على خراسان . وأما فضل فستكون زينة قصري . .

وشهقت فضل . وقفز حسنوية فرحاً . وعاد الأقمار الملونة لقد حققت الخمسة عشر ديناراً أقصى استثمار لها . .

لا أحد يعرف أين ذهب ابن حميد . قالوا إلى خراسان وقالوا . بل طفت جثته فوق دجلة . وقالوا إنه في زنزانة مفردة في سجن (السر) . لكن الشيء المؤكد أن فضل سيقت إلى قصر الخلافة . ورأت شقائق النعمان تملأ الحديقة دائماً جروح نازفة تطلع إليها الجواري في حسد . كن جميعاً أجساداً جميلة ومحاجر قوية . وأنوثة لا تقاوم لكن فضلاً كانت عقلاً فريداً . شاعرة حقيقية . وعاشقة بلا أمل . هتفوا بها . .

- أسمعينا أشعارك يا فضل .

كانت تشعر بالغربة حارقة للحرير ملمس الشوك وللشراب طعم العلقم ظلت صامتة أمام الخليفة قادها إلى غرفته فكانت المعركة خاسرة رفضته ورفضت عرش الخلافة ولو شاءت لصعدت وحكمت وأمرت بما تريد كانت قد حسمت . إستولى عليها معه فليحدث ما يحدث لابن حميد. لتقتل الولاية أو يشترى الجواري لكنها لن تسلم نفسها مهما هددها الخليفة أو منع اللآلئ تحت ... بها ازدادت فرحة حسنوية وولعه بها سوف تبقى ... تحصل على ... الداخل

ويئس الخليفة منها فأعطاها للحراس . . وقادها الحراس للسجن ووضعوها السجان في قبو مظلم . وتداخل الليل والنهار والرطوبة وتسرس الفئران والحشرات البراغيث والقمل على ظهرها وحدوا خلائلها الطويلة الأميرة الشامخة ولم تكن تملك سوى أن تحلم . بشمس شموس ملونة وتسمع زهرات من شقائق النعمان . وتسمع أنباء وأحداث تتسرب إليهم ولم تحلم بابن حميد

وظل الخليفة يتوقع أن تلين قليلاً وعندما خشي أن تموت داخل السجن أمر غلمانه فأخرجوها وأعادوها إلى القصر دون مطلب محدد وأشركها في مجالس الشعراء والمغنين لعل شيئاً من مرح العالم يتسلل إليها وهكذا . قدر لها أن تراهم مرة أخرى

الأخوة الخمسة . . لم تتغير ملامحهم رغم كل هذه السنين . كما تطاردها فى الكوابيس . كانوا أمام الخليفة . . وأجسادهم العملاقة بدا عليها هزال غريب إرتعدت . . تخيلت أصابعهم وهى تمتد إليها وتعيدها إلى صحراء الكراهية . لتبيعها مرة أخرى . إلى نخاس آخر . . وكان أكبرهم يتكلم .

- رحماك يا مولاى . خمس سنوات من الجدب والمجاعة . بلاد اليمامة تقفر وكلنا فى عوز وحاجة . .

هيئتهم رثة مثل كلماتهم . حيوانات زاحفة تبحث عن شىء تلعقه . كانت بغداد ... مليئة بأفواج القبائل الرثة الجائعة بعد أن لفظتهم الصحراء القاحلة . قال الخليفة

- إذا كان الغد . . تعالوا إلى مجلسى . .

قبلوا الأرض تحت أقدامه وارتدوا . . وفضل لا تكف عن الإرتعاد . ثم نهضت سارت إلى جناح الخليفة . . لقد جاءت لحظتها أخيراً . . وحين توجه هو إلى جناحه وجد... فى أتم زينة . . وعطرها حار كنداء الرغبة . ورق صوتها للمرة الأولى . .

- أسعد الله يومك يا مولاى . . .

تطلع إليها فى دهشة . . ثم تساءل

- ماذا حدث للظبية النافرة ؟

ضحكت بصوت رائق وقالت .

- فلنقل أنها ملت المطاردة .

- قول غير مقنع .

ساد الصمت ، وكل منهما يتحسس الطريق إلى الآخر فتحت قنينة العطر .. قطرة على وجهها وقطرة على لحيته ثم قالت

- وهل يقتنع مولاى إذا قلت إنى اريد أن أعقد صفقة بيننا

وصمت الخليفة تلوى جسدها داخل ثيابها الشفافة . . إقتربت بوجهها ... وهمست . .

- هؤلاء الخمسة من بلاد اليمامة . هم قطاع الطرق الذين إختطفونى ... حسنوية . . وأنا أطالبك بعقابهم

ضحك بصوت جاف . إتجه برأسه لعله سعد من تأثير أنفاسها

- ذلك أمر مقضى لا دليل عليه ولا ...

- الدليل هو أنا . . والبينة هي كلماتى . . والجرح لا يندمل مهما مضى عليه . .
- إنهم رجال من بنى القيس . أنسابهم معروفة . . وعامل على اليمامة يعرفهم . .
قالت فى صوت خافت مبحوح . .

- هذه صفقتى يا مولاى دعهم فى «التنور» وانس أمرهم . . أكون لك . . دون قيد أو شرط . .

همهم : دون قيد . . أو شرط . . ؟ .
ثم هتف وهو ينهض مبتعداً . .

- كلا . . ليس دون بينة . . أو قاض .
وتركت جناحه صامتة . لم يبق خلفها إلا العطر والرغبة المحمومة فى نفس الخليفة . .
وجاء المساء وقد غلفها الصمت البارد . ورمقها فأدرك أنها لن تأبه به مرة أخرى . وفى الصباح جاء إليها غلامه وهو يقول . .

- يطلب منك مولاى أن تحضرى مجلسه . .
توجهت إلى القاعة . . رأت الخمسة واقفين . كانت سافرة كعادتها . . وتأملوها لبرهة ثم أحنوا رؤوسهم . . هل تعرفوا عليها ؟ . سألهم الخليفة فى غلظة . .

- اذكروا انسابكم . .
أدهشهم السؤال المفاجىء . ثم ذكر كل واحد نسبه . هى الوحيدة التى نزعوا نسبها . وحولوها إلى سلعة رخيصة . . وصرخ الخليفة . .

- أنساب كاذبة . . منتحلة . . وأنتم حفنة من قطاع الطرق . .
برقت عينا فضل فى إنتصار . دارت عيونهم فى فزع . حطت عليها لبرهة وجيزة . . هتفوا . .

- ولكن يا مولاى . . قومنا والجفاف . .
وصرخ الخليفة . .

- يا حراس . خذوهم إلى «التنور» لا أريد أن أسمع عنهم شيئا بعد الآن . .
وأحاط الحرس بهم . بأسمالهم ومخالبهم وكوابيسهم . . نظروا مرة أخرى . . لعلهم كانوا يتساءلون عن هذه النظرة المنتشية على وجهها . . إقتادوهم وهم يتأوهون كالحيوانات يحاولون الدفاع عن أنفسهم بكلمات متقطعة . . وأصبحت القاعة خالية فجأة . . كانت فضل مازالت تحلم . والخناجر تسبق حلمها : تمت الصفقة يا مولاى . . وعلى أن ادفع الثمن . . والصفقة على أى حال . . خاسرة . . خاسرة حتى الموت !

إسحاق الموصلى

من يبيعنى روحا ليست بذات جروح ؟!

إنحنى الخادم أمامه ، ثم قال :

- سيدى . . جاء الرجلان . .

وهتف به إسحاق الموصلى أن يدخلهما فوراً . . أطفأ المصابيح ، وأسدل الستائر لأن النجوم كانت متألقة أكثر مما ينبغى . وجلس يرتعد . يسمع خطواتهما القادمة . حتى وقفا أمامه بلا حركة . ثم أخذ يسمع صوت أنفاسه الثقيلة . فتح الأبواب ونظر خلفهما فتح النوافذ والمشربيات . لم يكن هناك سوى إسحاق الموصلى : الآخر الموجود فى داخله ، والغريب عنه فى نفس الوقت . والرجلان يقفان فى توحد مع الصمت والظلمة . وفكر : يحسن بمن كان فى مثل مركزى أن يتماسك قليلاً . لذلك صاح متظاهراً بالمرح واللا مبالاة .

- هيه . . هل تريدان شرابا أيها السيدان . . ؟ . .

ولم يردا عليه فأوشك أن يصرخ . جرى مثل طفل مذعور إلى صندوق النقود وأخرج كيسين كبيرين . ألقاهما تحت أقدامهما . وأخيراً تحرك أحدهما ، وأخذ الكيسين ودسهما تحت عباءته . وقال الآخر بصوت حاد كحافة السكين :

- من هو . ؟ . .

همس به إسحاق . . بالأسم كأنما يحدث نفسه : زرياب . .

- ما هو عمله . . وأين نجده . . ؟ .

هتف فى دهشة : الا يعرفه أحد منكما . . إنه تلميذى . .

وظلا صامتين . . وأصبح عليه أن يواصل حديثه المضطرب وحده .

لم يكن مضطربا بالمعنى الدقيق للكلمة . كان فقط يحاول منع اسحاق الموصلى الغريب من أن يتحدث بكل هذا الحقد وهذه المرارة . . والرجلان متوحدان داخل الظلمة ، حتى

..ه حتى تلحظه أنها غير موجودين ، وأنه يتحدث مع نفسه . فهتف فجأة :

– يا أصدقائى إننى لست خائفا . . المشكلة إننى أكره عدم الوفاء . . لقد كان تلميذى

أزاح الستائر فرأى بغداد مثل أرملة وحيدة سار إلى غرفة جاريته «دمن» ؛ أحب جواريه إلى قلبه . كانت ساهرة . تحس بما يؤرقه . ألقى بنفسه جانبها وهو يهتف :

– قلبى مثقل الليلة يا «دمن» . .

مسحت بيدها البيضاء على جبهته . وابتسمت . رسمت على شفتيها قمراً صغيراً وفكر : ان «زرياب» سوف يتحلل جسده فى التراب وهو وحده سوف يتحمل كل العذاب . سألها :

– هل تمنيت قتل أحد . .

هتفت دون تفكير : نعم . النخاس الذى باعنى بالطبع .

الآن يستل الرجلان خنجريهما . ولعل الصرخة تصل إلى هنا . . قال فى سرعة :

– غنى شيئاً يريح قلبى يا دمن .

أمسكت العود . رددت الالحان التى علمها أياها . إنها ألحان ماسخة . وكلمات ركيكة بلا معنى . ولكن صوتها يختلط بصوت غريب . . بزرياب وهو ينادى عليه فى الليل الساكن . فتسمع بغداد كلها النداء والصرخة . . فعاد يهتف بها :

– كفى . لم أكن أعرف أن ألحانى بمثل هذا السخف .

وتركت العود دون مناقشة لم تبذل أى جهد من أجله . من أجل أن تنتشله من داخله . ورأى اسحاق الخناجر وهى تخترق جسد زرياب الأسود . فتخرج دماؤه سوداء تختلط بليل بغداد الأسود . وتذوب الجثة . ويضيع الوزر ، و «دمن» ترقبه فى هدوء قاتل

– لاعبينى النرد . .

أحضرت النرد وأخذا يتبادلانه بينهما فى صمت . ونهض وخلع عباءته . وفك حزامه ولم تتبعه دمن . ظلت تحدق فيه . مدت يدها فى حركة متوسلة وهمست :

– سيدى . . انى أحب . .

التفت مدهشاً . تأمل وجهها المستكين الرافض . خيل إليه أنه لم يرها من قبل

همهم :

– ماذا ؟ من . . ؟ . .

همست بآخر اسم كان يتوقعه : زرياب . .
هل صرخ . . ؟ . . هل سمع أحد الصرخة ؟ هل استيقظت بغداد ؟ . أين غاص الخنجر . . ؟ . .

زرياب . . أيها الطائر الأسود الضال . . لماذا بنيت عشك على مافدنى ، والتقطت حبك من دم شرايينى . . حين وقفت بوجهك الكئيب وثيابك الرثة ، وركعت ، ومرغت وجهك فى عرق أقدامى . . وتوسلت إلى ؟ .

- مولاى . . علمنى . .
لحظتها . إكتشفتك أيها الوغد الموهوب . جوهرة لا تخفى قيمتها حتى على مبتدىء كان قدرى أن التقطك . وأعلمك . وأخافك ! . .

وسار اسحاق إلى مجلس الخليفة متأخرا . اكتشف أن الجميع قد سبقوه فى الدخول . لكنه تقدم صوب العرش دون أن يلتفت لأحد . كان مركزه يؤهله لهذا التقدم المباشر . . قال الرشيد :

- جئت فى وقتك يا أمير الغناء . . أحكم بيننا على هذه الموهبة الجديدة .
ورفع اسحاق رأسه فرأى الأمراء ، والقادة ، ورجال الحاشية . والشعراء . وزرياب . . يرقبه وعلى وجهه إبتسامة مليئة بالتشفى . كيف وصل ؟ كيف وقف أمام العرش ؟ . وسأله الرشيد :

- هل تعرفه . . ؟ . .
وتلجلج إسحاق وهو يحاول الأجابة . وتقدم زرياب . . ببرود قاطع :

- أنا تلميذه يا مولاى . . وأنغامى كلها . . فضل منه . . .

من أجل ذلك كان لابد من قتله . لأنه أرغم اسحاق الذى فى داخله أن يثنى عليه أمام الخليفة . إنه يظهر التواضع والسماحة الزائفة . وأمره الرشيد أن يناوله «العود» ، وأخرجه اسحاق من جرابه وأصابعه ترتعد . قدمه إلى زرياب لكنه لم يأبه به . ترك يده معلقة فى الهواء . واستدار قائلاً :

- يا مولاى . . لى عود نحته بيدى وأرهفته باحكامى . . لا أرتضى غيره .
وسأله الخليفة متعجباً :

- ما منعك أن تستعمل عود أستاذك . . ؟ . .
- إن كان مولاى يرغب فى غناء إستاذى غنيته بعوده . . وإن كان يرغب فى غنائى فلابد لى من عودى . .

واسحاق واقف كالابله . والطائر الاسود يغرس منقاره فى لحمه . . وأحضر العود فرأى الخليفة أنه لا يختلف . لكن اسحاق رآه . . وعرف سر اصرار زرياب ، واختفائه كل هذه المدة .

وضرب العود ضربة واحدة . . نغمة واحدة . ثم غنى . تنقل بين الأصوات كأنه يسبح مع موج . يعلو وينخفض . يفتح كل جراحات القلب . وارتعدت أحجار القصر . وسكنت بغداد . ووكفت الأسواق عن البيع والشراء . وكفت السحب عن السفر . . «زرياب» يغنى . . وإسحاق يتضاءل . . يتبدد . كيف صنع هذا العود ؟ . وأى شيطان ركب له أوتاره . ؟ .

وعندما توقف ظل الخليفة صامتا ، والمجلس محتبس الانفاس . هتف الخليفة ينادى اسحاق فأدرك أنه سوف يأمر بقتله . . لكنه قال :

– كان يجب أن أعاقبك لأنك لم تخبرنى بأمر زرياب من قبل . اعتن به أكثر حتى أفرغ له . . إن له معى شأناً كبيراً . .

وانحنى إسحاق . وابتسم زرياب . إحتضن عوده ومضى . . كيف لا يقتله ؟ . .
دخل اسحاق ذات مرة إلى مجلس الخليفة . كان إبراهيم عنده وفى مجلسه عشرون جارية . عشر عن يمينه وعشر عن يساره . وفور أن دخل سمع خطأ فى اللحن . فى عود ما . . أو وتر ما . قال دون تردد . هناك خطأ يا مولاى . ونظر الخليفة إلى ابراهيم فقال : لا يوجد خطأ . وأصر إسحاق . حدد الخطأ فى الجهة اليسرى . وإستمع ابراهيم إلى عزف الجوارى العشر ، وأكد أنه لا خطأ . وأمر اسحاق الجوارى العشر أن يمسكن وتضرب الثامنة . وأقر ابراهيم بالخطأ حين عزفت الثامنة وحدها . . وقال الخليفة وهو يرمق اسحاق فى اعجاب :

– يا ابراهيم . . لا تجادل اسحاق بعد ذلك . . ان رجلا فهم الخطأ بين ثمانين وتراً ، وعشرين حلقا لجدير ألا تجادله . .
كان هذا قبل أن يظهر الطائر الأسود . . ويرفض عوده . . ويبدد أصواته .
قالت «دمن» وهى تسترد النرد :

– لو شئت قتلتنى يا مولاى .
تأوه اسحاق وهو يرتدى عباءته ، ويربط حزامه : ما أكثر القتلى هذه الليلة . . خرج من غرفتها . إنحنى الخادم أمامه . . قال له :

– أحضر جوادى وجهزه للركوب . .

وفكر : سوف أذهب للخليفة ، وأعترف بكل شىء . .

مات أبوه ابراهيم الموصلى ، وفى عظامه برودة السجن ، والخوف من التشرد فى الازقة . وحين أمسك إسحاق بعوده اتهموه بأنه يسرق ألحان أبيه . لم تسمع أذانهم الصماء إلا نشازات الوتر . فياويح قلبى أين منهم تلك النار التى تحرقنى ولا تخبو وذلك الجوع الذى يعضنى ؟ . أغلقت أبوابى وأسدلت ستائرى . أمرت الخدم ألا يدخلوا على أى مخلوق . وما أن خلوت إلى نفسى حتى رأيته أمامى : ذلك الماخورى اللعين . شيخ يتوكأ على عصى مطعمة بالفضة . على رأسه قلنسوة ملونة وفى قدميه خفان لهما نفس الألوان تتداخل ملامحه فى لحيته . وتتداخل لحيته فى ثيابه وعباءته . . طوح الكأس بضربة من عصاه وأمرنى بالغناء . . فأخذت أغنى . أخرج كل عصارة قلبى ، وكل أحزانى . ولم تفارق نظرة السخرية وجهه . هتف بى . . يا لك من حيوان أعجم . . أهذا غناء ؟ . وأخذ العود وغنى هو . .

ولى كبد مقروحة من يبيعنى .
بها كبدا ليست بذات قروح . . ؟ . .

فوجئت أن الجدران والأبواب والسقوف وكل من فى البيت يتجاوب ويغنى معه . بل ان أعضائى وثيابى وأنفاسى تجاوبت معه . أننى أتحلل وأبكى وأزحف على أربع . وأقبل قدميه . وأعود . . أفتح النوافذ . وأحس بخشونة الحبال حول عنقى . وبايد تجذبنى إلى قاع دجلة البارد . . وألقى الماخورى بالعود وأمرنى بالغناء فبكيت . قلت : ليتنى أستطيع يا سيدى . ضربنى بعصاه كان رأسى قد انفلق . أخذت أغنى . . وأغنى . حتى تفتتت النجوم وتلونت الأقمار . وهتف بى . غن ياإسحق غناء حقيقياً . . وضربنى ضربة أشد . فغنيت حتى تواصل الليل والنهار . تفتحت كل الزهور . . ونضجت كل فتيات الأرض واشتقن للحب والجماع وغنيت حتى فتحت الممالك دون سلاح . غنيت مرارق وحرمانى . فخرجت البرودة من عظام أبى . وانفك قيد الرق عن معصم أمى . غنيت «دمن» التى أشتريتها وعبدتها . وغنيت خوفى القاتل من زرياب . وهتف الرجل : لقد غنيت أخيراً يا اسحق غناء حقيقياً . . ولن تغنى بعدها أبداً . وكاد يمضى . فهتفت أتوسل إليه أن يقول لى من هو ؟ . . فابتسم وهمس لى : ابشر يا اسحاق . كان الشيطان نديمك هذه الليلة . . لقد أخذت روحك وأعطيتك المجد . . فكيف خسرت الصفقة أيها الماخورى ، وسرق الطائر الأسود مجدى ؟ . .

انحنى الخادم أمامه وقال :
– الجواد معد يا مولاى . .

وقبل أن يستعد للنهوض . رفعت الستارة الموجودة على الباب . ودخل زرياب . . ووقف أمامه لا غاضباً ولا مبتسماً . . قال فى هدوء كأنما يقرر أمراً واقعاً :

- لقد نجوت من القتل .

وقال أسحاق بصراحة مطلقة : هذا أمر يؤسف له .

- إن رجليك لم يخدعاك . لكن الحظ حالفني هذه المرة . هذا الحظ الذي نادرا ما يحالفني .

وارتمى على احدى الوسائد وهو يتنهد ووقف إسحاق . وعندما ساد الصمت بدأ برمه . هتف .

- هذا يزيد الأمر تعقيدا . لو تم القتل لمر كل شيء ببساطة متناهية .

وتأوه «زرياب» وهو يهمس . أني خائف . .

وصاح اسحاق كالمستغيث ·

- أيها الوقح . كيف تأتي إلى وأنت تعرف إنني الذي حرضت على قتلك . ماذا تريد أن تفعل بي ؟ . .

- لست أدرى . . انني خائف فقط وخوفي مميت . كأنني أولد من جديد ولم يقطع «خلاصي» بعد ! .

وانهد اسحاق جالساً . وأخفى زرياب وجهه بين يديه . خيل إلى اسحاق أن «دمن» قد دخلت وجلست عند قدمي زرياب وغسلتهما بماء الورد ثم حملت الاناء ومضت وخيل إليه أن زرياب يبكي . تجاوز غيظه ونهض يهدئه . .

- أنا أكرهك . ولا حيلة لي في ذلك . لقد مكرت بي . وأردت أن تعطوني . حتى العود تركته في يدى مثل يومه ميتة لو أنك ولدى لكرهتك بنفس الدرجة . وليس أمامك وأمامي الاحلان : أما أن تذهب عني في الأرض الواسعة لا أسمع لك خبراً . وأما أن تقيم في بغداد على كرهي ورغمي . . مستهدفاً لسهامي . فإني لا أبقى عليك ولا أدع لاغتيالك سبيلاً .

وتساءل زرياب بهدوء : إلى أين تريدني أن أذهب . . ؟ . .

- بعيداً . لا إلى الشام . ولا إلى مصر . ولا إلى أي بلد يظللها ملك بني العباس . . أعبر البحر إلى الاندلس . .

ونهض زرياب . . همهم : سوف أرحل الليلة . .

كان ضعيفاً . مهزوماً . منكسراً دون أي مبرر . . وذهب . .

هل أشعلت بغداد أضواءها . . أو أن هذا الصبح قد جاء أخيراً . . ؟ . . ليلا أو نهارا لا يهم . . لقد أصبحت له وحده . . فهل أنت يا اسحاق . . اسحاق . . ؟ . .

ارغمت «دمن» وأخذت منها ما تريد . وغنيت للخليفة فوهب لك ضيعة وجوادا وجارية . وحين سأل عن «زرياب» تحدثت عن غدر العبيد وكيف يفرون إلى خرائب بنى أمية . وأخذت تصعد ، وتواصل النبش فى جحر الفأر المسمى بغداد . ويشرب الجميع طرباً لالحانك «الناشزة» . . وأنت وحدك تعرف متى يغنى زرياب . . حين يتداخل البرق والرعد وتفيض الأنهار فى الربيع وتهاجر العصافير . لحظتها يغنى زرياب أنت وحدك تعرف . . لأن الخليفة لا يسمع . . والأمراء لا يسمعون . . . .

قال اسحاق للخليفة المأمون :

– لا أريد أن أدخل مجلسك مع المغنين . أدخلنى مع الشعراء .

ووافق الخليفة فارتفع إسحاق درجة . ثم عاد يلح أدخلنى مع القضاة . فوافق الخليفة وارتفع اسحاق درجتين . وألح أكثر وأكثر : ادخلنى مع الفقهاء . . ووافق الخليفة فارتفع اسحاق ثلاث درجات . وكان لا يزال جائعاً . فتوسل للخليفة أن يدعه يصلى خلفه فى المقصورة . . وزجر الخليفة من الغيظ . . وجعله يهبط كل الدرجات ويعاود الدخول مع المغنين .

وخرجت من عنده أهز كتفى . واختتمت ليلتى باغتصاب «دمن» . . وفى الصباح وجدتها معلقة فى حبل . والحبل يتدلى من السقف . وجهها أزرق ، وجسدها بارد . .

يقولون يا اسحاق : لماذا أنت حزين هكذا . . ؟ . . فأقول : لقد أضنيت نفسى من فرط الاشتهاء . وحملت روحى عبء طموحى . وغيبت «دمن» فى بئر لا قرار له . .

تمنى الخليفة الواثق أن يوليني قضاء بغداد لما عرف من عفة لسانى وصدق نفسى . وها هى محكمة الموتى معقودة فوق قبر «دمن» . ودافعت عن نفسى . ان زرياب كان ضعيفاً أكثر مما ينبغى منهزماً قبل أن تبدأ المعركة . . ومع ذلك حكموا بإدانتى . .

وفى منتصف الليل طرق خادم الخليفة بابى ، هتف بى :

– مولاى هارون الرشيد مؤرق . . ويريدك على الفور . .

أخذت عودى وسرت إلى القصر . وسمعته وهو يصيح مثل طفل مشاغب :

– أريد المغنى . . أريد الموصلى . .

وارتميت على الأرض أمام سريره . . وهتف الخليفة فى توجع :

– غن يا اسحاق . . قل أغنيات الموتى التى تعرفها . .

أمسكت عودى لكن الريشة «انقصفت» . كل ما معى من ريش قد «انقصف» . وكل ما فى بغداد من حمام قد ذبح . توسلت إليه :

- لا أستطيع العزف يا مولاى . . لا يوجد ريش .

وتناول الرشيد من منضدة بجانبه خنجراً مرصعاً بالماس . . صاح وهو يلقيه إلى . .

- إعزف بهذا . .

ومررت بالخنجر على الأوتار . فتمزقت كلها . ونظر إلى الخليفة ببلاهة غاضبة . قلت لم تبق إلا شرايينى أصنع منها أوتاراً . غرست الخنجر فسال دمى قانياً كرغبة لا تشبع . وأخذت أغنى . . قطرة . . فقطرة ، والخليفة ينصت راضياً . . وعندما أوشك دمى على النفاذ ، هتف :

- هذا حسن يا اسحاق . . ولكننى الليلة . . كنت أحلم بزرياب !

◆◆◆

عبد الله بن المعتز
خليفة ليوم واحد

« أشقى الناس . . جسم تعب ونفس خائفة . . » . .

كـانت بغداد مثـل سهم مسمـوم . . لا يـدرى أحـد من أطلقـه ولا إلى اين ينطلق . . ؟ . . وابن المعتز يردد هذه الكلمات . . وخلفه الأعوان . . خليط متنافر من الشعراء والافاقين والترك والديلم . . كلهم يدفعونه دفعاً إلى قصر «المخرم» كأنهم يدفعونه إلى نهايته . .

هذا هو العام السادس والتسعون بعد مائتين . . واليوم هو الخميس التاسع من ربيع الأول . . والموتى أكثر من عدد الأيام . . والجميع متوجه إلى قصر «المخرم» بعد أن عجزوا عن إختراق قصر «الحسن» حيث تحصن الخليفة «المقتدر» . وجاريته ظلوم . ووزيره ابن الفرات .

إستوى إبن المعتز على العرش أخيرا . . لم يكن عرشا بالمعنى المفهوم . . كان مجرد أريكة أحضروها من أحد أركان القصر المهجور . . وأنزلوا ما عليها من اتربة . . وظل ما فى داخلها من حشرات صغيرة تزحف على جسد الخليفة وثيابه طوال مـدة جلوسه لأخـذ البيعة . .

أسرع غلمان الترك وأحضروا قاضى بغداد «أبو الشوارب» . . قادوه للقصر دون أن يبالوا بالرد على اسئلته . . وعندما وصل إلى القصر تقدم منه ابن حمدان والسيف متدل من خاصرته . . وأمره قائلاً :

- إستعد لمراسم بيعة الخليفة الجديد .

تساءل الشيخ فى بلاهة :

– وماذا حدث للخليفة المقتدر . . ؟ . .

وكان الجواب دفعة قوية في صدره . . ونظرة حادة من عيني ابن حمدان . . وكان الخليفة الجديد ابن المعتز جالساً على الاريكة مرتبكاً كطفل ، خائفاً كفأر مذعور وقع فى مصيدة . . وأخذ القاضى يسأله عن نسبه حتى وصل إلى الجد الأكبر العباس بن عبد المطلب . . وإنتهى من مراسيمه الابتدائية ليعلن أن النسب صحيح . . والسند الشرعى متوفر . . وحين رأى السيوف متحفزة صاح . .

– إن خليفة الله فى أرضه هو العباس عبد الله بن المعتز . . خليفة المسلمين وسليل العباسين . . واسمه الخليفة الراضى بالله . .

وهكذا أصبح على وجه الأرض خليفتان . فأيهما احق بالبقاء وأيهما أحق بالموت . . ؟ . . ووقف وجهاء المدينة كل واحد ينقض بيعته القديمة ويؤكد بيعته الجديدة للراضى . . نهر دجلة لا يقف رغم ما فى جوفه من جثث . . كذلك لا تقف الأرض بما عليها من مقابر . . فيا أيها النجم البعيد كن شاهداً على . . إن الأتراك الذين قتلوا أبى . . وقتلوا جدى . . يقفون الآن خلفى ليقتنصوا بيعتى بسيوفهم . .

تقدم ابن حمدان . . القائد الأفاق . هذا السيف المعلق فى خاصرته يبيعه لمن يدفع الثمن أكثر . . حارب مع العباسيين ضد القرامطة . . وحارب مع الطولونيين ضد العباسيين . . وها هو الآن ينكص عن بيعته للمقتدر ويهتف لابن المعتز :

– من أجل المسلمين . . ومن أجل خليفة راشد . . عاقل . . أعطى بيعتى وابرم عهدى . .

وأعطاه ابن المعتز الثمن فوراً . . عينه أميراً للجيش . . وتقدم ابن الجراح . . لعله كان الصادق الوحيد . . ولعل كل كلماته كانت هى الكلمات الصادقة الوحيدة . . وعندما بايع وإستدار لينصرف . . أعطاه الوزارة . . فبدت على وجهه علامات الدهشة الحقيقية . . ثم تقدم «عمروية» . . جاسوس الوزير . . وعين الترك فى مجالس العلم والفقه فى بغداد . . بايع بكل الاخلاص . . وظل واقفاً حتى انتزع ولاية الشرطة من فم ابن المعتز . . وتوالت بيعة الجسيع . . وتفرقت مناصب الدولة . . أثمان باهظة لبيعة بخسة واريكة مليئة بالحشرات . .

وأحس ابن المعتز . . أنه وحيد . . يصرخ فلا يسمعه أحد . . مثلما قال الشعر قديماً وألف الكتب ، وكانت النتيجة السخرية من هذا الأمير الذى فشل فى لعبة السياسة فلجأ إلى القلم وظل يطوف ببصره فى الموجودين ثم نهض صائحاً :

– اين ابن جرير الطبرى . ؟ . .

ونظروا إلى بعضهم فى دهشة . . وتقدم ابن حمدان وهو يقول :

– الطبرى مجرد رجل من رجال العلم . . وليس لبيعته أهمية تذكر . .

لكن الخليفة ضرب الأرض بقدميه :

– بل لها أهمية . . هى أكثر اهمية من كل هذه البيعات مجتمعة . .

وانهد جالساً فأوشكت الاريكة على التداعى . . وصرخ فى داخله . . إكتب بيعتى يا طبرى . . وهبنى سطراً من التاريخ . . منذ شهور اربعة عندما مات الخليفة المكتفى جاء الترك بالمقتدر وهو غلام لم يبلغ الثالثة عشر . . غالطوا فى حساب عمره ليثبتوا أنه قد بلغ قبل البيعة . . يومها ذهب ابن المعتز إلى الطبرى . . وسأله :

– هل كتبت هذه البيعة الجديدة ؟ .

لحظتها ابتسم الطبرى وترك ريشته فى الدواة وهو يقول :

– إنما اكتب عن أحوال الزمان يا أمير . . وخلفاء اليوم كالريش سرعان ما ينقصف . فمتى ينقصف سنى يا طبرى . . ؟ . .

فى السنة الرابعة من خلافة أبى «المعتز» إجتمع غلمانه الترك وقتلوه . . وحين حملوا رأسه إلىّ لم يكن يشبهها وهو على العرش . وإعتلى العرش عمى المعتمد فأصدر قراره بنفينا ـــ أنا وأمى وجدتى ـــ عن بغداد . . وماتت أمى . . وماتت جدتى وهى تقول :

– لا تنسى أبدا انك خليفة . .

حتى وأنا استجدى يا جدتى ؟!! أمدح الخليفة فيأمر بالعطاء . . ولكن الوزير يمنعه . . أمدح الوزير حتى تزهق روحى . لكن كاتب الديوان يوقفه . . فأمدح الكاتب . . وأمدح الخادم . . وأمدح الشرطى التركى . . ويصلنى عطائى فى النهاية مثل عصفور مقصوص الجناحين . .

ثم سعيت إلى «سر من راى» ثم إلى بغداد . . واجتمع عندى شركائى فى البؤس . . الشعراء . . والفقهاء . . وكنت بينهم يا طبرى . . بعينيك البراقيتين . . واذنيك اللتين تسمع بهما دبيب العصر الخفى . .

كنت أميرا . . صغيرا . . مغضوبا على . إذا شربت قطرة من خمر ثار الخليفة . . وإذا زارنى فقيه علوى غضب الوزير . . وإذا لم أذكر القرامطة بسوء فى كل مناسبة تلمظ الأتراك . . كنت أميراً . . ضئيلاً . . مات المعتمد فتولى المعتضد وأول ما فعله هو القبض

على ووضعنى فى السجن . . ولم يتركنى إلا بعد أن بايعت . . ومات المعتضد وجاء المكتفى فوضعت فى نفس السجن . . وبايعت نفس البيعة . ولم أكن أريد العرش . كنت فقط أريد لحظة من الأمان . . وأريد «خزامى» . . جارية «الضبط» المغنى . نهض إبن المعتز واقفاً . فنهض الجميع سار وسط القاعة وفكر حائراً . .

– هذا الليل سرعان ما ينقضى . ماذا سنفعل فى الصباح وفى بغداد خليفتان . . ؟ . تقدم ابن حمدان وامسك سيفه فى قوة .

– سوف نحاصر «الحسن» طوال الليل يا مولاى . . ونقتحمه فى الصباح ونأتيك برأس المقتدر . . وظلوم وابن الفرات . .

وهتف الآخرون فى حماس . . وأشار لهم أن ينصرفوا ليكون موعدهم فى صلاة الصبح . . وأخيراً . . أصبح وحيداً فتذكر «خزامى» . . هبطت على قلبه مثل قطرة الندى . . لقد أصبح أخيراً خليفة . . أقوى رجل فى بغداد أو هكذا يخيل له . . فهل يستطيع أن ينتزعها من سيدها «الضبط» المغنى ؟ هل يستطيع ان ينتزع قلبها ؟ . . أول مرة رآها كانت تغنى من أشعاره . .

حدثينى يا هم سؤلى ونفسى . .

من دهانى فى الحب أو من وشى بى ؟ .

منذ ذلك الحين وهو يطلبها وهى تنأى بعيدا . لا تعطيه صدا . ولا وصالاً . سار فى جوانب القصر الخالية . . رأى أوراقه وكتبه . . هذا أهم كتاب ألفه «طبقات الشعراء» . . سجل حافل لكل شعراء الدولة العباسية من أول ابن هرمه حتى الشيرازى . . لم يدع أحداً منهم إلا ابن الرومى . . ذلك الشعوبى القذر الذى هجا أباه وشمت فى قتله . . سوف يبقى هذا الكتاب بعد أن يزول العرش ولن يذكر أحد مدى المهانة التى عاناها وهو يؤلف كلماته ويطلب عطاءه فلا يستجاب له . .

وهذا كتابه الثانى . . «الأوراق» . . تأملات فى أيام الحزن والمنفى . . وضع فيه كل اشواقه وصباباته إلى خزامى . . كانت الكلمات تجسدها أمامه . . حين يختلط شوقه إليها بوهمه فى لقائها . . والكتاب الثالث . . «الجامع فى الغناء» فيه كل خبراته فى الموسيقى والشعر والاصوات . . كأنه تحد خفى للضبط المغنى سيد «خزامى» . . وكتابه الرابع «فصول التماثيل» عن الخمر فقط . . من يصدق هذا . . ؟ . . حين نهاه الخليفة عن الشراب . . وإندس الجواسيس فى الحانات والاديرة . . لم يجد سوى القلم كأساً . . وسوى الورق نديماً . .

إبتسم فى حزن . . القلب مثقل . . والليل طويل . . تطلع للضفة الأخرى حيث قصر «الحسن» . . مظلم أيضاً . . كلا القصرين والخليفتين ينتظران الصباح . وقرر أن

يترك القصر وأن يهبط للشارع .. إرتدى ثيابه وتسلل كأنه لص .. وحين لمست قدمـاه الوحل فى طرقات بغداد تمنى لو أن له القدرة على الطيران إلى بيوت أصدقائه .. إلى الصـولى ليلاعبه الشطرنج .. وقدامه بن جعفر ليقرأ معه الشعر .. والطبرى ليسأله عن أخبـار الزمان ..

وأدرك أنه لم يهبط إلا ليذهب إلى الطبرى .. كان يقف بالفعل مثل طفل مذنب أمام بيته .. فتقدم وطرق الباب .. وسمع وقع خطواته .. ثم فتح الباب .. وبدا الطبرى بلحيته البيضاء التى تصل إلى منتصفه .. وقف كلاهما مذهولاً أمام الآخر .. وارتج على الطبرى فأشار إلى الداخل وهو يقول :

- تفضل .. يا ..

واحتار ماذا يدعوه . سيدى .. ؟ أم أميرى .. ؟ أم مولاى .. ؟ أم يفتح له احضانه كالايام الخوالى .. وزاد هذا الموقف من ارتباكهما معاً .. ودخل ابن المعتز صامتاً .. شاهد الورق المتناثر والريش المقصوف الملقى على الأرض ، وجلس على أحد الحشايا .. وبلع ريقه فى صعوبة ثم هتف بصوت خافت :

- لماذا لم تحضر بيعتى ؟ ..

وتخاذل الطبرى فجأة .. أدرك أن الصديق القديم قد أصبح خليفة له شـرطة .. وجواسيس .. وسجون .. وقاموس خاص لكلمات النفاق :

- يا مولاى .. لست قائداً .. ولا أميراً .. أنا مجرد وراق صغير ..

وأوشك ابن المعتز أن يصرخ فيه . أمسك حزمه من الورق ونثرها بعرض الغرفـة وهتف :

- أنت لم تكتب بيعتى فى أوراقك .. لم تسجل تاريخ خلافتى .. ! ؟

ولم يستطيع الطبرى أن يكذب أو ينافق .. ظل واقفاً وابن المعتز يجلس فى الركن وهو يرتعد ..

- أنت أيضا .. تعرف أننى ريشة على وشك القصف ..

هتف الطبرى فى حرارة :

- مولاى .. لم أقل هذا ..

ورنت كلمة مولاى غريبة فى أذنه .. اقترب الطبرى ولمس كفّهُ بأصابعه الملوثـة بالمداد .. نظر كل منهما للآخر . توشجت بينهما فجأة كل الأواصر كالايام الماضية .. وقال الطبرى فى صدق :

- أنت رجل حقيقى .. متقدم فى معناك .. عال فى رتبتك .. ولكن الزمن مدبر .. والدنيا مولية .. وما أرى كل هذا إلا إلى أضمحلال ..

وهمس إبن المعتز فى خوف وحيرة :

- هل هى نهايتى .. ؟ ..

وصمت الطبرى .. فهمس ابن المعتز :

- لذلك لم تكتب ..

فردد الطبرى صدى صوته :

- لذلك .. لم أكتب ..

وأوشك أن يختنق بالبكاء ، فنهض وازاح الأوراق عن طريقه وهو يهتف بلوعة :

- عليك اللعنة يا طبرى .. سوف تكتب تاريخ موتى ..

وإنصرف من البيت لا يدرى هل يعود إلى داره القديمة .. أو يعود إلى قصر المخرم . ووصل إلى شاطىء النهر فصرخ بأعلى صوته :

- لم أكن اريد .. فردد الصدى :

- لم أكن اريد ..

رغم أنه عرشى .. إمتطاه ثلاثة خلفاء غيرى .. وإقتنص كل واحد منهم قطعة من عمرى .. حين قادتنى سيوف الترك فى المرة الثالثة لأقف أمام المقتدر .. الخليفة الغلام .. وأسمع ضحكات ظلوم من وراء الستر .. وهكذا قلت بيعة خوفى الثالثة .. لكن القاضى المثنى نهض واقفاً وقال فى مواجهة كل الأصوات المؤيدة :

- هو صبى .. ولا تجوز المبايعة له ..

شعرت انى ارتعد .. لقد قال القاضى الكلمات التى أخاف قولها .. رفعت عينى فوجدت القاضى ينظر إلى .. يطالبنى بالكلام .. هذه هى كلمتى .. وهذا هو عرشى ولكنى رأيت سيوف الترك فتخاذلت وتركتهم يقودونه للخارج ويذبحونه .. ورغم أن الأمور قد تفرقت .. ودبت الخلافات بين الكتبة ورجال الحرس القديم .. وأخذت الجارية ظلوم وأم الخليفة «شغب» تدبران شئون الحكم .. فقد ظللت صامتاً محايداً .. وأعلن ابن حمدان انشقاقه . والوزير ابو العباس وفاتك العضدى .. ومؤنس التركى .. وجاءوا إلى .. يعرضون العرش والخلافة .. ليتنى ما قبلت .. ليتنى ما قبلت ..

وجر أقدامه إلى قصر المخرم .. ووجد الحراس نائمين .. والقناديل مطفأة .. وجاء الفجر أخيراً .. بدأ أول نهار من نهارات حكمه .. واحتشد القصر بالناس كأن بغداد كلها

قد استيقظت في لحظة واحدة . . ووقف يصلي بالناس . . وابتهل طويلا . . ثم التفت إليهم وهو يقول :

- قد آن للحق أن يتضح . . وللباطل أن ينفضح . .

وهلل الجميع . . وركب ابن حمدان قائد الجيش . . وعماروبه صاحب الشرطة . . وخلفها جنود الخليفة . . توجه الجميع إلى «الحسن» لحسم الأمر . . وأخذ الخدم يجمعون أشياء الخليفة استعداداً للانتقال . . إلى القصر الجديد . .

ثم تعالت أصوات المعارك . . وبدأت السهام والكرات الملتهبة تملأ سماء النهر والمدينة . . نظر من النافذة فرأى العشرات وهم يجرون وفي أيديهم السيوف والرايات . . ولم يعرف أي جانب يؤيدون . . وامتلأ النهر بالسفن والحراقات . . وسأل عن الأخبار فلم يجبه أحد بشيء . .

واقتحم بضع الجنود القصر ليقولوا أن الأمور لم تحسم بعد . وانصرفوا على عجل كما جاءوا . . وسأل عن ابن حمدان فلم يجبه أحد . . وظل «الحسن» أمامه كأنه يسخر منه . . وسار بعض العامة والدراويش والصوفية يضربون الصنوج ويهتفون :

- نصر الله الخليفة . .

أي خليفة يعنون ؟ لم يدر . ظل حائراً . . مضطرباً . يحاول أن يفتح القرآن . أو يمسك السيف . . وحين رفع رأسه وجد خزامى أمامه . . هل كان يحلم ؟ . . هتف بحرقة :

- خزامى لقد أحببتك دائما . . ؟ . .

انحنت أمامه . . مدت ذراعيها كأنما تتعرض لشيء مجهول . . وهتفت :

- مولاي . . لقد مات ابن حمدان وفر جنوده . .

وهتف في حيرة :

- ماذا . . هل انهزم الخليفة . . وانتصر الخليفة .

- عليك بالفرار سريعاً . . إنهم يطلبون رأسك . .

كانت السفن توجه مقدمتها نحوه . . وجنود الترك يطوفون الحواري . وبغداد مثل امرأة توشك أن تلد سفاحاً . . وهتف في يأس :

- إبن حمدان لم يمت . . لقد انتصر على القرامطة . . وحارب من أجل الطولونيين . . لا يمكن أن يموت دون ثمن مناسب . .

ولم تترك له وقتاً . . جمعت ثيابه وأمواله فصرخ يريد الكتب . . ولبس عباءته وارخى

كل منهما على وجهه قناعا كثيفا . . وخرجا حيث ربطت الجياد . . وكانت الشوارع مليئة بالناس والسيوف والجثث والرايات . . وابتعدا سريعاً دون أن يتعرف عليهما أحد . وسألته :

– والآن . . أين يمكن أن نذهب . . ؟ . .

ها هى النهاية مثل كف مفتوح . . مرسوم عليه الماضى والحاضر والمستقبل . مثل خط مستقيم . . ترى لماذا راهنت عليه «خزامى» بعد أن خسر كل شىء . . أهى تعشقه . أم تعشق الموت فى الهزيمة . . امنحينى يدك يا خزامى وهبى كالريح واعصفى بقلبى . كان العرش قديماً مليئاً بالعتة . . وكان القلب هرماً مليئاً بالجروح . .

توجها إلى دار ابن الجصاص . . صديقه القديم . دق الباب فى يأس . . وأنفتح على الفور ليرى ابن الجصاص خلفه مبهوتاً . . أصفر الوجه وهو يقول .

– كنت أعلم أنك ستأتى إلى . .

تلفت فى فزع ثم سمح لهما بالدخول دون ترحيب . . وبعد أن أغلق الباب التفت إليه وقال فى حدة :

– انك لقاتلى . . ولكن لا أملك طردك . .

وابتسم الخادم إبتسامة صفراء وهو يهيىء لهما الغرفة . . وحين أصبحا وحدهما أخيراً . إستطاعت خزامى أن تجيب على السؤال الذى تأخرت اجابته طويلاً :

– وأنا أيضاً . . لقد أحببتك دائماً .

وأدرك أنه لم يفقد عرشه سدى . حتى ابن حمدان نفسه لم يكن ليتقاضى مثل هذا الثمن . . واستطاع أن يحلم بصوت مسموع . .

– سوف نرحل بعيدا . . نطارد الشمس حتى نصطادها . . ونعرف من أين تهب الرياح الأربعة . . كان من الخطأ أننى فكرت فى هذا العرش المليء بالعتة . .

وبكت خزامى دون صوت . . وقالت :

– أنت بائس . . تعس يا حبيبى . .

ولم يقل ابن الجصاص شيئاً لأحد . . لم يخنه ولم يجره . . كانت السيوف العمياء تحصد كل من تمسه شبهة . . للملك ركب جواده وهرب بعيداً . . لم يحتمل الخادم الأمر فاغلق عليهما الباب . . وذهب إلى الترك . .

ولم يسمعا ضجة الفرسان إلا وهم يقتحمون باب الغرفة . . وهم يدمدمون

كالحيوانات الغاضبة . . وانكسر الباب . . وبدأ خمسة من الفرسان شاهرى السيوف . . وصرخ واحد . .

- أين عدو الله . . ؟ . .

وألقت خزامى بنفسها عليه . . وتقدم أحدهم وجذبها من شعرها وألقاها بعيداً وحمله الآخرون وهم ينهالون عليه بالضرب . . وهتف إبن المعتز فى ذهول .

- قضى الأمر . . فلا حول ولا قوة إلا بالله . .

لكن القائد لطمه على وجهه وهو يقول .

- معك امرأة ثم تذكر اسم الله ! سوف يقام عليك حد الزنا يا عدو الله

كانت هذه هى التهمة اذن . . إقتادوه . . وأشاعوها بين العامة . . وعرضوا خزامى عارية الصدر بعد أن مزقوا ثيابها . . وأركبوه حماراً مقطوع الذيل وجلس الخليفة الغلام . . يسأله :

- أهذه نهايتك يا عدوا الله . . ؟ . .

واحنى رأسه قائلاً : قضاء الله على عبده . .

جاء القاضى مسرعاً . نفس القاضى الذى أعلن خلافته . . وأصدر فتوى عاجلة . . ان الزانى يرجم حتى الموت . . وطاف المنادى فى الشارع . وعاد الحمار المقطوع الذيل مرة أخرى . . وكل أنصار الأمس حملوا الحجارة وعلت اصواتهم فى زئير جائع . . وهتف أحدهم

- يا عدو الله . .

وإرتطم الحجر الأول بوجهه . . وتداخل الناس والجنود والسيوف . . أحس بشعور مهين . . بالغ الحدة . . وهبط على عينيه سائل لزج فتحول كل شىء إلى اللون الأحمر . . جاء الحجر الثانى . خيل إليه أنه يلمح الطبرى يجمع أوراقه الملوثة بالمداد وينصرف . نهالت الأحجار . . الحمار المقطوع الذيل توقف ونفضه من على ظهره . . ألقاه على الأرض مبتعداً عنه . . وتحولت المدينة إلى كائن خرافى مسعور . . أخذت الأحجار تنهال عليه . . والدم ينبثق من كل مكان من جسده . . ومد يده عالياً . وتقلصت أصابعه . . انه يُشهد الجميع أن بيعته قد نقضت . .

تم الكتاب
بحمد الله

فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٣٠٠/ ١٩٩٠

I. S. B. N. 977 - 01 - 2586 - 5.

○ ○ لماذا كتاب الأغانى

● وقعت فى عشق هذا الكتاب منذ الصبا ، كل شىء فيه كان آسراً ، ليالى السمر ، اغانى الجوارى ، مصارع العشاق ، نبل الفرسان ، هوس الشعراء ، كان مؤلفه ابو الفرج الأصفهانى كان يحاول ان يمسك فى يده آخر أهداب المجد الضائع وهو يكتب مرثية طويلة لشمس الحضارة العربيةالغائبة . لم يكتب عن الملوك والأمراء والقادة ، ولا عن الفتوحات العظيمة ولكنه كتب « التاريخ الصغير » تاريخ البشر العاديين فى ضعفهم وقوتهم ونزواتهم الصغيرة . وظل الكتاب بلا زمن حتى وجدتنى ـ بعد عام ١٩٦٧ ـ ابحث فيه عن أزمة جيلنا وزماننا ، اطرح عليه اسئلتى الملحة هل كان معدرا على الشخصية العربية ان تعيش الهزيمة الدائمة ؟ هل كانت الأمجاد السابقة مجرد وهم من الأوهام ، وقدم لى الكتاب القليل من الاجابات والكثير من الأسئلة لقد وجدت فيه الجذور الأولى للشخصية العربية بكل مافيها من سمو وضعف وجنون . شخصيات لازالت نابضة بالحياة ، حافلة بالالم تحمل نفس الهموم المعاصرة وان اختلفت الاقنعة كل ما فعلتة خلال هذه السطور اننى قدمت قرائتى المتواضعة لهذا الكتاب الثمين واعترف ان لحظات الحب التى عشتها وانا اكتبه قد لونت كل حروف كلماتى وحولت كل سطر من سطوره إلى ذكرى لا تنسى مهما كان فيها من الم

٦٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب